دكتور أحمد هنداوى هلال
أستاذ البلاغة والنقد المساعد
بجامعة الأزهر

المجاز اللغوى

فى لسان العرب لابن منظور

دراسة بلاغية تحليلية

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٣٩٠٣٧٤٦

الطبعـة الأولى

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــداء

أهدى هذا الكتاب إلى زوجتى المخلصة التى ساعدت وساندت فى جميع مراحل إعداده، وتأليفه حتى خرج على صورته الماثلة بين يدى القارىء الكريم.

المؤلـــف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد . . .

فقد تبوأ المجاز منزلة رفيعة في البيان العربي، وأولاه البلاغيون عناية فائقة، فشغل حيزا رحبا في كتبهم، ونتاجهم، وقد جعلوه شطرين متقابلين، شطرا في الإثبات، وهو المجاز العقلي، وشطرا في المثبت وهو المجاز اللغوي، وقسموا شطره اللغوي قسمين استعارة، ومجازا مرسلا، وكانت العلاقة بين المعنى الحقيقي، والمعنى المجازي هي مناط التمايز بينهما، فإذا كانت العلاقة هي المشابهة، كان استعارة، وإذا كانت العلاقة هي الملابسة، والاتصال، كان مجازاً مرسلاً، ومما قاله الشيخ عبدالقاهر الجرجاني في هذا الصدد: « . . إن الاسم المستعار يتناول المستعار له؛ ليدل على مشاركته المستعار منه في صفة هي أخص الصفات التي من أجلها وضع الاسم الأول أعني أن الشجاعة أقوى المعاني التي من أجلها سمي الأسد أسدا، وأنت تستعير الشيء للشيء على معنى إثباتها على حدها في الأسد، فأما اليد ونقلها إلى النعمة، فليست من هذا في شيء؛ لأنها لم تتناول النعمة لتدل على صفة من أوصاف اليد بحال . . »(١).

وقد وفقني الله – سبحانه وتعالى – وهداني إلى الاتجاه صوب (لسان العرب) عندما بدأت أفكر في كتابة بحوث أتقدم بها لنيل درجة أستاذ مساعد في البلاغة

---

(١) أسرار البلاغة تعليق محمد رشيد رضا/ ٣٢٤ مكتبة القاهرة ١٣٧٩هـ.

والنقد، وأعان – سبحانه – على ارتياد آفاق هذا السفر الكبير، وقراءته، واستخراج مادة علمية غزيرة منه، بعضها خاص بالمجاز اللغوى، وبعضها يتعلق بغيره، وقد طبع، ونشر – بحمد الله – معظم هذه المادة العلمية، والأمل أن يوفق الله، ويعين على كتابة وطبع ما بقى منها.

وقد ظفرت فيه بأنماط جديدة فى المجاز اللغوى، وغيره، لم تألفها كتب البلاغة المعهودة، أو تخطها أقلام البلاغيين المشهورين، ويتمثل ذلك فى شواهد قرآنية كريمة، وأحاديث نبوية شريفة، وشواهد من كلام العرب، شعره، ونثره.

وقد جعلت المجاز اللغوى فى هذا الكتاب الماثل بين أيدينا فى مقدمة، وتمهيد، وثلاثة أبواب وخاتمة ثم ذيلته بالفهارس المتنوعة.

عرفت فى التمهيد على عجل (بابن منظور) رحمه الله، ومعجمه (لسان العرب).

وخصصت الباب الأول بالمجاز المرسل[1] وقسمته إلى خمسة فصول تناولت فى الفصل الأول تطور حقيقة المجاز المرسل، عند بعض كبار البيانيين ابتداء من أبى عبيدة معمر بن المثنى، وانتهاء بالخطيب القزوينى.

وعرضت فى الفصل الثانى علاقات المجاز المرسل التى وجدتها فى (لسان العرب) من خلال الشواهد التى تطرق إليها من القرآن المجيد، والحديث النبوى الشريف، وشعر العرب، ونثرهم.

وتناولت فى الفصل الثالث ما سماه بعضهم المجاز عن المجاز، أو المجاز بمراحل، من خلال بعض ما أورده صاحب اللسان، ويمكن أن يعتبر من هذا الضرب وإن كان ما أورده قليلا.

وتعرضت فى الفصل الرابع لإمكانية أن يطلق مصطلح المجاز المرسل، أو الاستعارة على لفظ واحد باعتبار العلاقة المقصودة فيهما.

وفى الفصل الخامس، والأخير بينت أن اللفظ الواحد يمكن أن يعد مجازا مرسلا أو استعارة باعتبارين إذا اختلفت الحيثية المعتبرة فيهما.

---

(١) المجاز المرسل مطبوع فى كتاب مستقل منذ عام ١٩٩٤.

وجعلت الباب الثانى خاصًا بالاستعارة غير المفيدة، ومتى تصبح مفيدة؟[1] وقسمته إلى خمسة فصول:

عرضت فى الفصل الأول تطور نظرات النقاد، والبلاغيين فى هذه الاستعارة، وآثرت منهم قدامة بن جعفر، والآمدى، وأبا هلال العسكرى، والشيخ عبدالقاهر الجرجانى، والزمخشرى، والسكاكى، والخطيب القزوينى.

وتناولت فى الفصل الثانى الاستعارة بين أسماء الذوات، مثل استعارة (الطلا) وهو ولد الظبى للطفل المولود حديثا، واستعارة ولد الأتان، وهو (التولب) لابن الإنسان، واستعارة (الحفان) وهو ولد النعام لصغار الإبل، ونحو ذلك.

وفى الفصل الثالث تطرقت إلى الاستعارة بين الأعضاء وما يماثلها، نحو استعارة (برثن) الأسد، وهو مخلبه لأصابع الإنسان، واستعارة شفة الإنسان للمهر، واستعارة عجيزة المرأة للرجل إلخ.

وعرضت فى الفصل الرابع استعارة أسماء بعض الأعمال الخاصة بعضها لبعض، كاستعارة (رصع) الطائر أنثاه لغشيان الرجل زوجه واستعارة (عسب الفحل) وهو ضرابه الناقة، للآدميين، وما أشبه ذلك.

وفى الفصل الخامس والأخير استعرضت استعارة بعض الأصوات لغير النوع الذى اختص بها، كما فى استعارة نعيب الغراب، للإنسان، أو الديك، واستعارة الشحيج، وهو صوت البغل للإنسان.

وخصصت الباب الثالث بالاستعارة المفيدة (المعنوية)[2] وجعلته فى فصلين، تناولت فى الأول الاستعارة التصريحية، وتتمثل فى الأصلية، والتبعية، والتمثيلية، وعرضت فى الثانى الاستعارة المكنية – على رأى السلف – ورصدت مواقع قرينتها –

---

(١) نشرت هذه الاستعارة فى حولية كلية اللغة العربية بالمنوفية فى العدد الرابع عشر سنة ١٩٩٤م بعنوان (رؤى جديدة فى الاستعارة غير المفيدة) ومادتها – عدا نظرات البيانيين فيها – مستمدة من (لسان العرب) وقد غيرت هنا بعض كلمات فى عناوينها لتتلاءم مع عنوان الكتاب دون تغيير فى محتواها، ومن أجلها جمعت المجاز المرسل، والاستعارة المفيدة معها فى كتاب واحد؛ حتى يكون المجاز اللغوى برمته بين يدي القارئ المتخصص، والباحثين من طلاب العلم.

(٢) نشرت فى عمل مستقل عام ١٩٩٧م.

أعنى الاستعارة التخييلية من الإعراب – من خلال الشواهد البلاغية التـى ذكرها (ابن منظور) .

وغنى عن البيان أن (لسان العرب) معجم لغوى، وليس كتاب بلاغة؛ ولذلك كان يشير إلى المجاز بأنواعه إشارات سريعة، دون أن يعنى بتحديد نوع، أو تحرير مصطلح، فكان عندما يتناول المجاز المرسل –مثلا – يذكر أن فى الكلمة مجازا من غير أن يعين نوعه، أو يومىء إلى علاقته، فقد صرح بأن استهزاء الله – سبحانه وتعالى – فى مقابلة استهزاء المنافقين مجاز فى قوله – عز وجل: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [البقرة: ١٤] واستهزاء الكفار حقيقة، ولم يزد على ذلك شيئًا، ومعلوم أن هذا مجاز مرسل علاقته السببية، وقد يشير إلى نوع العلاقة كما جاء فى تعليقه على قول رسول الله ﷺ: « من ولى قاضيا، فقد ذبح بغير سكين »، فقد علق على هذا الحديث قائلاً: « ... والذبح ههنا مجاز عن الهلاك؛ فإنه من أسرع أسبابه » وأحيانا – لا يصرح بكلمة (مجاز) ولا يشير إلى العلاقة، وإنما يفهم المجاز من شرحه، وإيضاحه، ويبدو ذلك جليا عندما بين أن كلمة (اليد) استعملت فى النعمة، والإحسان، والمنة، والصنيعة، وأضاف قائلا: وإنما سميت (يدا) لأنها ربما تكون بالإعطاء، والإعطاء إنالة باليد – كما سيجىء بيانه – إن شاء الله – فى سائر العلاقات .

وفى تناوله للاستعارة كان – أحيانا يصرح بلفظ الاستعارة، أو ما اشتق منها، دون زيادة إيضاح، فقد ذكر – مثلا–أن (السن) الجارحة استعيرت للعمر؛ لأن الأسنان تدل عليه، كما جاء فى حديث عثمان – رضى الله عنه –وجاوزت أسنان أهل بيتى أى أعمارهم .

وقد يعبر عن الاستعارة بلفظ التشبيه، أو ما اشتق منه، ولعله نظر إلى أن التشبيه هو أصل الاستعارة، أسوة بالبيانيين، ومن هذا القبيل ما ذكره فى استعارة الجعفر، وهو النهر للناقة الغزيرة اللبن، وذلك فى قوله: « الجعفر النهر عامة... وقيل النهر الملآن، وبه شبهت الناقة الغزيرة » .

وفى بعض الأحيان تفهم الاستعارة من شرحه، وبيانه، ومن ذلك الضرب ما جاء، وهو بصدد إلقاء الضوء على مضمون استعارة النيران للسيوف فى قول الشاعر:

فَإن تَعَافُوا الْعَدْلَ والإيمَانا فإنّ فـى أيماننا نيرانا

فقد أبان أن الشاعر يعني بالنيران سيوفا «فاكتفى بذكر السيوف عن ذكر الضرب بها».

وفى ختام هذه المقدمة أود أن أشير إلى أن هذا العمل لم يهتم - فقط - بحشد هذه المادة العلمية، وتصنيفها، وعرضها، بل عنى كثيرا بالوقوف عند كل مجاز، والتأنى فى فهمه -قدر الجهد والطاقة - والموازنة بين كلام اللغويين، والبيانيين، واختيار ما يتسق مع الثوابت البلاغية.

وقد وصل الأمر فى بعض الأحيان - إلى مناقشة بعض تعبيرات جاءت فى (لسان العرب) بدا لى أنها تحتاج إلى تعديل، مثل قوله وهو بصدد الحديث عن إطلاق لفظ الصلاة على الفاتحة (... أراد بالصلاة هنا القراءة تسمية للشىء ببعضه) والظاهر أنها من تسمية الشىء بكله؛ لأن لفظ الصلاة هو المنطوق به فى الحديث النبوى الشريف الذى جاء فيه هذا المجاز، ولعل ذلك وقع على سبيل السهو.

وآمل أن يكون هذا العمل قد أخرج فى صورة مقبولة، ونافعة لطلاب العلم، والباحثين فى البيان العربى.

﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

طنطا فى غرة المحرم ١٤٢٦هـ
١٠ من فبراير ٢٠٠٥م

دكتور / أحمد هنداوى هلال



تمهيد

أود أن ألقى فى هذا التمهيد الضوء فى عجالة على شخصية (ابن منظور) ومنزلته العلمية، وعلى معجمه الكبير (لسان العرب) لأن اسم كل منهما يتصدر وجه هذا العمل، ويمثل جانبا من عنوانه، وأيضًا فإن مادته العلمية قائمة ومبنية على ما ذكره فى هذا المعجم المنقطع النظير.

● **اسمه ونسبه:**

هو محمد بن مكرَّم بتشديد الراء ابن على بن أحمد بن أبى القاسم بن حبقة ابن منظور الأنصارى[1]، وقد اشتهر باسم (منظور) أحد أجداده الأعلون.

وقد صرح بنسبه فى بعض المواضع من (لسانه) فقال: « .. فأما جربة بالهاء، فقرية بالمغرب لها ذكر فى حديث رويفع بن ثابت – رضى الله عنه – قال عبدالله بن مكرم رويفع بن ثابت هذا هو جدنا الأعلى من الأنصار، كما رأيته بخط جدى نجيب الدين والد المكرم، أبى الحسن على بن أحمد بن القاسم بن حبقة بن محمد بن منظور ابن معافى..»[2].

● **مولده ووفاته:**

ولد فى شهر المحرم سنة ٦٣٠هـ[3] بمصر وقيل فى طرابلس الغرب[4].

وقد خدم فى ديوان الإنشاء بالقاهرة، وولى القضاء فى طرابلس الغرب، ثم عاد إلى مصر وتوفى بها فى شعبان ٧١١هـ[5].

---

(١) معجم المؤلفين، تاليف عمر كحالة ١٢ /٤٦ مكتبة المثنى – لبنان.

(٢) لسان العرب ١/ ٥٨٤ (جرب) ط دار المعارف – القاهرة.

(٣) بغية الوعاة، للسيوطى ١/ ٢٤٨ تحقيق محمد أبو الفضل، بيروت، لبنان.

(٤) الأعلام، لخير الدين الزركلى ٧/ ١٠٨ دار العلم للملايين، بيروت ط رابعة ١٩٧٩.

(٥) ينظر بغية الوعاة، للسيوطى ١/ ٢٤٨.

وشذرات الذهب فى أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلى ٦/ ٢٦ دار إحياء التراث، بيروت والأعلام ٧/ ١٠٨.

● منزلته العلمية:

يتسنم (ابن منظور) مكانة علمية سامية سامقة، لا يصل إليها إلا الأفذاذ القلائل الذين آتاهم الله بسطة فى العلم، وغزارة فى الذكاء والفهم، وقد وصفه أولو الفضل من العلماء بنبيل السجايا، وعظيم الصفات، فهو (الإمام الحجة اللغوى)[1] الفاضل فى الأدب، المليح فى الإنشاء، المتفرد فى العوالى، العارف بالنحو، واللغة، والتاريخ، والكتابة[2].

وهو «علم الهداية الباذخ، وطود الدراية الشامخ، الناضل الذى مارمى إلا أصاب فؤاد الغرض، والطبيب الذى أزال عن عيون المشكلات كل غشاوة، وعن قلوبها كل مرض، ذو التصانيف الفائقة العديدة، والتآليف الرائعة المفيدة، واللطائف الجمة، والطرائف المهمة شيخ الشيوخ، راسخ القدم فى كل فن أعظم رسوخ، الحافظ المتقن، المتفنن، المتحدث، المتفرد بالعوالى، المتمكن الإمام جمال الدين محمد بن الشيخ الإمام جلال الدين أبى العزم مكرم.. الشهير بابن منظور..»[3] ويكفيه فخرا ورفعة فى ساحة العلم أنه «ترك بخطه نحو خمسمائة مجلد»[4].

● مكانة (لسان العرب):

أثنى كثير من العلماء على معجم (لسان العرب) وأنزلوه منزلته اللائقة به، منهم أحمد فارس الشدياق الذى قال فى تقريظ (اللسان) «.. أقرر أن أعظم كتاب ألف فى مفرداتها - أى مفردات اللغة العربية - كتاب (لسان العرب) للإمام المتقن جمال الدين محمد بن جلال الدين الأنصارى... فهو يغنى عن سائر كتب اللغة، إذ هى بجملتها لم تبلغ منها ما بلغه..»[5].

وهذه شهادة ممن قرأ (لسان العرب) وسبر غوره، وعرف قدره فهو مشحون بعلوم اللغة العربية بحيث يمكن الاستغناء به عما عداه من كتبها المتنوعة؛ لأنه بلغ

---

(١) الأعلام ٧/ ١٠٨.
(٢) ينظر بغية الوعاة، للسيوطى ١/ ٢٤٨.
(٣) من كلمة مصحح العلوم في ختام لسان العرب محمد الحسينى ط بولاق ٢٠/ ٣٨٧.
(٤) الأعلام ٧/١٠٨.
(٥) مقدمة الطبعة الأولى من لسان العرب ط بولاق ١/ ٢ - ٣.

شأوا لم تبلغه هذه الكتب، وما ذاك إلا لأنه « ... البحر المحيط باللغة العربية تستخرج من لجه اللآلىء الأدبية، لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولم يدع شاردة ولاواردة من غريب اللغة، والحديث والآى إلا قيدها وأبداها... »(١).

وقد ذكر (ابن منظور) نفسه أنه جمع فى كتابه خمسة كتب هى الصحاح للجوهرى، وحاشية ابن برى عليه، والتهذيب للأزهرى، والمحكم لابن سيده، والنهاية لابن الأثير(٢).

ثم قال « وليس لى فى هذا الكتاب فضيلة أمت بها، ولا وسيلة أتمسك بسببها سوى أنى جمعت فيه ما تفرق فى تلك الكتب من العلوم... فليعتد من ينقل عن كتابى هذا أنه ينقل عن هذه الأصول الخمسة... »(٣).

ويبدو أن هذا الذى قاله هو من قبيل تواضع العلماء الجم، وعدم مباهاتهم بأعمالهم الجليلة، وهضمهم أنفسهم، فقد أثبتت الدراسة المتأنية أن معجمه كان عملا جديدا، وليس مجرد جمع لمجموعة كتب فى كتاب واحد، وكانت له شخصيته البارزة فى طول هذا المعجم، وعرضه، ولا أدل على ذلك من أنه كان ينقد من يأخذ عنهم فى منهجهم، وفى مادتهم اللغوية(٤).

* * *

---

(١) من كلمة مصحح العلوم محمد الحسينى فى ختام ط بولاق ٢٠ / ٣٨٧.

(٢) ينظر مقدمة لسان العرب: ١١ - ١٢ ط دار المعارف.

(٣) نفسه: ١٢.

(٤) ينظر ابن منظور اللغوى منهجه وأثره فى الدراسات اللغوية، للدكتور محمد متولى منصور - ٣٥٣ - ٤٣٦ رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية اللغة العربية بالقاهرة.

الباب الأول

المجاز المرسل

- تطور حقيقة المجاز المرسل
- علاقات المجاز المرسل فى لسان العرب
- المجاز عن المجاز
- بين المجاز المرسل والاستعارة فى لسان العرب
- بين المجاز المرسل والكناية فى لسان العرب

الفصل الأول

تطور حقيقة المجاز المرسل

١ - المجاز المرسل عند أبى عبيدة.

٢ - المجاز المرسل عند ابن قتيبة.

٣ - المجاز المرسل عند أبى هلال العسكرى.

٤ - المجاز المرسل عند القاضى عبد الجبار.

٥ - المجاز المرسل عند الشيخ عبد القاهر الجرجانى.

٦ - المجاز المرسل عند الزمخشرى.

٧ - المجاز المرسل عند الإمام فخر الدين الرازى.

٨ - المجاز المرسل عند أبى يعقوب السكاكى.

٩ - المجاز المرسل عند الخطيب القزوينى.

الفصل الأول

تطور حقيقة المجاز المرسل

حاولت في هذا الفصل أن ألقى بعض الضوء على ما عرف - بعد - بالمجاز المرسل من خلال كلام بعض كبار البيانيين - على قدر جهدى - ولم يكن الهدف هو الاستقصاء، وحصر الكلام فيه على هؤلاء الأعلام دون سواهم، ولكنها نظرات تبدت أمامي، أو أفدتها من كتابات بعض الباحثين حول هذا المجاز، فأردت أن أسجلها لعلها تكون مفيدة نافعة.

● **المجاز المرسل عند أبى عبيدة ت ٢٠٩هـ:**

يعتبر أبو عبيدة معمر بن المثنى أقدم من عثرت عنده من البلاغيين على لمحات دالة، وإشارات عابرة إلى حقيقة المجاز المرسل، فقد أومأ فى كتابه (مجاز القرآن) إلى حقيقة هذا المجاز، فذكر عند قوله تعالى حكاية عن الملائكة ﴿...**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ**..﴾ [البقرة: ٣٠] أن معنى (نسبح) «نصلى تقول قد فرغت من سبحتى أى صلاتى»[١] وهذا وهذه إشارة إلى علاقة الجزئية حيث أطلق التسبيح وهو جزء من الصلاة على الصلاة بجميع أجزائها، ومنه قوله تعالى: ﴿**فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ**﴾ [الصافات: ١٤٣] أى المصلين[٢].

ومن المواضع التي لوح فيها أبو عبيدة إلى حقيقة هذا المجاز ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿**وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا**﴾ [الأنعام: ٦].

فقد قال: «مجاز السماء ههنا مجاز المطر يقال مازلنا فى سماء أى مطر، ومازلنا نطأ السماء أى أثر المطر، وأنى أخذتكم هذه السماء؟»[٣] فإطلاق السماء على المطر مجاز مرسل علاقته المجاورة[٤].

---

(١) مجاز القرآن ١ / ٣٦ تعليق دكتور محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجى - القاهرة.

(٢) ينظر تفسير القرطبى: ٢٣٦ ط الشعب.

(٣) مجاز القرآن: ١ / ١٨٦.

(٤) ينظر بغية الإيضاح: ٣ / ٩٤.

والمعول عليه في كلامه المذكور أنه فسر السماء بالمطر، أما اعتباره ذلك مجازا، فليس قطعي الدلالة؛ لأنه لم يقصد من كلمة المجاز ما يقابل الحقيقة، وإنما كان يريد بها تفسير الكلمة، وتوضيح معناها، سواء كانت هذه الكلمة مستعملة في معناها المجازي، أو الحقيقي، وقد صرح بذلك محقق كتابه (مجاز القرآن)[١].

وقد ألمع إلى هذا المجاز أيضًا عند قوله تعالى: ﴿ . .فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ. . . ﴾ [السجدة: ١٤] فقال: «مجازه إنا تركناكم ولم ننظر إليكم، والله عز وجل لا ينسى فيذهب الشيء من ذكره»[٢].

فالنسيان في الآية ليس مستعملا في حقيقته؛ لأن الأشياء لا تذهب من ذكره، ولا تتملص من علمه، وعلى ذلك يكون إطلاق النسيان على الترك مجازا مرسلا، علاقته الملزومية «لأن المنسي يكون متروكا، فلما كان الترك من لوازم النسيان، أطلقوا اسم الملزوم على اللازم»[٣].

وأشار كذلك إلى علاقة (الآلية) عند قوله تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٤] فقال في معنى (لسان صدق) «أي ثناء حسنا في الآخرين»[٤] فصرف كلمة (لسان. .) عن معناها الحقيقي إلى الثناء الحسن، ومعلوم أن اللسان آلة الكلام، والثناء، فيكون مجازا مرسلا علاقته الآلية.

وألمع أبو عبيدة إلى المجاز المرسل أيضًا عند قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ [العلق: ١٧] فقد فسر (ناديه) بأهل مجلسه[٥].

فأطلق المحل على الحال فيه، وتلك علاقة المحلية. وهكذا نجد أبا عبيدة – رحمه الله – قد أشار إلى علاقات خمس من علاقات ما عرف بعد باسم المجاز المرسل، وهي الجزئية، والمجاورة، والملزومية، والآلية، والمحلية.

وربما يكون قد أومأ إلى علاقات غيرها لم أهتد إليها، أو أوفق في العثور عليها.

---

(١) مجاز القرآن: ١/ ١٩.
(٢) مجاز القرآن: ٢/ ١٣٢.
(٣) التفسير الكبير، للإمام فخر الدين الرازي: ٢/١/ ١٤٥ – دار الفكر – بيروت، ط ثالثة ١٤٠٥هـ.
(٤) مجاز القرآن: ٢/ ١٣٢.
(٥) مجاز القرآن: ٢/ ٣٠٤.

● **المجاز المرسل عند ابن قتيبة ت ٢٧٦هـ:**

كان عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى إماما من أئمة اللغة والأدب، وقد بسط القول فى المجاز، وشعب القول فيه، وأكد على وجود المجاز فى اللغة العربية، وفى النظم القرآنى الجليل، ويبدو مما كتبه حول المجاز أنه توسع فى استعمال كلمة المجاز كما توسع فيها أبو عبيدة من قبله، فكان يطلق مصطلح الاستعارة على ما عرف بالمجاز المرسل، وقد بدت من خلال بيانه، وشرحه لحقيقة هذا المجاز عدة علاقات، فقد جاء فى بعض المواضع من كتابه (تأويل مشكل القرآن) أنهم - أى العرب - « يستعيرون الكلمة فيضعونها مكان الكلمة لتقارب ما بينهما، أو أن إحداهما سبب للأخرى، فيقولون للمطر سماء؛ لأنه من السماء ينزل، ويقولون للنبات ندى؛ لأنه بالندى ينبت، ويقولون ما به طرق أى ما به قوة، وأصل الطرق الشحم، فيستعيرونه مكان القوة؛ لأن القوة تكون عنه »(١).

فكلامه المذكور آنفا يومىء إلى علاقتين: **أولاهما**: المجاورة، وذلك ظاهر من قوله (فيقولون للمطر سماء؛ لأنه من السماء ينزل). وقد عرض لحقيقة هذه العلاقة فى موضع آخر من كتابه عندما تناول قوله تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر: ٤] وجعل ﴿ ثِيَابَكَ ﴾ استعارة عن النفس، لأن الثياب تجاور جسم الإنسان، وجعلها مناظرة (لأثواب) فى قول ليلى الأخيلية وقد ذكرت إبلا:

رموها بأثواب خفاف فلا ترى   لها شبها إلا النعام المنفرا

« أى ركبوها فرموها بأنفسهم »(٢).

وكون الثياب مجاورة للأبدان، أو مشتملة عليها ينبىء أن هذا مجاز مرسل علاقته المجاورة، أو المحلية.

ثانيتهما: السببية وذلك واضح من قوله: (ويقولون للنبات ندى، لأنه بالندى ينبت) فإطلاق الندى وهو الغيث والمطر(٣).

---

(١) تأويل مشكل القرآن: ٣٠٢ نشره وشرحه السيد أحمد صقر ط ثانية ١٩٧٣م، دار التراث القاهرة.

(٢) تأويل مشكل القرآن: ١٤٢.

(٣) ينظر لسان العرب: ٦ / ٤٣٨٧ (ندى).

مجاز مرسل علاقته السببية؛ لأن المطر سبب فى النبات، وغنى عن البيان أن دخول باء السببية على (الندى) يعتبر شاهد صدق على أن إطلاقه على النبات مجاز مرسل علاقته السببية.

ومن قبيل هذه العلاقة أيضًا ما ذكره من إطلاق الطرق، وهو الشحم على القوة فى قولهم ما به طرق أى قوة حيث أطلق السبب على المسبب.

وقد ألمح فى ثنايا أمثلته التى ساقها إلى علاقة المسببية، فقال: «ومنه الذكر يوضع موضع الشرف، لأن الشريف يذكر، قال الله تعالى ﴿ **وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ** ﴾ [الزخرف: ٤٤] يريد أن القرآن شرف لكم، وقال تعالى ﴿ **لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ** ﴾ [الأنبياء: ١٠]، أى شرفكم، وقال ﴿ **بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٧١] أى أتيناهم بشرفهم»[١].

فقوله فى صدر كلامه المتقدم (.. لأن الشريف يذكر) يشير إشارة واضحة إلى أن الذكر مسبب عن الشرف، فيكون إطلاق الذكر عليه مجازا مرسلا علاقته المسببية.

وأشار ضمن أمثلته التى ذكر أنها استعارة إلى علاقة الآلية فقال: «ومن الاستعارة اللسان يوضع موضع القول؛ لأن القول يكون بها، قال الله عز وجل: ﴿ **وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ** ﴾ [الشعراء: ٨٤] أى ذكرا حسناً..»[٢] وقد أصبح واضحا من تتبع كلامه الذى يلوح إلى المسببية، والآلية أن إطلاق اللسان على القول يباين إطلاق الذكر على الشرف، فهذا من المسببية، وذاك من الآلية، وشتان ما بينهما، ولذلك فإننى لا أتفق مع الدكتور كامل الخولى - رحمه الله - فى اعتباره العلاقة فى الموضعين هى الآلية، فقد قال بعد أن أورد بعض كلامه حول العلاقتين كليهما: «وتتضح علاقة الآلية فيما ذكر»[٣].

ولعل ابن قتيبة كان يعتبر حقيقة ما عرف بعد بالمجاز المرسل من الاستعارة؛ لأن المصطلحات البلاغية فى عصره لم تكن قد تحددت مدلولاتها تحديدا دقيقا، أو يكون

---

(١) تأويل مشكل القرآن: ١٤٧. (٢) تأويل مشكل القرآن: ١٤٦.

(٣) صور من تطور البيان العربى، للدكتور كامل الخولى: ١٤١ ط أولى ١٩٦٢م دار الأنوار للطباعة والنشر.

قد حذا حذو بعض العلماء الذين يجعلون المجاز كله استعارة، لأن اللفظ استعير من مستحقه الذى وضع له أولا، ونقل إلى ما تجوز به عنه؛ ولهذا سموه مجازا[١].

● المجاز المرسل عند أبى هلال العسكرى ت ٣٩٥هـ.

بقيت صورة المجاز المرسل عند (أبى هلال) غير محددة المعالم، ولا واضحة الملامح، والقسمات، فقد جعله داخلا فى الاستعارة، ومشتملا بردائها الفضفاض، وهو بذلك لم يضف جديدا إلى تحديد هذا المجاز، والكشف عن ماهيته، وحقيقته وقد ظهر ذلك جليا عندما عقد فصلا فى (الاستعارة والمجاز) اعتبر فيه بعض أمثلة المجاز المرسل من قبيل الاستعارة[٢] فقال:

ويقولون – أى العرب – للمطر سماء قال الشاعر:

إذا نـــزل الســـماء بـــأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

ويقولون ضحكت الأرض إذا أنبتت..»[٣].

وإطلاق السماء على المطر مجاز مرسل علاقته المجاورة – وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

وقد ذكر بيت امرئ القيس:

فبـات عليه ســرجه ولجامه وبات بعيني قائما غير مرسل

ثم قال بعقبه «أى كنت أراه وأحفظه، وعلى هذا مجاز قوله عز وجل ﴿ **تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا** ﴾ [القمر: ١٤][٤].

واضح أن إطلاق العين على الحفظ مجاز مرسل علاقته السببية؛ لأن العين من أسباب الحفظ[٥].

ويبدو أنه ناقل عن سالفه (ابن قتيبة) ومتأثر به، يدل على ذلك «اتفاق كثير من الأمثلة عندهما»[٦].

---

(١) ينظر الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز، للعز بن عبد السلام: ٢٩ – ٣٠.

(٢) ينظر الصناعتين من ٢٩٥– ٣٣٨، دار الكتب العلمية –بيروت ط أولى ١٩٨١م.

(٣) نفسه: ٣٠٤. (٤) ينظر الصناعتين: ٣١١.

(٥) ينظر صور من تطور البيان العربى، للدكتور كامل الخولى: ١٦١.

(٦) ينظر تأويل مشكل القرآن: ١٣٥ – ١٣٦، والصناعتين: ٣٠٤ – ٣٠٥.

• المجاز المرسل عند القاضي عبدالجبار ت ٤١٥ هـ:

أشار القاضي عبدالجبار إلى طائفة من علاقات المجاز المرسل[١] مثل:

١ – السببية ٢ – المسببية ٣ – الجزئية ٤ – اعتبار ما كان

٥ – اعتبار ما يئول إليه ٦ – الحالية ٧ – الآلية.

ولم يصرح باسم هذا المجاز أسوة بمن سبقوه، ولكن شرحه لتلك العلاقات، وإلقاءه الضوء عليها يحدد مدلول ذلك المجاز، ويبين حقيقته وقد يكون من المفيد أن أذكر بعض أمثلة لم تذكر من قبل في هذا العمل تمثل موقفه من حقيقة ذلك المجاز، دون بسط أو تطويل.

١ – المسببة: تناول القاضي هذه العلاقة في عدة مواضع منها ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٤٣] فقد قال: «وربما قيل في قوله تعالى ﴿ **وَلَقَدْ كُنتُمْ..** ﴾ كيف يصح أن يلقى الموت وهو ينظر؟ وجوابنا أن المراد رؤية أسباب الموت ومقدماته، دون نفس الموت؛ لأن الميت لا يتمكن من أن يكيف الموت ويراه، وهو كقوله تعالى: ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ** ﴾ [البقرة: ١٨٠] والمراد به المرض الذي يخاف منه الموت»[٢].

واضح من بيانه، وإيضاحه أن الموت استعمل في غير حقيقته، وأطلق مجازا على مقدماته وأسبابه، لأن الذي تفيض روحه لا يتأتى منه وصية[٣] أو أي عمل آخر.

وقد تناول هذه العلاقة أيضًا عند قوله تعالى: ﴿ **وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣١] فقال بعد أن ذكره الآية «كيف يصح أن يصفها بأنها أعدت للكافرين؟.... وجوابنا أن المراد بقوله: ﴿ **وَاتَّقُوا النَّارَ** ﴾ اتقاء المعاصي التي

---

(١) ينظر بلاغة القرآن في آثار القاضي عبدالجبار، للدكتور عبدالفتاح لاشين من ٣١٥ إلى ٣٣٢.

(٢) تنزيه القرآن عن المطاعن، للقاضي عبدالجبار: ٨٠ دار النهضة الحديثة. بيروت – لبنان.

(٣) لأن بقية الآية السابقة (إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين).

توجب استحقاق عذاب النار، وذلك ظاهر إذا قيل للمرء اتق ربك، واتق السلطان أن المراد اتقاء ما يؤدى إلى تأديبهم»(١). فجعل ﴿النَّارَ﴾ فى الآية مجازا عن المعاصى، والآثام التى توجب عذاب النار وعلى ذلك تكون مجازا مرسلا علاقته المسببية حيث ذكر المسبب، وأريد به السبب.

٢ - **الجزئية**: ألمح القاضى عبد الجبار إلى هذه العلاقة فى مواطن كثيرة منها ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ [الروم: ٤٣].

فقد بين أن المقصود من ﴿وَجْهَكَ﴾ ذاتك كلها فقال: «والمراد بالوجه نفس الإنسان، فكأنه قال فأقم نفسك للدين القيم حتى لا تحول عنه، ولا تزول، فلا تأمن فى كل وقت من الاخترام، فإذا ثبت على الاستقامة كنت من الفائزين»(٢) فاعتبر الوجه، وهو جزء من الإنسان مجازا عن ذات الإنسان كلها، وهذا مجاز مرسل علاقته الجزئية.

٣ -اعتبار ما يئول إليه:

ألمح القاضى إلى هذه العلاقة فى عدة أماكن منها ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] فقد قال: «وربما قيل فى قوله تعالي ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ كيف يصح على الأنبياء الكذب؟ وجوابنا أنه يريد سأسقم كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ [الزمر: ٣٠] أى ستموت، وكقوله ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٣٦] فإطلاق السقيم على السليم، والميت على الحى، والخمر على العنب يعتبر مجازا لأنه استعمال لهذه الألفاظ فى غير ما وضعت له؛ لأن الصحيح سيئول أمره فى المستقبل إلى السقم، والحى سوف يموت لا محالة، والعنب سيتحول إلى خمر بعد عصره.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن الدكتور عبدالفتاح لاشين ذكر فى خاتمة مبحث المجاز المرسل عند القاضى عبد الجبار(٣) أن أحد كبار الباحثين قال إن الزمخشرى

---

(١) تنزيه القرآن عن المطاعن: ٧٨.

(٢) تنزيه القرآن عن المطاعن: ٣٢١.

(٣) بلاغة القرآن فى آثار القاضى عبد الجبار: ٣٣٢.

أضاف إلى المجاز المرسل علاقات: تسمية الشيء باسم جزئه، واعتبار ما يئول إليه، والمسببية(١).

وقد عقب الدكتور لاشين على هذا القول بأنه غير دقيق؛ لأنه ألفى هذه العلاقات عند القاضي عبد الجبار، وهو أسبق زمنا من الزمخشرى بقرن ونصف تقريبًا(٢).

ويبدو لى أن القطع فى مثل هذه المسائل التاريخية، دون أدلة حاسمة يعتبر ضربا من الحدس يأباه التحقيق العلمى السليم، وليس أدل على ذلك من أننى وجدت إشارة إلى علاقة الجزئية عند أبى عبيدة معمر بن المثنى عندما فسر التسبيح بالصلاة فى قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقر: ٣٠]. وقد ذكرت ذلك فى مطلع الحديث عن المجاز المرسل عنده، ومعلوم أنه أسبق من القاضى، والزمخشرى بزمن سحيق.

● المجاز المرسل عند الشيخ عبد القاهر الجرجانى ت ٤٧١هـ:

لم يعقد الشيخ عبد القاهر فصلاً معينا يبسط فيه القول فى المجاز المرسل، وإنما لمس بعض الأمور التى تتعلق به عرضا، وهو يفرق بين حقيقته، وحقيقة الاستعارة، وقد ذكر أن غرضه فى هذا الفصل الذى تطرق فيه إلى نبذ يسير من قضايا المجاز المرسل أن يبين «أن المجاز أعم من الاستعارة، وأن الصحيح من القضية فى ذلك أن كل استعارة مجاز، وليس كل مجاز استعارة»(٣).

ولو أنه أفرد هذا المجاز ببحث مستقل، أو أولاه مزيداً من بيانه، واهتمامه، لظفر الدرس البلاغى منه بخير كثير، وعلم غزير.

وقد وجد الشيخ عبد القاهر بعض من سبقوه يتوسعون فى إطلاق الاستعارة على ما يعتبر مجازا مرسلا، فاعتبر ذلك منهم تساهلا فى تحرير المسائل، وتقصيرا فى النظر، وضعفا فى الرأى(٤).

فقد صرح بأن أبا بكر بن دريد ابتدأ فى كتاب الجمهرة بابا فقال (باب

---

(١) نفسه: ٣٣٢ وينظر البلاغة تطور وتاريخ، للدكتور شوقى ضيف: ٢٦٣.
(٢) ينظر بلاغة القرآن فى آثار القاضى عبد الجبار: ٣٣٢.
(٣) أسرار البلاغة: ٣١٩.
(٤) ينظر المرجع نفسه: ٣٢٢.

الاستعارات) ثم ذكر فيه ألفاظا تعتبر من قبيل المجاز المرسل مثل إطلاق الظعينة، وأصلها المرأة فى الهودج على البعير، والهودج، وإطلاق الراوية وهى اسم للبعير على المزادة، وغير ذلك(١).

وأن الآمدى عد كلمة (المجلس) فى قول المهلهل:

... واستب بعدك يا كليب المجلس

استعارة(٢) « .. فأطلق لفظ الاستعارة على وقوع المجلس هنا بمعنى القوم الذين يجتمعون فى الأمور، وليس المجلس إذا وقع على القوم من طريق التشبيه، بل على وجه وقوع الشىء على ما يتصل به، وتكثر ملابسته إياه، وأى شىء يكون بين القوم ومكانهم الذى يجتمعون فيه؟ إلا أنه لا يعتد بمثل هذا، فإن ذلك قد يتفق حيث ترسل العبارة »(٣) ولا يخفى أن الملابسة بين المجلس، والقوم الذين يجلسون فيه هى المحلية.

وقد أوضح أن إطلاق لفظ الاستعارة عليهما معا منظور فيه إلى جانب النقل وحده، دون اكتراث بنوع العلاقة بين المنقول منه، والمنقول إليه، وفى هذا مجافاة لعرف البيانيين فى تمييزهم بين حقيقة المجاز المرسل، وحقيقة الاستعارة، وذلك شبيه بمن يترك عرف النحويين فى تفريقهم بين الحال، والتمييز، فيسمى الحال تمييزا على اعتبار أنها تميز المقصود من الكلام، وتبينه(٤).

ولذلك نبذ الشيخ عبد القاهر هذه النظرة، ولم يرضها، وضرب بها عرض الحائط فقال: « .. وليس هذا بالمذهب المرضى، بل الصواب أن تقصر الاستعارة على ما نقله نقل التشبيه للمبالغة؛ لأن هذا يطرد على حد واحد، وله فوائد عظيمة، ونتائج شريفة .. »(٥).

وفى هذا دلالة واضحة على أن إطلاق لفظ الاستعارة على ما يعد مجازا مرسلا خطأ بحت، وخطل صراح، وإن لحظت أنه خفف هذا الحكم بعد ذلك بقليل عندما

---

(١) نفسه: ٣٢٠- ٣٢١.
(٢) ينظر الموازنة، للآمدى ١ /٣٩٣ تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، ط رابعة.
(٣) أسرار البلاغة ٣٢٣. (٤) ينظر أسرار البلاغة: ٣٢١.
(٥) نفسه: ٣٢٢.

ذكر أن إطلاق الاستعارة على ما يعد مجازا مرسلا بعيد[١] ولعله يقصد أنه بعيد من الصواب حتى يتساوق كلامه، وتأتلف عباراته. فالاستعارة قائمة على أساس الشبه بين المستعار له، والمستعار منه، فهى تعتمد التشبيه أبداً[٢] والنقل فيها يطرد على حد واحد، وعلاقة واحدة، أساسها التشبيه، وقوامها الصفة المشتركة بين طرفيها، والمجاز المرسل مبنى على الملابسة والارتباط بين المنقول منه، والمنقول إليه، فليس مطردا على وتيرة واحدة، ونمط معين، ونظام واحد، بل تتعدد علاقاته، وتتنوع صنوفها، وأشكالها على حسب الاتصال، والملابسة بين المعنى المنقول منه، والمنقول إليه.

وقد انبأت الأمثلة التى ساقها فى بعض المواضع عن طائفة من علاقات المجاز المرسل، وأظهرت اختلافها، وتنوعها «... نحو تسميتهم المزادة راوية، وهى اسم للبعير الذى يحملها فى الأصل، وكتسميتهم البعير حفضا، وهو اسم لمتاع البيت الذى يحمل عليه، ولا كنحو ما بين الجزء من الشخص، وبين جملة الشخص، كتسميتهم الرجل عينا إذا كان ربيئة، والناقة نابا، ولا كما بين النبت، والغيث، وبين السماء والمطر حيث قالوا رعينا الغيث يريدون النبت الذى الغيث سبب فى كونه، وقالوا أصابنا السماء يريدون المطر..»[٣] واضح من خلال الأمثلة التي تقدمت أن علاقات المجاز المرسل فيها ليست واحدة، فإطلاق الراوية على المزادة، وإطلاق اسم الحفض على البعير الذى يحمله من قبيل المجاورة، وإطلاق العين على الربيئة الذى ينظر للقوم، ويرعى أمورهم، ويحرسهم[٤] من علاقة الجزئية، وإطلاق الغيث على النبات يعتبر من علاقة السببية، كما ينبىء كلام الشيخ نفسه، لأن الغيث سبب فى النبات.

وسأتطرق – إن شاء الله – إلى كثير من هذه الأمثلة عند الحديث عن علاقات المجاز المرسل فى لسان العرب.

وقد نبه إلى أن علاقات المجاز المرسل ليست على شاكلة واحدة، فى قوة ترابطها ومتانة الأواصر بينها؛ لأن الأسباب التى تصل بين المعنى الأصلى، والمعنى المجازى قد تكون قوية أو ضعيفة، وقد تكون شديدة الظهور، أو بينة الخفاء.

فقد قال عقب كلامه حول بعض هذه العلاقات، وقد نقلته منذ قليل:

---

(١) نفسه: ٣٢٥.
(٢) نفسه: ٣٧.
(٣) نفسه: ٣١٨.
(٤) ينظر لسان العرب: ٢/ ١٥٤٥.

«..واعلم أن هذه الأسباب الكائنة بين المنقول، والمنقول عنه تختلف فى القوة، والضعف، والظهور، وخلافه، فهذه الأسماء التى ذكرتها إذا نظرت إلى المعانى التى وصلت بين ما هى له، وبين ما وردت إليه، وجدتها أقوى من نحو ما تراه فى تسميتهم الشاة التى تذبح عن الصبى إذا حلقت عقيقته عقيقة، وتجد حالها بعد أقوى من حال العقيرة فى وقوعها للصوت فى قولهم رفع عقيرته، وذلك أنه شىء جرى اتفاقا، ولا معنى يصل بين الصوت، وبين الرجل المعقورة..»[١] واضح من كلامه أنه يريد أن يقرر أن العلاقة بين الغيث والنبات، وهى علاقة السببية أقوى من العلاقة بين العقيقة التى هى شعر المولود، وبين الشاة التى تذبح عند حلق هذا الشعر، وهى فيما يتراءى لى السببية أيضا إلا أن الارتباط بينهما أوهن من الارتباط بين الغيث والنبات، وكذلك العلاقة بين المزادة، والراوية، والبعير، والحفض، وهى علاقة المجاورة أقوى من العلاقة بين الرجل المعقورة، والصوت، ويبدو أنها المجاورة إلا أن هذه العلاقة فى غاية الضعف والوهى، لأنه لا صلة بين الرجل المعقورة، ورفع الصوت، ولذلك عقب الشيخ على هذا المجاز بقوله: «إنه شىء جرى اتفاقا، ولا معنى يصل بين الصوت، وبين الرجل المعقورة»[٢].

وقد يحسن هنا أن ألقى مزيدا من الضوء على المناسبة التى كانت سببًا فى إطلاق العقيرة على الصوت خصوصا أن الشيخ عبد القاهر لم يعرج على هذا السبب، فقد ذكر صاحب لسان العرب فى سبب هذا الإطلاق «أن رجلاً عقرت رجله–أى قطعت –[٣] فوضع العقيرة على الصحيحة، وبكى عليها بأعلى صوته، فقيل رفع عقيرته..»[٤] ومادام العرب قد نطقت بهذا المجاز، فلا بأس أن يتلمس المرء له علاقة مقبولة لعلها المجاورة، والمصاحبة الزمنية بين رفع الرجل المعقورة، ورفع الصوت بالتوجع، والأنين، وكلام الشيخ ينبىء أن لهذا المجاز علاقة لكنها واهية واهنة.

● **المجاز المرسل عند الزمخشرى ت ٥٣٨ هـ:**

تناول جار الله الزمخشرى – رحمه الله – طرفا من علاقات المجاز المرسل مثل السببية، والمسببية، والكلية، والجزئية، واعتبار ما كان واعتبار ما يكون، والمجاورة، والآلية، والمحلية[٥].

---

(١) أسرار البلاغة: ٣١٨. (٢) نفسه ٣١٨.

(٣) لسان العرب: ٤ / ٣٠٣٥ (عقر). (٤) نفس المصدر والموضع.

(٥) ينظر البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى، للدكتور محمد أبو موسى من ٤٤١ إلى ٤٤٦.

ولا بأس أن أشير إلى طائفة قليلة من هذه العلاقات من خلال أمثلة لم يسبق ذكرها في هذا العمل رغبة في تكثير الفائدة.

السببية: من المواضع التي أشار فيها صاحب الكشاف إلى علاقة السببية ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ** ﴾ [مريم: ٣٤] فقد قال: «وإنما قيل لعيسى كلمة الله، وقول الحق؛ لأنه لم يولد إلا بكلمة الله وحدها، وهي قوله (كن) من غير واسطة أب، تسمية للمسبب باسم السبب، كما سمي العشب بالسماء، والشحم بالندى...»[1] فكلمة الله، أو قول الله سبب في وجود نبي الله عيسى - عليه السلام - فأطلق السبب على المسبب.

الكلية: ألمح إلى هذه العلاقة في بعض المواضع، منها ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ** ﴾ [المائدة: ٦] وقوله: ﴿ **فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا** ﴾ [المائدة: ٣٨] فقد بين أن المراد بالأيدي بعضها «الذي هو إلى المرفق، والذي إلى الرسغ»[2].

فقوله (الذي هو إلى المرفق) عائد إلى قوله تعالى: ﴿ **فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ** ﴾ لأن المعلوم أن غسل الأيدي في الوضوء يكون إلى المرافق، وقوله: (والذي إلى الرسغ عائد إلى قوله تعالى: ﴿ **فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا** ﴾ لأن قطع يد السارق يكون إلى الرسغ)[3].

وبناء على ما ذكره يكون إطلاق الأيدي على بعضها مجازا مرسلا علاقته الكلية، لأن «اليد اسم لهذا العضو إلى المنكب»[4].

المجاورة: أومأ إلى هذه العلاقة عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً** ﴾ [الأنعام: ٣١].

فقد قال: «حتى غاية لكذبوا، لا لخسروا؛ لأن خسرانهم لا غاية له أي مازال بهم التكذيب إلى حسرتهم، وقت مجيء الساعة، فإن قلت أما يتحسرون عند

(١) الكشاف: ٢/ ٤١٠. (٢) الكشاف: ١/ ٤٢.
(٣) ينظر تفسير القرطبي: ٢١٦٨ ط الشعب.
(٤) ينظر التفسير الكبير، للإمام فخر الدين الرازي: ٦ ١/ ٢٣١.

موتهم؟ قلت لما كان الموت وقوعا فى أحوال الآخرة، ومقدماتها، جعل من جنس الساعة، وسمى باسمها، ولذلك قال ﷺ «من مات فقد قامت قيامته»(١).

فكلامه واضح فى أن المراد بالساعة فى الآية الموت، وعلى ذلك يستقيم اعتبار (الساعة) في الآية شاهدا على علاقة المجاورة(٢) وإن كان فى النفس مما قاله شيء؛ لأن الظاهر – والله أعلم – أن الساعة فى الآية هى القيامة، وسميت القيامة ساعة؛ لسرعة الحساب فيها(٣).

الآلية: أشار إلى هذه العلاقة عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس: ٢].

فقد قال: « .. ﴿ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أى سابقة وفضلا ومنزلة رفيعة، فإن قلت لم سميت السابقة قدما؟ قلت لما كان السعى والسبق بالقدم سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدما، كما سميت النعمة يدا، لأنها تعطى باليد، وباعا لأن صاحبها يبوع بها فقيل لفلان قدم فى الخير...»(٤) فقد جعل إطلاق القدم على السعى، والسبق فى ضروب الخير من إطلاق الآلة على أثرها(٥).

● المجاز المرسل عند الإمام فخر الدين الرازى ت ٦٠٦هـ:

استخرجت من كلام الإمام الرازى فى تفسيره ثمانى عشرة علاقة من علاقات المجاز المرسل وهى:

١ – السببية
٢ – المسببية
٣– الآلية
٤ – إطلاق المعلول على العلة
٥ – المجاورة
٦ – إطلاق الدليل على المدلول
٧ – الملزومية
٨ – اللازمية
٩ – اعتبار ما كان
١٠ – اعتبار ما يكون
١١ – الجزئية
١٢ – الكلية
١٣ – العموم
١٤ – المحلية
١٥ – الحالية
١٦ – التعلق
١٧ – الضدية
١٨ – إطلاق الأثر على المؤثر.

(١) الكشاف: ٢/ ١٠.
(٢) ينظر البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى: ٤٤٤.
(٣) ينظر تفسير القرطبى: ٢٤٠٨ ط الشعب.
(٤) الكشاف: ٢/ ١٨٠.
(٥) ينظر البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى: ٤٤٤، ٤٤٥.

وقد بسطت القول فى هذه العلاقات فى رسالتى التى تقدمت بها لنيل درجة الدكتوراه[١].

وبينت أنه يمكن رد بعضها إلى بعض، فيمكن رد إطلاق المعمول على العلة، وإطلاق الأثر على المؤثر – إلى علاقة المسببية[٢] ورد إطلاق الدليل على المدلول إلى المجاورة، لأنه يتخيل مجاورة كل منهما للآخر، كما فى قولهم فهمت الألفاظ، والمقصود المعانى، أو المحلية؛ لأنه يتخيل أن الدال محل للمدلول أو السببية، لأن الدال سبب فى فهم المدلول[٣].

ونوهت بأفضليته وسبقه إلى ذكر هذه العلاقات الكثيرة التى أربت على ما ذكره بعض البلاغيين الذين جاءوا من قبله مثل الشيخ عبد القاهر الجرجانى، وبعض الذين جاءوا من بعده مثل الخطيب القزوينى، وقلت لعله أفاد تلك العلاقات الكثيرة من علماء الأصول وهو علم من أعلامهم[٤].

● المجاز المرسل عند السكاكى ت ٦٢٦هـ:

بعد هذه الرحلة مع المجاز المرسل، أو إن شئنا الدقة مع ماهية ذلك المجاز وحقيقته – وجدنا (أبا يعقوب السكاكى) يطلق عليه مصطلح المجاز المرسل، وقد جاءت هذه التسمية فى كلامه صريحة وهو يتحدث عن الحقيقة، والمجاز، والكناية، فقد قال « ... والأول هو الاستعارة، والثانى هو المجاز المرسل »[٥] وقال بعد ذلك بقليل « .. وعرفنا تنوع المجاز إلى مرسل مفيد، وغير مفيد، وإلى استعارة مصرح بها، ومكنى عنها »[٦].

ويبدو أنه استلهم هذه التسمية من بيان الشيخ عبد القاهر، وأفادها من كلماته الموحية التى سطرها يراعه فى كتابه (أسرار البلاغة) فقد جاءت كلمة (مرسل) فى كلامه بمعنيين لهما اتصال وثيق بالمجاز المرسل **أحدهما**: التشبيه الخالى عن دعوى الاتحاد الموجودة فى الاستعارة، ومما قاله فى ذلك « إنك لا تجرى اسم المشبه به على

---

(١) المباحث البيانية فى تفسير الفخر الرازى من ١٩٧ إلى ٢٤٢ رسالة دكتوراه مكتبة وهبة القاهرة طبعة أولى سنة ١٩٩٩.

(٢) نفسه: ٢٤٤.

(٣) نفسه: ٢٤٤ وحاشية الإنبابى على الرسالة البيانية: ٢٤١.

(٤) المباحث البيانية فى تفسير الفخر الرازى: ٢٥٤.

(٥) المفتاح: ١٩٥، ١٩٦.

(٦) نفسه: ١٩٦.

المشبه حتى تدعى أنه قد سار من ذلك الجنس نحو أن تجعل الرجل كأنه فى حقيقة الأسد.. وكيف السبيل إلى دفعه، وعليه المعول فى كون التشبيه على حد المبالغة، وهو الفرق بين الاستعارة وبين التشبيه المرسل»[1].

ثانيهما: عدم التقييد فقد قال وهو يتكلم عن الفرق بين فعل الربيع، وفعل الحى القادر «وإثبات الفعل من غير أن يقيد بما وقع الإثبات له لا يصح الحكم عليه بمجاز، أو حقيقة، فلا يمكنك أن تقول إثبات الفعل مجاز، أو حقيقة هكذا مرسلا وإنما تقول إثبات الفعل للربيع مجاز، وإثباته للحى القادر حقيقة»[2].

فنجده قد استعمل كلمة (مرسل) بمعنى عدم التقييد، وخلو التشبيه عن دعوى الاتحاد الموجودة فى الاستعارة، ويبدو أن ما يتردد فى كتب البلاغة من أن هذا المجاز سمى مرسلا؛ لأنه أرسل عن دعوى الاتحاد الموجودة فى الاستعارة، أو لأنه غير مقيد بعلاقة واحدة[3] مأخوذ من كلام الشيخ عبد القاهر المتقدم وكان المأمول أن يقرن السكاكى هذا الاسم أيضًا بالعلاقات التى ذكرها فى موضع آخر[4] ليكون أتم للفائدة، ولكنه لم يفعل، وحسبه أنه أحرز قصبات السبق، وأخرج هذا المصطلح إلى عالم الوجود.

وقد عرض السكاكى لبعض علاقات المجاز المرسل، وصرح باسم بعضها أثناء إلقاء الضوء عليها وهذه العلاقات هى:

السببية: ذكر السكاكى هذه العلاقة صراحة فى قوله: «ونحو أن يراد النبت بالغيث كما يقولون رعينا غيثا لكون الغيث سببا فيه»[5].

فإطلاق الغيث على النبات مجاز مرسل علاقته السببية؛ لأن الغيث سبب فى النبات، ومعلوم أن الغيث لا يرعى، وإنما يرعى النبات الذى الغيث سبب فيه، وقوله: (.. لكون الغيث سببا فيه) صريح فى ذكر اسم هذه العلاقة.

وأشار إليها أيضًا فى قوله: «نحو أن تراد النعمة باليد، وهى موضوعة للجارحة

---

(١) أسرار البلاغة: ٣٣٠.

(٢) نفسه: ٣٣٢، ٣٣٣، وينظر المباحث البيانية فى تفسير الفخر الرازى ١٩٥- ١٩٧.

(٣) ينظر -مثلا- الأطول، للعصام ٢/ ١١٨.

(٤) المفتاح: ١٧٢ - ١٧٤. (٥) المفتاح: ١٧٣.

المخصوصة لتعلق النعمة بها من حيث إنها تصدر عن اليد، ومنها تصل إلى المقصود بها..»[١].

وكلامه في الموضعين السابقين مأخوذ من كلام الشيخ عبد القاهر الجرجاني[٢] وألمح السكاكي إلى هذه العلاقة في قوله: «وقول القائل: ..... يأكلن كل ليلة إكافا

أي علفا بثمن إكاف للتعلق بين ذلك العلف، وبين الإكاف، وقولهم أكل فلان الدم أي الدية، للتعلق بينهما»[٣].

واضح أن إطلاق الإكاف على العلف من قبيل علاقة السببية؛ لأن الإكاف بيع واشترى بثمنه علف، والدم الذي سفك من القتيل سبب في الدية التي يشترى منها ولي القتيل ما يقتات به، فإطلاق الدم على الدية، لأنه سبب فيها من إطلاق السبب على المسبب. ولعله قد تأثر الزمخشري في المثالين الأخيرين فقد قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ ﴾ [البقرة: ١٧٤] «.. ومنه قولهم أكل فلان الدم إذا أكل الدية التي هي بدل منه قال (أكلت دما إن لم أرعك بضرة) وقال (يأكلن كل ليلة إكافا).

أراد ثمن الإكاف، فسماه إكافا لتلبسه بكونه ثمنا له»[٤].

المسببية: تكلم عن هذه العلاقة، وصرح باسمها في بعض المواضع من حديثه عنها فقد قال: «ومن أمثلة المجاز قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ [النحل: ٩٨] استعملت قرأت مكان أردت القراءة؛ لكون القراءة مسببة عن إرادتها استعمالا مجازيا بقرينة الفاء في ﴿ فَاسْتَعِذْ ﴾ والسنة المستفيضة بتقديم الاستعاذة، ولا تلتفت إلى من يؤخر الاستعاذة، فذلك لضيق العطن، وقوله: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ ﴾ [هود: ٤٥] في موضع أراد نداء ربه بقرينة (فقال رب) وقوله تعالى: ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ [الأعراف: ٤] في موضع أردنا هلاكها بقرينة (فجاءها بأسنا) والبأس الإهلاك...»[٥] فقوله في إثر آية (النحل) (لكون القراءة مسببة عن إرادتها صريح

---

(١) نفسه: ١٧٢، ١٧٣.
(٢) أسرار البلاغة: ٣١٧، ٣١٨.
(٣) المفتاح: ١٧٣.
(٤) الكشاف: ١/ ١٠٨.
(٥) المفتاح: ١٧٣.

فى أنه ذكرها باسمها، ولعله متأثر بكلام صاحب الكشاف حول هذه الآيات فقد ذكر أن الإهلاك للقرية معناه أردنا إهلاكها[(١)] والنداء فى آية هود (إرادة النداء)[(٢)] والقراءة فى آية (النحل) (أردت قراءة القرآن)[(٣)].

المجاورة: وأشار إلى علاقة المجاورة فى قوله: « .. ونحو أن تراد المزادة بالراوية وهى فى الأصل اسم للبعير الذى يحملها، للعلاقة الحاصلة بينها وبينه بسبب حمله إياها، أو أن يراد البعير بالحفض، وهو متاع البيت... »[(٤)].

الجزئية: وأومأ إلى علاقة الجزئية فى قوله: « ونحو أن يراد الرجل بالعين إذا كان ربيئة من حيث إن العين لما كانت المقصود فى كون الرجل ربيئة صارت كأنها الشخص كله »[(٥)].

ولم يقصر السكاكى علاقات المجاز المرسل فى تلك العلاقات التى سلف ذكرها؛ لأن علاقة الملابسة، والتعلق تتسع لكثير من العلاقات ولذلك قال بعد أن ذكر العلاقات السابقة « ... وأمثال ذلك مما تعدى الكلمة بمعونة القرينة عن معناها الأصلى إلى غيره، لتعلق بينهما بوجه قويا أو ضعيفا، واضحا أو خفيا... »[(٦)].

● المجاز المرسل عند الخطيب القزوينى ت ٧٣٩هـ:

جاء الخطيب فوجد السكاكى قد سمى هذا المجاز باسمه (المجاز المرسل) وأخذ هذا المصطلح الجديد مكانه فى ساحة الدرس البلاغى بعد أن كان معروفا من قبل عن طريق ملابسات المعنى الأصلى، والمعنى المجازى - فذكر كثيرا من علاقاته منضوية تحت اسمه فى موضع واحد فقال فى (تلخيص المفتاح) « .. والمرسل كاليد فى النعمة، والراوية فى المزادة، ومنه تسمية الشيء باسم جزئه كالعين فى الربيئة، وعكسه كالأصابع فى الأنامل وتسميته باسم سببه نحو رعينا الغيث، أو مسببه نحو أمطرت السماء نباتا، أو ما كان عليه نحو ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ﴾ [النساء: ٢] أو ما يئول إليه نحو ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ [يوسف: ٣٦] أو محله نحو

---

(١) الكشاف: ٢/ ٥٣.
(٢) نفسه: ٢/ ٢١٨.
(٣) نفسه: ٢/ ٣٤٣.
(٤) المفتاح: ١٧٣.
(٥) نفسه: ١٧٣.
(٦) المفتاح: ١٧٤.

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ [العلق: ١٧] أو حاله نحو ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٠٧] أى فى الجنة، أو آلته نحو ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٤] أى ذكرا حسنا »[١].

وقوله فى صدر كلامه « كاليد فى النعمة » إشارة إلى علاقة السببية، وقد ذكرها باسمها خلال كلامه فى قوله: (نحو رعينا الغيث)، وقوله عقب المثال الأول (والراوية فى المزادة) إشارة إلى علاقة المجاورة، وقد صرح باسمها فى الإيضاح[٢] « وكان عليه أن يذكر هذه الأمثلة فى مواضعها »[٣].

والعلاقات التى ذكرها (تسع علاقات، وذكر قبلها الراوية للمزادة، وهو من مجاز المجاورة، وكأنه استغنى بمثاله عن ذكره، فحاصل ما ذكره عشرة)[٤] ويشعر كلامه فى تلخيص المفتاح أنه لم يقصد حصر علاقات هذا المجاز فى تلك التى ذكرها، كما ينبىء بذلك قوله فى صدر العلاقات التى عددها (ومنه تسمية الشىء باسم جزئه..) ولو كان مراده حصرها، لقال - مثلا - وهذه العلاقات هى... ولم يقل (ومنه..).

وقد يؤيد هذه الفهم أنه قال فى الإيضاح عقب علاقات المجاز المرسل « .. وكذا غير ذلك مما بين معنى اللفظ، وما هو موضوع له تعلق سوى التشبية »[٥] وهو فى ذلك سائر على نهج السكاكى، ومتابع له، فهو لم يرد حصر العلاقات، وإنما ذكر نماذج منها، وترك الباب مفتوحا أمام غيرها من العلاقات، والملابسات التى تقوم، وتتواصل على روابط بعيدة عن التشبيه.

ولعله من أجل ذلك لم تتفق كلمة البلاغيين على عدد معين من تلك العلاقات، فصاحب المطول يقول:

« وأنواع العلاقات المعتبرة كثيرة يرتقى ما ذكروه إلى خمسة وعشرين.. »[٦]

---

(١) تلخيص المفتاح: ٨٠، ٨١ وينظر بغية الإيضاح: ٩١ - ١٠٤.
(٢) نفسه: ٩١.
(٣) عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح، لبهاء الدين السبكى ٤ / ٣٦ شروح التخليص.
(٤) نفسه: ٤ / ٤٣.
(٥) بغية الإيضاح: ٣ / ١٠١.
(٦) المطول: ٣٥٥.

وبهاء الدين السبكى يقول «وقد ذكر غيره -أي غير الخطيب -علاقات كثيرة تقارب هي وما ذكرناه أكثر من ثلاثين..»[1]، وقد عد الإمام الزركشى من هذه العلاقات ستا وعشرين[2] وقال صاحب الرسالة البيانية (علاقات المجاز المرسل على التحقيق تسعة عشر)[3].

وليس من هدف هذا العمل تتبع هذه العلاقات، وتحديد عددها.

* * *

---

(١) عروس الأفراح.. ٤/ ٤٣ شروح التلخيص.
(٢) ينظر البرهان فى علوم القرآن: ٢/ ٢٥٩ - ٢٩٨.
(٣) الرسالة البيانية، للصبان: ١٩٦.

الفصل الثانى

علاقات المجاز المرسل فى لسان العرب

١ - السببية.

٢ - المسببية.

٣ - الآلية.

٤ - المجاورة.

٥ - اعتبار ما كان.

٦ - اعتبار ما يئول إليه.

٧ - الكلية.

٨ - الجزئية.

٩ - المحلية.

١٠ - الحالية.

السببية

هى: «كون الشيء سببا ومؤثرًا فى شيء آخر..»[1] نحو قولهم رعينا غيثا أى نباتا حاصلا بالغيث[2].

وقد تناول صاحب لسان العرب هذه العلاقة على صور مختلفة:

إحداها: أنه كان يصرح بأن إطلاق السبب على المسبب مجاز، وإن كان لم يذكر اسم أو نوع هذا المجاز، ومن هذه المواضع ما ذكره عند تناوله لبعض آى الذكر الحكيم، فقد صرح بأن استهزاء الله عز وجل فى مقابلة استهزاء المنافقين مجاز، ومخادعته – تعالى – فى مقابلة مخادعتهم مجاز، فقال: «... كقوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ** ﴾ [البقرة: ١٤، ١٥] والاستهزاء من الكفار حقيقة، وتعليقه بالله عز وجل مجاز جل ربنا وتقدس عن الاستهزاء، بل هو الحق، ومنه الحق، وكذلك قوله تعالى: ﴿ **يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ** ﴾ [النساء: ١٤٢] والمخادعة من هؤلاء فيما يخيل إليهم حقيقة، وهى من الله سبحانه مجاز إنما الاستهزاء والخدع من الله عز وجل مكافأة لهم..»[3].

فإطلاق الاستهزاء المتعلق بالله سبحانه وتعالى على معاقبتهم ومجازاتهم مجاز مرسل من إطلاق السبب على المسبب، لأن استهزاءهم كان سببًا فى مكافأتهم على سوء عملهم، ومثل ذلك المخادعة الحاصلة منهم، والمنسوبة إلى الله عز وجل.

وقد نظّر صاحب اللسان المجاز فى الآيتين السابقتين بقول عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلن أحد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ثم عقب على البيت بقوله: «أى إنما نكافئهم على جهلهم»[4].

---

(١) الرسالة البيانية للصبان: ١٩٧.

(٢) ينظر حاشة الإنبابى على الرسالة البيانية للصبان: ١٩٧.

(٣) لسان العرب: ٣/ ١٦٥٠ (رشد).

(٤) المصدر نفسه والموضع.

فهو يريد أن يقول إن قول الشاعر: « ... فنجهل.. » ليس جهلا على الحقيقة، إنما هو مجازاة على الجهل السابق فى البيت، فأطلق الجهل على المجازاة، والمكافأة؛ لأن الجهل الأول كان سببا فى هذه المجازاة، فهو من إطلاق السبب على المسبب.

ولا يخفى أن الجهل فى البيت ليس مقابلا للعلم، وإنما هو الخفة والطيش والنزق والسفاهة[1] على حد قول حسان:

رب حلم أضاعه عدم المـــال وجهل غطى عليه النعيم[2]

فقد جعل الجهل مقابلا للحلم، لا للعلم.

ونظّر صاحب لسان العرب المجاز في بيت عمرو بن كلثوم الذى تقدم ذكره، وما قبله بالمجاز فى قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

ولم يوضح ما فى الآية الأخيرة من مجاز، ولكنه عرض له في موضع آخر بشىء من البسط، والإيضاح، فذكر أن الاعتداء فى قوله تعالى: ﴿فَاعْتَدُوا﴾ ليس اعتداء على وجه الحقيقة، وإنما هو مجازاة على اعتداء، فقال بعد أن أورد الآية الكريمة «سماه اعتداء؛ لأنه مجازاة اعتداء فسمى بمثل اسمه، لأن صورة الفعلين واحدة، وإن كان أحدهما طاعة، والآخر معصية..»[3].

فكلامه واضح فى أن الاعتداء فى قوله تعالى: ﴿فَاعْتَدُوا﴾ مجاز مرسل من إطلاق السبب على المسبب؛ لأن الاعتداء الأول سبب فى هذا الرد، وتلك المجازاة، وإن كانت صورة الفعلين واحدة -كما قال- وقد وقفت أمام قوله: (وإن كان أحدهما طاعة، والآخر معصية) يقصد أن الاعتداء على الناس ابتداء معصية، والاقتصاص من المعتدى طاعة، وتساءلت فى نفسى هل يعتبر رد الاعتداء طاعة يثاب عليه فاعله مع دعوة الإسلام المتكررة فى القرآن والسنة إلى العفو عن الناس، والإعراض عن الجاهلين منهم. فى مثل قوله تعالى: ﴿... وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ

---

(١) ينظر شرح المعلقات السبع، للزوزنى: ١٥١.
(٢) البيت فى لسان العرب: ٥/ ٣٢٧٣ (غطى).
(٣) لسان العرب: ٤/ ٢٨٤٦ (عدا).

الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وقوله: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٠]

الذى يتبادر إلى نفسى - والله أعلم - أن من يجازى المسيء بإساءته، ويقتص منه قد رفع الله عنه المؤاخذة، كما ينطق بذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾[الشورى: ٤١].

أما أن يكون ذلك من قبيل الطاعة التى يثاب عليها فاعلها، فهذا ما يحتاج إلى تحرير وتدقيق ليس هذا موضعه.

وكان جميلا من صاحب لسان العرب أن يلوح إلى أن أسلوب هذه الآيات التى عبر فيها بالسبب عن المسبب جار على نهج العرب فى كلامهم، وسائر على طريقهم الملحوب فى بيانهم، فقد قال فى إثر كلامه الذى سلف ذكره: «والعرب تقول ظلمنى فلان فظلمته أى جازيته بظلمه والأول ظلم، والثانى جزاء ليس بظلم، وإن وافق اللفظ اللفظ..»[١].

وهو بذلك يؤكد أن القرآن الكريم أنزله الله بلسان عربى مبين، وقد ساق صاحب لسان العرب أمثله أخرى لهذا الأسلوب من كلام العرب عندما تناول عقب كلامه السابق آية كريمة تشتمل على مثله فقال: .. مثل قوله: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠] السيئة الأولى سيئة، والثانية مجازاة، وإن سميت سيئة، ومثل ذلك فى كلام العرب كثير يقال أثم الرجل يأثم إثما وأثمه الله على إثمه أى جازاه عليه يأثمه أثاما قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٨].

أى جزاء لإثمه، وقوله: ﴿ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٥] المعتدون المجاوزون ما أمروا به»[٢].

واضح من كلامه السابق أن السيئة الثانية فى الآية مجاز من إطلاق السبب على المسبب، والذى يدل على أنها مجاز أن الله رفع السبيل والمؤاخذة عن فاعلها، فقال فى

---

(١) لسان العرب: ٤/ ٢٨٤٦ (عدا).
(٢) لسان العرب: ٤/ ٢٨٤٦، ٢٨٤٧ (عدا).

عقب الآية التي ذكرت فيها ﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ [الشورى: ٤١] ولو كانت سيئة على الحقيقة، ما صح ذلك[١].

وقد لحظت أن صاحب لسان العرب قد أورد في أواخر كلامه الذى نحن بسبيله قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٥] على أنه كما يبدو من سياق حديثه تذييل لقوله تعالى: ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٤] لأنها أقرب الآيات التي جاء فيها (اعتداء) والصواب أن تلك الآية قد ختمت بقوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾.

وليس ببعيد أن يكون قد أورده على أنه تذييل لقوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ [البقرة: ١٩٠] فإن صح ذلك، فإنه يؤخذ عليه أنه فصله عن آيته بعدة آيات، وجعل الشقة بينهما بعيدة، وأيضًا فإن هذه الآية قد ختمت بقوله عز وجل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾[البقرة: ١٩٠] بإظهار اسم الجلالة، ولعل ذلك سهو، أو خطأ من النساخ.

وما ذكره صاحب لسان العرب حول الآيات التى سلفت، وأمثالها من كلام العرب مشهور متداول عند البيانيين[٢].

وقد ذكر الخطيب القزويني في الإيضاح ضمن أمثلة السببية قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٤] وقال: سمى جزاء الاعتداء اعتداء؛ لأنه مسبب عن الاعتداء[٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠]» وقال: «تجوز بلفظ السيئة عن الاقتصاص؛ لأنه مسبب عنها»[٤].

ثم قول عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

---

(١) ينظر تنزيه القرآن عن المطاعن، للقاضى عبد الجبار: ٣٧٥.

(٢) ينظر – مثلا – تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة: ٣٧٧.

(٣) بغية الإيضاح: ٣/ ٩٦. (٤) المرجع نفسه والموضع.

وقال: «الجهل الأول حقيقة، والثانى مجاز عبر به عن مكافأة الجهل»[١].

وقد حاول بهاء الدين السبكى أن يجعل الجهل الثانى فى قول عمرو بن كلثوم المعبر عنه بقوله (فنجهل) حقيقة، وليس مجازا؛ لأنه زائد على الجهل الأول، والزيادة جهل حقيقى، ولكنه سرعان ما رجع عوده على بدئه، وأبقاه على مجازيته فقال: «... ثم نقول (فنجهل فوق جهل الجاهلينا) حقيقة قطعا؛ لأن الجهل فوق جهل الجاهلين ليس مكافأة؛ لأنه ليس مثله، بل زائد عليه، والزيادة على مقدار القصاص جهل بخلاف (مثل ما اعتدى عليكم)... وقد يجاب عنه بأن مقابلة التأديب بأكثر منه عند الجاهلية كان محمودا يمتدحون به، فليس جهلا حقيقة، فصح أن تسميته جهلا مجاز[٢].

ومن المواضع التى صرح فيها بأن إطلاق السبب على المسبب مجاز ما ذكره فى قوله ﷺ: «من ولى قاضيا، فقد ذبح بغير سكين»[٣]، فقد ذكر أن الذبح فى الحديث مجاز عن الهلاك؛ لأنه من أسرع أسبابه، فقال بعد أن أورد الحديث:

«... معناه التحذير من طلب القضاء، والحرص عليه أى من تصدى للقضاء وتولاه، فقد تعرض للذبح فليحذره، والذبح ههنا مجاز عن الهلاك؛ فإنه من أسرع أسبابه...»[٤].

فالذبح فى الحديث ليس ذبحا على سبيل الحقيقة، وإنما هو مجاز عن الهلاك.

وقد بين صاحب لسان العرب أن فائدة قوله ﷺ - (بغير سكين) وهو ما يبدو أنه ترشيح للمجاز تحتمل وجهين **أحدهما**: أن الذبح إذا كان بغير سكين، يكون تعذيبا للمذبوح، وهذا أبلغ فى الحذر منه **الثانى**: أنه هلاك لدين ذلك القاضى، لا لبدنه[٥].

وليس فى هذا الحديث تنفير من القضاء، أو انتقاص من رسالته السامية،

---

(١) المرجع السابق الموضع نفسه.

(٢) عروس الأفراح: ٤/ ٣٨ شروح التلخيص.

(٣) الحديث فى كتاب النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير ٢/ ١٥٣.

(٤) لسان العرب: ٣/ ١٤٨٥ (ذبح).

(٥) ينظر المصدر السابق الموضع نفسه.

وكذلك ليس فيه غض من قيمة القضاة، أو ازدراء بهم، وإنما هو – كما يبدو – تحذير لنوع من القضاة، ضعفاء فى نزاهتهم، لا يتحرون الحق ولا يحكمون بالعدل.

ثانيهما: أنه كان أحيانا لا يصرح بلفظ المجاز، ويذكر بدلا منه كلمة (سبب) أو نحو ذلك خلال توضيحه لحقيقة هذا المجاز، وإلقاء الضوء عليه.

ومن هذا النوع ما ذكره فى بعض المواضع عندما قال:

من الآكلين الماء ظلما فما أرى   ينالون خيرا بعد أكلهم الماء

فإنما يريد قوما كانوا يبيعون الماء فيشترون بثمنه ما يأكلون، فاكتفى بذكر الماء الذى هو سبب المأكول عن ذكر المأكول[1]».

فالماء ليس مأكولا، إنما المأكول شىء اشترى بثمن الماء، فأطلق الماء وهو السبب على الشىء المأكول المسبب عن ثمن الماء، والقرينة – كما يبدو – فى البيت كلمة (الآكلين) التى عملت فى لفظ الماء النصب، وبدهى أن الأكل لا يكون للماء، وإنما يكون للطعام.

ويبدو أن بيع الماء كان مذموما عند العرب؛ لكرمهم، وشغفهم بمعالى الأمور، والترفع عن سفسافها، ولعل بعض أراذلهم كانوا يبيعونه، ويأكلون بثمنه، والبيت ينضح بهذا الذم، وإن كنا لا ندرى شيئًا عن سياقه، ومناسبته؛ لأن الماء ضرورة من ضرورات الحياة، لا يستغني عنه كائن حى، وربما كان هذا هو السبب الذى حدا برسول الله ﷺ أن يجعل الماء شركة بين الناس جميعًا عندما قال: «المسلمون شركاء فى ثلاث فى الكلأ والماء والنار»[2].

ويؤكد ما ذكره صاحب اللسان حول المجاز فى البيت السالف الذكر أن ابن جنى عده من باب الاكتفاء بالسبب عن المسبب، وهذا يعنى أن فى البيت مجازا مرسلا علاقته السببية، وقد أورد البيت برواية أخرى لا تختلف عن تلك التى جاءت فى لسان العرب إلا فى كلمة واحدة هى الفعل (ذر) فى صدر البيت بدلا من حرف الجر (من) فرواه على هذه الصورة:

---

(١) لسان العرب: ١/ ١٠١ (أكل).

(٢) سنن أبى داود، كتاب البيوع، باب فى منع الماء ٣/٢٧٨.

ذر الآكلين الماء ظلما فما أرى   ينالون خيرا بعد أكلهم الماء

ثم أردف البيت بقوله: «يريد قوما كانوا يبيعون الماء، فيشترون بثمنه ما يأكلونه، فاكتفى بذكر الماء الذى هو سبب المأكول من ذكر المأكول»(١)، وقد لحظت أن كلمات صاحب اللسان تجاه المجاز فى البيت مأخوذة بنصها وفصها من كلام ابن جنى، ولعله ناقل عنه مباشرة، أو آخذ عمن نقل عنه.

ومن هذا النوع الذى صرح فيه صاحب اللسان بكلمة (السبب) ما ذكره من إطلاق الإملاق؛ وهو كثرة إنفاق المال، وتبذيره على الافتقار فقد قال: «الإملاق الافتقار قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وفى حديث فاطمة بنت قيس أما معاوية فرجل أملق من المال(٢) أى فقير منه قد نفد ماله، يقال أملق الرجل فهو مملق، وأصل الإملاق الإنفاق يقال أملق ما معه إملاقا، وملقه ملقا إذا أخرجه من يده، ولم يحبسه، والفقر تابع لذلك، فاستعملوا لفظ السبب فى موضع المسبب حتى صار به أشهر...»(٣).

ويتابع صاحب اللسان كلامه قائلا:

«... والإملاق كثرة إنفاق المال وتبذيره حتى يورث حاجة... وقيل المملق الذى لا شىء له..»(٤).

فكلامه صريح فى أن إطلاق الإملاق على الفقر، من إطلاق السبب على المسبب؛ لأن الإملاق كثرة إنفاق المال وتبذيره، والفقر تابع لذلك، ومضمون كلام صاحب لسان العرب أن هناك فرقا بين الإملاق والفقر؛ فالإملاق افتقار أتى بعد غنى ووجد، جلبه الإسراف والتبذير، والفقر العدم ابتداء.

وقد ذكر فى آخر كلامه الذى نقلته آنفا قولا آخر هو أن المملق هو الذى لا شىء له، وعلى هذا الرأى لا يكون مما نحن فيه، وقد أورد هذا الرأى بصيغة (قيل) التى

---

(١) الخصائص، لابن جنى: ١/ ١٥٢ تحقيق محمد على النجار، دار الهدى للطباعة والنشر لبنان - بيروت ط ثانية.

(٢) الحديث فى كتاب النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٤/ ٣٥٧.

(٣) لسان العرب: ٦/ ٤٢٦٥ (ملق).

(٤) المصدر نفسه والموضع.

تدل على ضعف هذا الرأى عنده، وأنه يفضل القول بأن الإملاق هو الفقر أو الافتقار الذى جاء من السرف والتبذير.

وقد يؤيد هذا الرأي ويسانده قول الزمخشرى أملق الدهر ماله أذهبه، وأخرجه من يده، وأملق الرجل أنفق ماله حتى افتقر..[1].

والذى يهمنا فى هذا المقام أن العرب استعملوا لفظ الإملاق بمعنى الفقر استعمالا للسبب مكان المسبب، فيكون مجازا مرسلا علاقته السببية، ويظهر أن هذا المجاز قد شاع واشتهر عندهم حتى صار حقيقة فى الفقر، ولعله من أجل ذلك ذكر كثير من المفسرين أن الإملاق فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ﴾ [الأنعام: ١٥١] هو الفقر[2] دون أن يلقوا بالا لكون هذا الفقر أصيلا أو طارئا؛ لأن هذا لا يتعلق به غرض من الأغراض[3].

ثالثها: أنه كان فى بعض الأحيان لا يصرح بلفظ المجاز، ولا بكلمة السبب أو نحوها، ولكن عرضه لمعنى المجاز وبيانه لمدلوله يشعر أنه يقصد هذا النوع من المجاز أعنى إطلاق السبب على المسبب.

من ذلك ما ذكره عند تناوله لمادة (رحم) فقد قال: «... وسمى الله الغيث رحمة؛ لأنه برحمته ينزل من السماء»[4].

فقوله: (لأنه برحمته ينزل...) ينبىء أن الرحمة سبب فى إنزال الغيث، وهو مسبب عنها، وهذا مجاز مرسل علاقته السببية..

ولم يصرح فى هذا الموضع إلا بهذه الكلمات المقتضبة حول هذا المجاز، ولم

---

(١) أساس البلاغة (ملق).

(٢) ينظر الكشاف: ٢/ ٤٨ والتفسير الكبير، ٧/١/ ٢٤٥، وتفسير أبى السعود: ٢/٤/١٩٨، وتفسير البيضاوى: ٢٢٠.

(٣) ذكر أبو هلال العسكرى أن المملق مشتق من الملق، وهو الخضوع والتضرع، ولما كان الفقير فى أغلب الأحوال خاضعا متضرعا سمى مملقا، ولا يكون إلا بعد غنى ثم قال: «ويجوز أن يقال إن الإملاق نقل إلى عدم التمكن من النفقة على العيال...».

الفروق فى اللغة لأبى هلال العسكرى: ١٧١ منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت ط خامسة ١٩٨١.

(٤) لسان العرب: ٣/ ١٦١٣ (رحم).

يومىء إلى الآية الكريمة التى سمى الله فيها الغيث رحمة، ولعله يشير إلى مثل قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ [الأعراف: ٥٧].

فإن رحمته فى هذه الآية يراد بها - والله أعلم - الغيث، وقد صرح بذلك غير واحد من المفسرين فقد قال صاحب الكشاف: «... ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أمام رحمته، وهى الغيث الذى هو أتم النعم..»[1] وعبارة البيضاوى وأبى السعود «قدام رحمته التى هى المطر»[2] وظاهر أن أبا السعود قد نقلها عن البيضاوى، وكلاهما يرتشف من بيان جار الله الزمخشرى، ويغترف من علمه الغزير.

ومن هذا القبيل ما ذكره حول قول الراجز:

إن لنا أحمرة عجافا   يأكلن كل ليلة إكافا

فقد قال فى إثره: «أى يأكلن ثمن إكاف أى يباع إكاف ويطعم بثمنه، ومثله نطعمها إذا شتت أولادها أى ثمن أولادها، ومنه المثل تجوع الحرة، ولا تأكل ثدييها[3] أى أجرة ثدييها»[4].

واضح أن فى (إكاف) مجازا مرسلا علاقته السببية، استعمل فيه السبب مكان المسبب، إذ المراد به علف يشترى بثمن إكاف، والقرينة على ما يبدو قوله (يأكلن) لأن الإكاف، وهو البرذعة[5] لا يؤكل، وكذلك المراد بأولادها فى قولهم (نطعمها إذا شتت أولادها) ثمن أولادها، والمراد بثدييها فى المثل أجرة رضاع ثدييها.

ونلحظ فى بادئ النظر أن السببية فى جميع تلك الأمثلة ليست مباشرة؛ لأن الإكاف -مثلا- أطلق على ثمنه، ثم أطلق ثمنه على ما يشترى به، ويؤكل، وهو

---

(١) الكشاف: ٢/٦٦.

(٢) ينظر تفسير البيضاوى: ٢٣٠، وتفسير أبى السعود: ٢/٤/٢٣٤.

(٣) أى لا تكون مرضعة وإن آذاها الجوع، ويروى بثدييها، ومعناهما واحد لأن معنى لا تأكل ثدييها لا تأكل أجرة ثدييها، ومعنى بثدييها أى لا تعيش بسبب ثدييها، وبما يغلان عليها. مجمع الأمثال، للميدانى: ١/١٢٢، ١٢٣ تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٥م.

(٤) لسان العرب: ١/١٠٠ (أكل).

(٥) ينظر المعجم الوجيز مادة (أكف) إصدار مجمع اللغة العربية - القاهرة.

العلف؛ لذلك قال صاحب بغية الإيضاح عن المجاز في هذا المثال إنه – أى الإكاف – « يجوز أن يكون مجازا عن ثمنه، ثم صار مجازا عن العلف، فيكون مجازا على مجاز »[1].

وسنعرض – إن شاء الله – فيما يأتى لأستعمال المجاز على المجاز.

ومن هذا الضرب الذى لم يصرح فيه بكلمة المجاز، أو بكلمة السبب، أو نحوها – ما جاء فى الحديث الذى أورده صاحب لسان العرب وهو يتناول معنى (التنور) الذى يخبز فيه[2] فقد قال: « ... وفى الحديث قال لرجل عليه ثوب معصفر: لو أن ثوبك فى تنور أهلك، أو تحت قدرهم، كان خيرا[3] فذهب فأحرقه. قال ابن الأثير إنما أراد أنك لو صرفت ثمنه إلى دقيق تخبزه، أو حطب تطبخ به، كان خيرا لك، كأنه كره الثوب المعصفر »[4].

واضح من تعقيب ابن الأثير على الحديث المذكور أن فى قوله ﷺ (ثوبك..) مجازا مرسلا علاقته السببية حيث ذكر السبب، وأريد به المسبب، وهو ما يشترى بثمن الثوب من حطب ودقيق.

والقرينة فى هذا الحديث –كما يبدو – معنوية لم يفطن لها هذا الرجل، فلا يتصور أن يطلب رسول الله – ﷺ – من أحد أفراد أمته أن يحرق ثوبه، ويتلف ماله[5] ومن يدرى لعله ﷺ كان يعلم من أحوال هذا الرجل ما ليس مصرحا به فى

---

(١) بغية الإيضاح: ٣/ ٩٤.

(٢) لسان العرب: ١/ ٤٥٠ (تنر).

(٣) الحديث فى كتاب النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ١/ ١٩٩.

(٤) فى المعجم الوجيز: يقال عصفر الثوب وغيره صبغه بالعصفر، وهو نبات يستخرج منه صبغ أحمر يصبغ به الحرير ونحوه (مادة عصفر).

(٥) نبهنى أحد الأساتذة الأجلاء أن رسول الله ﷺ قد أمر أحد أصحابه بحرق ثوبيه المعصفرين، فقد روى مسلم عن عبدالله بن عمرو – رضى الله عنهما – قال رأى النبى ﷺ علىّ ثوبين معصفرين فقال: أأمك أمرتك بهذا؟ قلت أغسلهما قال: بل احرقهما.

صحيح مسلم بشرح النووى: ٤/ ٧٨٨ ط الشعب.

ولا يخفى أن هذا الحديث الذى رواه مسلم ليس فيه مجاز، ولعله يمثل حالة خاصة رأى فيها رسول الله ﷺ عمرا – رضى الله عنه ذا مال، وميسرة، فأراد أن يشدد عليه العقوبة زجرا له ولغيره عن مثل هذا الفعل – كما ذكر الإمام النووى فى شرح هذا الحديث.

ينظر المرجع السابق الموضع نفسه.

الحديث من فقره، وحاجته، وحاجة أهله إلى ثمن هذا الثوب، يشترون به ما يسد رمقهم، أو يدفع مسغبتهم.

وقد يؤيد هذا الفهم إضافة (تنور) إلى (أهلك) فى الحديث، فهم المحتاجون إلى ثمن هذا الثوب، الأحرياء بأن ينتفعوا به، ولو كان الأمر كما قال ابن الأثير: « .. كأنه كره الثوب المعصفر » لأمر بتغييره، أو نهاه عن لبسه.

بقيت كلمة تلح على نفسى أن أقولها فى هذا الرجل الذى جاء ذكره فى الحديث إن هذا الرجل كما بدا من صنيعه قوى الإيمان، صادق مع الله ورسوله، أطاع رسول الله فى أمر متوهم، توهم أنه يريد منه أن يحرق ثوبه الذى يستره، ويتجمل به فما تردد، أو تلكأ، أو جادل رسول الله فيما فهم من كلامه، رضوان الله عليه.

ومن هذا القبيل الذى لم يصرح فيه بكلمة المجاز، أو يذكر فيه كلمة السبب، أو نحو ذلك، ما أشار إليه من استعمال كلمة « اليد » فى معان مجازية كاستعمالها فى النعمة، لأنها سبب فى إيصالها إلى المنعم عليه فقد قال: « ... واليد النعمة والإحسان تصطنعه، والمنة، والصنيعة، وإنما سميت يدا؛ لأنها إنما تكون بالإعطاء، والإعطاء إنالة باليد، والجمع أيد، وأياد جمع الجمع »(١).

فاليد بمعنى النعمة والإحسان مجاز مرسل علاقته السببية، أطلق فيه السبب على المسبب، وقد جاء على هذا النمط قول أبى الطيب المشهور:

له أياد على سابغة   أعد منها ولا أعددها

حكى صاحب لسان العرب عن أحد اللغويين أنهم يقولون: له على يد، ولا يقولون له عندى يد وأنشد:

لـه علــى أياد لست أكفرهــا   وإنما الكفر ألا تشكر النعم(٢)

ومن المعانى المجازية التى ألمح صاحب اللسان إلى أن اليد تستعمل فيها أيضًا القوة والقدرة والغنى فقد قال: « .. والعرب تقول مالى به يد أي مالى به قوة، ومالى به يدان، ومالهم بذلك أيد أى قوة، ولهم أيد وأبصار، وهم أولو الأيدى والأبصار، واليد الغنى والقدرة تقول مالى عليه يد أى قدرة »(٣).

---

(١) لسان العرب: ٦/ ٤٩٥٢ (يدى).

(٢) المصدر نفسه: ٦/ ٤٩٥٣ (يدى).   (٣) المصدر نفسه والموضع.

ونلحظ أن قوله: «وهم أولو الأيدى والأبصار اقتباس من قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ [ص: ٤٥].

وقد ذكر العلامة أبو السعود فى تفسيره ما يؤيد هذا المعنى الذى قاله لسان العرب فقد قال فى معنى (أولى الأيد والأبصار) « .. أولى القوة فى الطاعة والبصيرة فى الدين»[١].

وقد تطرق البلاغيون إلى استعمال «اليد» فى النعمة، والقوة والقدرة، فذكر الشيخ عبد القاهر الجرجانى «أن اليد تقع للنعمة، وأصلها الجارحة، لأجل أن الاعتبارات اللغوية تتبع أحوال المخلوقين وعاداتهم، وما يقتضيه ظاهر البينة، وموضوع الجبلة، ومن شأن النعمة أن تصدر عن اليد ومنها تصل إلى المقصود بها، والموهوبة هى منه، وكذلك الحكم إذا أريد باليد القوة والقدرة؛ لأن القدرة أكثر ما يظهر سلطانها فى اليد وبها يكون البطش والأخذ والدفع والمنع والجذب والضرب والقطع..»[٢].

فاليد على وجه الحقيقة هى الجارحة التى خلقها الله للإنسان، وزوده بها؛ ليستخدمها فى قضاء حاجاته، وإظهار مهاراته، وتدوين علومه، وإتقان فنونه، وقد تخرج عن ذلك المعنى الأصلى لمعان مجازية- كما أسلفت -لها صلة وثيقة بمعناها الأصلى، ورابطة قوية لا تنفصم عراها بين معناها الحقيقى، ومعناها الذى خرجت إليه على سبيل المجاز، فاليد الحقيقية سبب فى المعانى المجازية، وهى مسببة عنه «ولذلك تجدهم لا يريدون باليد شيئًا لا ملابسة بينه وبين هذه الجارحة بوجه»[٣] وكتب البلاغة على بكرة أبيها لا تكاد تخلو من إشارات إلى استعمال كلمة اليد بمعنى النعمة مجازا مرسلا علاقته السببية[٤]، لذلك لا أجد داعيا إلى ذكر المزيد من كلامهم فى هذا الأمر.

وإذا كانت اليد قد أطلقت على أثرها كالنعمة وغيرها، فإن الإصبع قد أطلقت على الأثر الحسن؛ لأنها سببه أيضًا قال صاحب لسان العرب: «والإصبع الأثر الحسن يقال فلان من الله عليه إصبع حسنة أى أثر نعمة حسنة وعليه منك إصبع حسنة أى

---

(١) تفسير أبى السعود: ٤/٧/٢٣٠.
(٢) أسرار البلاغة: ٣١٦. (٣) المرجع نفسه والموضع.
(٤) ينظر – مثلا – المطول: ٣٥٥، وبغية الإيضاح: ٣/ ٩١.

أثر حسن... وإنما قيل للأثر الحسن إصبع لإشارة الناس إليه بالإصبع.. ويقال للراعى على ماشيته إصبع أى أثر حسن، وعلى الإبل من راعيها إصبع مثله، وذلك إذا أحسن القيام عليها فتبين أثره فيها قال الراعى يصف راعيا:

ضعيف العصا بادى العروق ترى له عليها إذا ما أجدب الناس إصبعا

ضعيف العصا أى حاذق الرعية، لا يضرب ضربا شديدا يصفه بحسن قيامه على إبله فى الجدب[1]».

وضعيف العصا كناية عن حسن الرعية، والعمل بما يصلحها، ويحسن أثره عليها[2] فهذا الراعى شفيق على إبله أو غنمه، رفيق بها «يرتاد لها أطيب المراعى، ويذودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكنها من أذى الحر والقر».

وقد جعل الشيخ عبد القاهر الجرجانى إطلاق الإصبع على الأثر الحسن عديلا لإطلاق اليد على النعمة فقال عقب فراغه من الكلام حول إطلاق اليد على النعمة:... ونظير هذا قولهم فى صفة راعى الإبل إن له عليها إصبعا أى أثرا حسنا وأنشدوا:

ضعيف العصا بادى العروق (البيت)

وأنشد شيخنا - رحمه الله - مع هذا البيت قول الآخر:

(صلب العصا بالضــرب قد دماها)

أى جعلها كالدمى فى الحسن[3].

وقد بدا لى أن ثم تعارضا بين كلام الشيخ عبد القاهر، وصاحب لسان العرب حول العلاقة فى إطلاق الإصبع على الأثر الحسن، فإن جعل الشيخ العلاقة بين الإصبع، والأثر الحسن مناظرة للعلاقة بين اليد، والنعمة يعارضه فيما يتراءى لى قول صاحب اللسان - الذى سبق ذكره قريبا - «وإنما قيل للأثر الحسن إصبع لإشارة الناس إليه بالإصبع» لأنه يشعر أن العلاقة هى المسببية؛ لأن الإشارة بالإصبع مسببة عن الأثر الحسن، وقد يقوى ذلك المنحى قول الزمخشرى: «ورأيت على نعم بنى فلان إصبعا لهم أى يشار إليها بالأصابع لحسنها وسمنها وحسن أثرهم فيها..»[4].

---

(١) لسان العرب: ٤/ ٢٣٩٥ (صبع).
(٢) بغية الإيضاح: ٣/ ١٨١.
(٣) أسرار البلاغة: ٢٨٣.
(٤) أساس البلاغة (صبع).

فإن صح هذا الذى بدا لى، فليس حتما أن يكون هذا التعارض ناتجا عن خطأ فى كلام هؤلاء الأعلام الأفذاذ، فإن لكل وجهته التى يمكن أن نستشفها من خلال كلامه، دون أن نجد لهذا التعارض أثرا، أو عثيرا؛ فإن الشيخ عبد القاهر يكون قد نظر إلى هذا المجاز من ناحية كون الإصبع سببا فى أثرها، بخلاف ما ينبىء به كلام صاحب لسان العرب، والزمخشرى من كون الإصبع مسببا عن الأثر الحسن «ولا ضير فى تعدد العلاقات فى المجاز الواحد، ومدار الفرق بينهما فى العلاقة المقصودة»[1].

وقد لحظت أن الشيخ عبد القاهر قد وفق بين قول الشاعر:

ضعيف العصا بادى العروق ترى له ... عليها إذا ما أجدب الناس إصبعا

وشطر البيت الذى أنشده شيخه لشاعر آخر:

(صلب العصا بالضرب قد دماها)

مبينا أن معناهما وإن بدا فى بادئ النظر متضادا إلا أنهما يرجعان إلى غرض واحد هو حسن سياسة الرعية، والحرص على صلاح أمرها فقال: «.. وكان قوله (صلب العصا) وإن كان ضد قول الآخر (ضعيف العصا) فإنهما يرجعان إلى غرض واحد، هو حسن الرعية، والعمل بما يصلحها، ويحسن أثره عليها، فأراد الأول بجعله ضعيف العصا أنه رفيق بها، مشفق عليها، لا يقصد من حمل العصا أن يوجعها بالضرب من غير فائدة، فهو يتخير مالان من العصى، وأراد الثانى أنه جيد الضبط لها، عارف بسياستها فى الرعى، يزجرها عن المراعى التى لا تحمد، ويتوخى بها ما تسمن عليه، ويتضمن أيضا أنه يمنعها عن التشرد والتبدد..»[2] ويبدو من توفيق الشيخ بين قول بعضهم (ضعيف العصا) وقول الآخر: (صلب العصا) أنه استوعب كلام اللغويين فيهما، ثم عرضه بأسلوبه الجميل الأخاذ الذى يملأ العين جمالا، والأذن تشنيفا، فعلاوة على ما نقلته عن صاحب لسان العرب فى صدر هذا الحديث فقد وجدته فى موضع آخر ينقل عن الأزهرى قوله:

«ويقال للراعى إذا كان قويا على إبله، ضابطا لها إنه لصلب العصا، وشديد العصا ومنه قول عمر بن لجأ: (صلب العصا جاف عن التغزل)»[3].

---

(١) ينظر حاشية الخضرى على شرح الملوى على السمرقندية: ٤٦.

(٢) أسرار البلاغة: ٢٨٣. (٣) لسان العرب: ٤/ ٢٩٧٩ (عصا).

ثم يضيف صاحب اللسان قائلاً:

«ورجل لين العصا رفيق حسن السياسة لما يلى يكنون بذلك عن قلة الضرب بالعصا، وضعيف العصا أى قليل الضرب للإبل بالعصا. وذلك مما يحمد به...»[١].

ويبدو من كلام اللغويين الذى أورده لسان العرب حول الكنايتين (ضعيف العصا) و(صلب العصا) أن الشيخ قد تأثره وهو يتناول الكنايتين أنفسهما، وأضفى عليه مسحة من جمال أسلوبه، وسحر بيانه.

وإذا كان الشيخ عبد القاهر قد اعتبر الهدف من قول الشاعر (ضعيف العصا) وقول الآخر (صلب العصا) واحدا، ووفق بينهما على أنهما لقائلين مختلفين، فإننى وجدت الكنايتين كلتيهما لشاعر واحد، وفى بيت واحد وحتى لا يبدو هذا الكلام كأنه ضرب من التعمية أو الإلباس، فإن بيت الراعى الذى سبق ذكره (ضعيف العصا..) قد ذكره صاحب لسان العرب فى موضع آخر برواية أخرى بدئ فيها البيت بقوله (صليب العصا..) فقال: «... وقولهم فى الراعى صلب العصا، وصليب العصا، إنما يرون أنه يعنف بالإبل قال الراعى:

صليب العصا بادى العروق ترى له عليها إذا ما أجدب الناس إصبعا[٢]

ولما كان هذا يعتبر تناقضا نسب إلى الشاعر، فقد رجعت إلى ديوانه لأتبين أى الروايتين اللتين ذكرهما صاحب اللسان قالها الشاعر؟ وقد وجدت البيت فى الديوان[٣] مبتدأ بقوله (ضعيف العصا..) كما فى الرواية التى جاءت فى أسرار البلاغة[٤] وفى بعض المواضع من لسان العرب - كما سبق - ويهون من هذا الأمر أن الغرض من الكنايتين واحد، ثم إن اختلاف الرواية فى الشعر العربى أمر معهود، لا غرابة فيه، ولا يستبعد أن تكون رواية (صليب العصا) قد جاءت فى إحدى نسخ الديوان المخطوطة، لم يطلع عليها محققه.

---

(١) المصدر نفسه والموضع.

(٢) المصدر نفسه: ٤/ ٢٤٧٦ (صلب).

(٣) ديوان الراعى النميرى: ١٦٢ جمعه وحققه راينهرت ڤاييرت بيروت - ١٤٠١هـ، دار النشر ڤرانتس.

(٤) أسرار البلاغة: ٢٨٣.

بقيت كلمة فيما نحن بسبيله حول شطر البيت الذى نقله الشيخ عبد القاهر عن شيخه – وقد سلف ذكره قريبا – وهو:

صلب العصا بالضرب قد دماها

أى جعلها كالدمى فى الحسن كما قال الشيخ[١] فقد عثرت على البيت كاملا فى لسان العرب[٢] وهو بتمامه:

صلب العصا بالضرب قد دماها   يقــول ليت الله قد أفناها

وقد أورد صاحب اللسان لقوله (قد دماها) معنيين غير المعنى الذى ذكره الشيخ عبد القاهر أحدهما أنه سيل دمها بالضرب، لخلافها عليه والثانى أنه دماها أى كساها السمن كأنه دممها بالشحم؛ لأنه يرعيها كل ضرب من النبات.

وأورد لقوله (ليت الله قد أفناها) معنيين أيضًا أحدهما أنه دعا عليها بالهلاك والفناء والثانى ليت الله قد أنبت لها الفنا، وهو عنب الذئب حتى تسمن وتغزر[٣].

* * *

(١) أسرار البلاغة: ٢٨٣.
(٢) لسان العرب: ٥/ ٣٤٧٨ (فنى).
(٣) ينظر المصدر نفسه والموضع.

المسببية

المسببية هى كون الشىء مسببا عن شىء آخر نحو أمطرت السماء نباتا[١] فإن النبات مسبب عن المطر، والمطر سبب فى إنباته، ومثل قول الشاعر:

شربت الإثم حتى ضل عقلى   كذاك الإثم يذهب بالعقول

فقد أطلق الشاعر كلمة «الإثم» على الخمر، لأنه ينشأ عنها[٢] من إطلاق المسبب على السبب، ويبدو أن القرينة هنا «شربت» لأن الإثم معنى من المعانى لا يشرب، وكأن الشاعر أحس أنه قد اقترف إثمًا عظيمًا ملأ عليه حسه، وكيانه، وملك شعوره، ووجدانه، فأومأ بهذا المجاز إلى أنه حين شرب الخمر، كان يعب ذنوبا، ويكرع عصيانا.

وقد تناول صاحب لسان العرب أمثلة هذه العلاقة على صور مختلفة:

إحداهما: أنه قد أشار إلى أن التعبير بالمسبب عن السبب ضرب من التجوز، وداخل فى نطاقه، فقد ذكر فى أحد المواضع أن إطلاق القول على الاعتقادات، والآراء تجوز؛ لأنها سبب فيه، فقد قال: «القول عند المحقق كل لفظ قال به اللسان.. فأما تجوزهم فى تسميتهم الاعتقادات والآراء قولا، فلأن الاعتقاد يخفى، فلا يعرف إلا بالقول، أو بما يقوم مقام القول من شاهد الحال، فلما كانت لا تظهر إلا بالقول، سميت قولا؛ إذ كانت سببا له، وكان القول دليلا عليها، كما يسمى الشىء باسم غيره إذا كان ملابسا له»[٣].

فالاعتقادات سبب فى القول الذى يترجم عنها، ويبرز المستكن منها، والقول مسبب عنها، فيقال – مثلا – فلان يقول برأى أهل السنة أى يعتقد معتقدهم، وينهج نهجهم، وقوله (... كما يسمى الشىء باسم غيره إذا كان ملابسا له) دليل

---

(١) الرسالة البيانية، للصبان: ١٩٧.

(٢) ينظر فتح البارى بشرح صحيح البخارى، لابن حجر العسقلانى: ١٠/ ٣٤.

(٣) لسان العرب: ٥/ ٣٧٧٧ (قول).

على أن إطلاق القول على الاعتقاد مجاز مرسل؛ لأنه هو الذى يبنى على الملابسة، والارتباط بين المعنى الحقيقى، والمعنى المجازى للفظ، بعلاقة غير المشابهة.

ثانيتها: أنه صرح عند بعض أمثلتها بأنها اتساع فى اللغة، فقد عرض لإطلاق الرزق على المطر فى بعض الآيات القرآنية فقال «وقد يسمى المطر رزقا، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾[الجاثية: ٥].

وقال تعالى: ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢] قال مجاهد هو المطر. وهذا اتساع فى اللغة كما يقال التمر فى قعر القليب يعنى به سقى النخل»[١] فالرزق فى الآيتين يقصد منه المطر، لأنه الذى ينزل من السماء، والرزق مسبب عنه، ويؤكد ذلك المعنى قول صاحب الكشاف «وسمى المطر رزقا؛ لأنه سبب الرزق»[٢].

وواضح أن صاحب اللسان يريد بكلمة «اتساع» فى كلامه السابق المجاز؛ لأننى وجدته فى بعض المواضع يقرن كلمة المجاز بكلمة اتساع، ويعطفها عليها، مثل قوله: «وقد يطلق الثيب على المرأة البالغة، وإن كانت بكرا مجازا واتساعا»[٣] وهو فى هذا سائر على نهج بعض الأقدمين، وحاذ حذوهم، فقد كان (سيبويه) - رحمه الله - يسمى المجاز توسعا[٤].

وقد شبه صاحب اللسان إطلاق الرزق على المطر بإطلاق التمر على الماء فى قوله: (... كما يقال التمر فى قعر القليب) ومعلوم أن الذى فى قعر القليب هو الماء، لا التمر، وإنما سمى الماء تمرا، لأن الماء سبب التمر، وهو مسبب عنه، تسمية للسبب باسم المسبب.

ثالثتها: أنه قد يذكر أنه من الاكتفاء بالمسبب عن السبب، دون إشارة إلى أنه مجاز، من ذلك ما أورده من إطلاق القراءة على إرادتها، والقيام على إرادته فى بعض

---

(١) لسان العرب: ٣/ ١٦٣٧.
(٢) الكشاف: ٣/ ٤٣٦، وينظر الكشاف أيضًا: ٤/ ٢٩.
(٣) لسان العرب: ١/ ٥٢٥ (ثيب).
(٤) نقلا عن الحقيقة والمجاز فى القرآن الكريم، للدكتور على محمد حسن: ٢٢.

آى الذكر الحكيم، فقد قال فى أحد المواضع: « ... وضده – أى ضد إطلاق السبب على المسبب – قول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨] أى فإذا أردت قراءة القرآن فاكتفى بالمسبب الذى هو القراءة من السبب الذى هو الإرادة، ونظيره قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ ﴾ [المائدة: ٦] أى إذا أردتم القيام إلى الصلاة..»[١].

وغنى عن البيان أن الاكتفاء بالمسبب فى الآيتين، وهو قراءة القرآن، والقيام إلى الصلاة عن السبب، وهو إرادة القراءة والقيام مجاز مرسل علاقته المسببية.

وجدير بالذكر أن المجاز فى الآيتين مشتهر شرود، وقد أشار إليه من لا تحصى أسماؤهم من أهل العلم.

ومن قبيل هذا الضرب الذى ذكر أنه اكتفى فيه بالمسبب عن السبب قول الشاعر:

إذا تغنى الحمام الورق هيجنى ولو تعزيت عنها أم عمار

فقد قال صاحب اللسان بعد أن أورد البيت «اكتفى فيه بالمسبب الذى هو التهيج من السبب الذى هو التذكير؛ لأنه لما قال هيجنى دل على ذكرنى فنصبها به»[٢].

فتغنى الحمام ذكر الشاعر صاحبته «أم عمار» فهاج شوقه إليها، فأطلق الشاعر الفعل «هيج» على ذكر، وبعبارة أخرى أطلق التهييج على التذكير؛ لأن تهيج الشوق مسبب عن التذكير بها.

وقد عثرت على ما ذكره صاحب لسان العرب حول المجاز فى البيت الذى تقدم ذكره موجودا بقضه وقضيضه فى كتاب الخصائص، لابن جنى، فقد قال بعد أن ذكر البيت: «اكتفى فيه بالمسبب الذى هو التهيج من السبب الذى هو التذكير؛ لأنه لما قال هيجنى دل على ذكرنى، فنصبها به»[٣].

---

(١) لسان العرب: ٥/ ٤٠٥٩ (لقح).
(٢) المصدر نفسه: ٦/ ٤٧٣٣ (هيج).
(٣) الخصائص، لابن جنى: ٢/ ٤٢٥.

ولعل صاحب اللسان أخذ هذا الكلام من كتاب ابن جنى، أو أخذه عن أحد اللغويين الذين أخذوا كلام ابن جنى، وسطروه فى بطون كتبهم.

رابعتها: أنه كان أحيانا يشرح حقيقة المجاز، ويوضح كنهه بما يدل على أنه من إطلاق المسبب على السبب.

من ذلك النوع ما ذكره وهو يلقى الضوء على معنى الأثر فى قوله ﷺ: «من سره أن يبسط الله فى رزقه وينسأ فى أثره فليصل رحمه»(١).

فقد قال بعد أن أورد الحديث: «الأثر الأجل، وسمى به؛ لأنه يتبع العمر.

قال زهير:

والمــــرء ما عاش ممدود له أمــل   لا ينتهى العمر حتى ينتهى الأثر

وأصله من أثر مشيه فى الأرض، فإن من مات لا يبقى له أثر، ولا يرى لأقدامه فى الأرض أثر، ومنه قوله للذى مر بين يديه، وهو يصلى: قطع صلاتنا قطع الله عليه أثره(٢) دعا عليه بالزمانة؛ لأنه إذا زمن انقطع مشيه فانقطع أثره»(٣).

فأثر الإنسان، وحركته فى الحياة مسبب عن أجله فإذا مات قامت قيامته، وانقطع أثره، فيكون فى (أثره) مجاز مرسل علاقته المسببية.

وقد اقتصر صاحب اللسان تبعا لابن الأثير(٤) على رأى واحد فى معنى (الأثر) فى دعاء النبى - ﷺ - على ذلك الرجل، لكن ابن الأثير صاحب المثل السائر ذكر رأيين آخرين لمعنى قطع أثر هذا الرجل المشرك فقال: «ومن ذلك - أى من الاكتفاء بالمسبب عن السبب - ما ورد فى الأدعية النبوية، فإنه ﷺ دعا على رجل من المشركين فقال اللهم اقطع أثره، وهذا يحتمل ثلاثة أوجه من التأويل **الأول** أنه دعا عليه بالزمانة؛ لأنه إذا زمن لا يستطيع أن يمشى على الأرض، فينقطع حينئذ أثره

---

(١) الحديث فى كتاب النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ١/ ٢٣، وينظر فتح البارى: ٤/ ٣٥٣، وصحيح مسلم بشرح النووى: ٥/ ٤٢٢.

(٢) النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ١/٢٣، وسنن أبى داود، كتاب الصلاة، باب ما يقطع الصلاة: ١/١٨٨.

(٣) لسان العرب: ١/ ٢٥ (أثر).

(٤) ينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ١/٢٣.

الوجه الثانى أنه دعا عليه بألا يكون له نسل من بعده، ولا عقب، **الوجه الثالث** أنه دعا عليه بألا يكون له أثر من الآثار مطلقا، وهو ألا يفعل فعلا يبقى أثره من بعده كائنا ما كان من عقب أو بناء، أو غراس، أو غير ذلك »(١) ، وقد روى أن دعوة الرسول ﷺ قد أصابت ذلك الرجل فاقعد، ولم يستطع بعدها حراكا(٢).

ومن هذا الشكل الذى يدل شرحه له على أنه مجال مرسل من قبيل علاقة المسببية ما ذكره صاحب لسان العرب فى مادة (قرمط) عندما قال: « القرمطيط المتقارب الخطو، وقرمط فى خطوه إذا قارب ما بين قدميه، وفى حديث معاوية أنه قال لعمرو قرمطت؟ قال لا، يريد أكبرت؟ لأن القرمطة فى الخطو من آثار الكبر »(٣).

واضح أن القرمطة أى تقارب الخطو مسبب، سببه الكبر، وتقدم السن فيكون إطلاق القرمطة على الكبر مجازا مرسلا علاقته المسببية.

وعلى شاكلة هذا النوع أيضًا ما ذكره من إطلاق الموت على أسبابه فى قوله تعالى: ﴿ . . وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ [إبراهيم: ١٧] فقد قال إن « معناه – والله أعلم – أسباب الموت، إذ لو جاءه الموت نفسه، لمات به لا محالة »(٤).

واضح أن الموت فى الآية ليس مرادا به الموت الحقيقى، كما ينطق بذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ وإنما المراد به أسباب الموت، المؤدية إليه، فأطلق فى الآية الموت على أسبابه، إطلاقا للمسبب على سببه، وقد ألمح إلى ذلك صاحب الكشاف عندما قال فى تفسير الآية التى نحن بصددها « كأن أسباب الموت وأصنافه كلها قد تألبت عليه، وأحاطت به من جميع الجهات تفظيعا لما يصيبه من الآلام »(٥).

* * *

---

(١) المثل السائر: ١/ ٨١، ٨٢.
(٢) ينظر سنن أبى داود، كتاب الصلاة، باب ما يقطع الصلاة: ١/ ١٨٨.
(٣) لسان العرب: ٥/ ٣٦٠٦ (قرمط).
(٤) المصدر نفسه: ٦/ ٤٢٩٥ (موت).
(٥) الكشاف: ٢/ ٢٩٧.

الآليـــة

هى كـون الشىء واسطة فى إيصـال أثر المؤثر إلى المتـأثر نحـو قـوله تعـالى: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ [الشـعـراء: ٨٤] أى ذكـرًا صـادقًـا وثناء حسنا[١].

وقد جاء تناول هذه العلاقة فى لسان العرب على صورتين:

إحداهـما: أن يصرح بأن إطلاق اسم الآلة على أثرها مجاز، فقد جاء فى بعض المواضع «وِدف الإناء قطر، والودفة الشـحـمـة، وودف الشـحم ونحـوه يدف سـال، وقطر... والأداف الذكـر لقطرانه، وفى الحـديث فى الأداف الدية[٢] قـال ابن الأثيـر سماه بما يقطر منه مجازا..»[٣].

واضح من كلام لسان العرب الذى نقله عن ابن الأثير أن الذكر سمى أدافا باسم ما يقطر منه على سبيل المجاز، وغنى عن البيـان أنه أداة القطر، أو آلته، وهذا يندرج تحت ما عناه البلاغيون بعلاقة الآلية.

ثانيتهما: أن يدل شرحه وتوضيحه لبعض أمثلة هذه العلاقة على حقيقتها دون تصريح بمجاز، أو نحوه، من ذلك ما ذكره حول أشهر مثال لهذه العلاقة، وهو ما جاء فى قوله تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].

فـقـد أورده ثـم أتبعـه بقـوله: «... معناه اجـعل لى ثناء حسنا باقيـا إلى آخـر الدهر»[٤] ففسر اللسان، وهو آلة الكلام بالثناء الحسن، والقول الطيب الجميل، وفى ذلك إيماء إلى علاقة الآلية.

---

(١) الرسالة البيانية للصبان: ١٩٧.

(٢) الحـديث فى كتـاب النهـاية فى غـريب الحـديث والأثر، لابن الأثيـر: ١/ ٣١، وفى كتاب غريب الحديث، لابن الجوزى: ١/ ١٥ تعليق الدكتور عبدالمعطى أمين قلعجى، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان ط أولى ١٤٠٥هـ.

(٣) لسان العرب: ٦/ ٤٧٩٩ (ودف)، وينظر كتاب النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ١/ ٣١.

(٤) المصدر نفسه: ٥/ ٤٠٣٠ (لسن).

وقد ساق صاحب اللسان من كلام الشعراء، واللغويين ما يدل على أن لفظ اللسان مذكر، وقد يؤنث إذا نقل من معنى العضو والجارحة إلى معنى الكلمة، أو اللغة، أو الرسالة فقال: «اللسان جارحة الكلام وقد يكنى بها[1] عن الكلمة فيؤنث حينئذ قال أعشى باهلة:

إني أتتني لسان لا أسر بها   من علو لا عجب منها ولا سخر

قال ابن برى اللسان هنا الرسالة والمقالة ومثله:

إني أتتني لسان بني عامر   أحاديثها بعد قول نكر

قال - أى ابن برى - وقد يذكر على معنى الكلام قال الحطيئة:

ندمت على لسان فات مني   فليت بأنه في جوف عكم

... وإن أردت باللسان اللغة أنثت يقال فلان يتكلم بلسان قومه قال اللحيانى اللسان فى الكلام يذكر ويؤنث يقال إن لسان الناس عليك لحسنة وحسن أى ثناؤهم... وقوله عز وجل ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ** ﴾ [إبراهيم: ٤] أى بلغة قومه...»[2].

فإطلاق اللسان على الرسالة، أو المقالة، أو اللغة من إطلاق الآلة على أثرها، وذلك مجاز مرسل علاقته الآلية.

والقول بأن اللسان فى قول أعشى باهلة (... أتتنى لسان لا أسر بها) يراد به المقالة، أو الرسالة هو الجدير بالقبول؛ لأنه يستبعد أن يراد به الكلمة الواحدة؛ لأنها لا تسر، ولا تحزن اللهم إلا أن يكون قد أريد بها الكلمات مجازا مرسلا علاقته الجزئية - كما سيأتى بيانه - ومثل ذلك ما ذكره صاحب لسان العرب فى مادة (شفة) فقد ذكر أن الشفة تطلق على الثناء الحسن فقال:

«... وما كلمته ببنت شفة أى بكلمة، وفلان خفيف الشفة أى قليل السؤال للناس، وله فى الناس شفة حسنة أى ثناء حسن وقال اللحيانى إن شفة الناس عليك لحسنة أى ثناءهم عليك حسن وذكرهم لك...»[3].

---

(١) سيأتى إن شاء الله الحديث عن إطلاق الكناية على المجاز المرسل.

(٢) لسان العرب: ٥/٤٠٢٩، ٤٠٣٠ (لسن).

(٣) المصدر نفسه: ٣/ ٢٢٩٤ (شفة).

فإطلاق الشفة وهى من أعضاء النطق على السؤال، أو الثناء الجميل مجاز مرسل علاقته الآلية، لأنها آلة من آلاته مثل اللسان.

وعلى ذلك فإنه من الممكن أن يدعو داع ربه محاكيا نبى الله إبراهيم عليه السلام - فيقول اللهم اجعل لى شفه حسنة بين الناس أى ثناء حسنا، وذكراً جميلاً.

ومثل ذلك ما ذكره من إطلاق الفوّهة، وهى الفم على القالة، والغيبة، فقد قال فى أحد المواضع: « ... وفاه بالكلام يفوه نطق، ولفظ به... ورجل مفوه قادر على المنطق، والكلام، وكذلك فيّه، ورجل فيّه جيد الكلام، والمفوه المنطيق.. وإنه لذو فوهة أى شديد الكلام، بسيط اللسان... وقولهم إن رد الفوهة لشديد أى القالة، وهو من فهت بالكلام، ويقال هو يخاف فوهة الناس أى قالتهم، والفوهة تقطيع المسلمين بعضهم بعضا بالغيبة، ويقال من ذا يطيق رد الفوهة... »[1].

فإطلاق الفوهة أى الفم على القالة، أو الغيبة، أو بعبارة أخرى إطلاق الفم على الكلام مجاز مرسل علاقته الآلية.

* * *

---

(١) لسان العرب: ٥/ ٣٤٩٤، ٣٤٩٥ (فوه).

المجـــاورة

هي كون الشيء مجاورا لشيء آخر في مكانه...[1] فإطلاق الشيء على ما يجاوره مجاز مرسل؛ لأن العلاقة فيه غير المشابهة.

وقد تناول صاحب لسان العرب أمثلة هذه العلاقة في أماكن من كتابه وجاء تناوله لها على عدة وجوه:

أحدها: أن يصرح بكلمة المجاورة نفسها، ويذكر أن إطلاق الشيء على ما يجاوره مجاز فقد قال في مادة (ربد):

« ... وربد الإبل يربدها ربدا حبسها، والمربد محبسها... والمربد الموضع الذي تحبس فيه الإبل وغيرها... ومربد البصرة من ذلك سمي؛ لأنهم كانوا يحبسون فيه الإبل، وقول الفرزدق:

عشية سال المربدان كلاهمـــا   عجاجة موت بالسيوف الصوارم

فإنه سماه مجازا لما يتصل به من مجاوره، ثم إنه مع ذلك أكده، وإن كان مجازا، وقد يجوز أن يكون سمى كل واحد من جانبيه مربدا... وقال الجوهري في بيت الفرزدق إنه عنى به سكة المربد بالبصرة، والسكة التي تليها من ناحية بني تميم...»[2].

فمربد البصرة واحد، وقد سمى الفرزدق المكان الذي يجاوره مربدا مجازا فصارا مربدين، أو أنه سمى كل واحد من جانبيه مربدا لمجاورتها له، أوسمى سكتي المربد مربدين لكونهما مجاورتين له أيضًا.

وقد وجدت بعض كلام صاحب لسان العرب حول بيت الفرزدق مأخوذا عن ابن جني فقد ذكر أن العرب وكّدت المجاز، كما وكدت الحقيقة «وذلك قول الفرزدق:

---

(١) ينظر الرسالة البيانية، للصبان: ٢٤١ مع حاشية الإنبابي عليها.

(٢) لسان العرب: ٢/ ١٥٥٥، ١٥٥٦ (ربد).

عشية سال المربدان كلاهما سحابة موت بالسيوف الصوارم[١]

وإنما هو مربد واحد فثناه مجازا؛ لما يتصل به من مجاوره، ثم إنه مع ذلك وكده وإن كان مجازا، وقد يجوز أن يكون سمى كل واحد من جانبيه مربدا[٢].

وقد غير صاحب لسان العرب قول ابن جنى (فثناه مجازا . . .) إلى (سماه مجازا) وتعبير ابن جنى هو الملائم لسياق الكلام بعده، ولعل ذلك سهو، أو خطأ من نساخ لسان العرب.

ثانيها: أن يذكر كلمة المجاز مطلقة على ما يعتبر من قبيل المجاورة دون أن يصرح بكلمة المجاورة نفسها فقد ذكر أن كلمة (ثلة) بفتح الثاء تطلق على جماعة الغنم، وتطلق على الصوف مجازا فقال: «الثلة جماعة الغنم، وأصوافها ابن سيده الثلة جماعة الغنم قليلة كانت، أو كثيرة . . . وفى حديث معاوية لم تكن أمه براعية ثلة . . . عن ابن دريد يقال كساء جيد الثلة أى الصوف، وحبل ثلة أى صوف . . . وفى حديث الحسن إذا كان لليتيم ماشية، فللوصى أن يصيب من ثلتها، ورسلها، أي من صوفها، ولبنها قال ابن الأثير سمى الصوف بالثلة مجازا»[٣].

وقد اكتفى صاحب اللسان بإيراد كلمة (مجاز) دون أن يصرح، أو يلمح إلى نوع العلاقة فيه، ويمكن لمن ينعم النظر فيه أن يعتبر العلاقة فيه السببية؛ لأن الغنم سبب فى الصوف، أو المجاورة؛ لأنه مجاور لها، لصيق بها، ويقوى هذا الاتجاه الأخير، ويعضده أن الزمخشرى قد جعل تسمية الصوف ثلة مساوية لتسمية المطر سماء حين قال: «الثلة جماعة الغنم، والثلة جماعة الناس قال:

آليت بالله ربى لا أسالمهم حتى يسالم رب الثلة الذيب

وبنو فلان مثلون أصحاب غنم، وكساء جيد الثلة أى الصوف، سمى باسم ما هو منه كتسمية المطر بالسماء[٤].

---

(١) فى رواية ابن جنى للبيت كلمة (سحابة) بدل (عجاجة) وقد ذكر محقق كتاب (الخصائص) أن كلمة (عجاجة) موجودة بإحدى نسخ الكتاب، ورواية لسان العرب هى الموافقة لما فى ديوان الفرزدق جـ٢، ص ٣١٩ دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٠هـ.

(٢) الخصائص، لابن جنى: ٢ / ٤٥٣.

(٣) لسان العرب: ١ / ٥٠١ (ثلل).

(٤) أساس البلاغة (ثلل).

وعلى ذلك يكون إطلاق الثلة على الصوف مجازا مرسلا علاقته المجاورة.

ثالثها: أن ينظّر اللفظ الذى جاء فيه المجاز بلفظ آخر اشتهرت مجازيته على سبيل علاقة المجاورة، فقد ذكر أن كلمة (السفرة) فى الأصل اسم للطعام الذى يتخذه المسافر، وقد نقل اسمها إلى الجلد الذى يحمل فيه هذا الطعام كما سميت المزادة راوية يقول فى هذا الشأن: «والسفرة (بالضم) طعام يتخذ للمسافر، وبه سميت سفرة الجلد.

وفى حديث زيد بن حارثة قال ذبحنا شاة فجعلناها سفرتنا، أو فى سفرتنا[1] السفرة طعام يتخذه المسافر، وأكثر ما يحمل فى جلد مستدير، فنقل اسم الطعام إليه، وسمى به كما سميت المزادة راوية، وغير ذلك من الأسماء المنقولة، وفى حديث عائشة صنعنا لرسول الله - ﷺ - ولأبى بكر سفرة فى جراب[2] أى طعاما لما هاجر هو وأبو بكر رضى الله عنه -»[3].

فكلمة السفرة نقلت من معناها الأصلى، وهو الطعام الذى يتخذه المسافر إلى الجلد الذى يحمل فيه ذلك الطعام؛ لعلاقة المجاورة، كما سميت المزادة راوية.

فنجده قد نظّر إطلاق السفرة على الجلد بإطلاق الراوية على المزادة «والراوية البعير الذى يسقى عليه الماء، فسمى الوعاء الذى يحمله باسمه»[4] ولعل كلمة السفرة بمعنى الخوان، أو المائدة التى يستعملها الناس فى كلامهم مأخوذة من هذا، فهم يقولون أكلنا على السفرة أى الخوان؛ لأن الطعام يوضع فوقه، وإن كان صاحب اللسان قد نقل عن بعضهم أن «السفرة التى يؤكل عليها سميت سفرة؛ لأنها تبسط إذا أكل عليها»[5].

ومن هذا النوع الذى نظّر ما فيه من مجاز مرسل بإطلاق الراوية على المزادة

---

(١) النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٢/٣٧٣.

(٢) المصدر نفسه والموضع.

(٣) لسان العرب: ٣/٢٠٢٤ - ٢٠٢٥ (سفر)، والنهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٢/٣٧٣.

(٤) الموازنة، للآمدى ٢٣/٢٤.

(٥) لسان العرب: ٣/ ٢٠٢٥ (سفر).

ما ذكره في أحد المواضع، وبين فيه أن (الحقو) يطلق على الإزار؛ لأنه يشد على الحقو، وهو الخصر[١] فقد قال: «والحَقْوُ والحِقْوُ، والحَقْوَةُ، والحِقاءُ كله الإزار، سمى بما يلاث عليه... وروى عن النبي – ﷺ – أنه أعطى النساء اللائى غسلن ابنته حين ماتت حقوه، وقال أشعرنيها إياه[٢] قال ابن برى الأصل فى الحقو معقد الإزار، ثم سمى الإزار حقوا، لأنه يشد على الحقو، كما تسمى المزادة راوية؛ لأنها على الراوية، وهو الجمل، وفى حديث عمر رضى الله عنه لا تزهدن فى جفاء الحقو أى لا تزهدن فى تغليظ الإزار وثخانته؛ ليكون أستر لكن»[٣].

وقد سمى الإزار حقوا، باسم الموضع الذى يشد عليه من جسم الإنسان، لمجاورته له، على سبيل المجاز المرسل كما تسمى المزادة راوية.

ومما هو بسبيل من ذلك أيضًا ما ذكره صاحب اللسان من أن الإزار يسمى حجزة باسم الموضع الذى يشد عليه للمجاورة أيضًا، فقد أود فى أحد المواضع أن «أصل الحجزة موضع شد الإزار قال – أى ابن الأثير – ثم قيل للإزار حجزة للمجاورة»[٤].

ويقال تحاجز القوم أخذ بعضهم بحجز بعض[٥] وقد عد الزمخشرى من المجاز قولهم وهذا كلام آخذ بعضه بحجزة بعض أى متناظم منسق[٦] وواضح أن إطلاق الحجزة على الإزار نفسه مجاز مرسل علاقته المجاورة، ويؤيد ذلك ما نقله صاحب لسان العرب من أن عائشة رضى الله عنها قالت: «لما نزلت سورة النور عمدن إلى حجز مناطقهن فشققنها فاتخذنها خمرا»[٧] ثم قال صاحب اللسان «أرادت بالحجز المآزر».

فنجدها – رضى الله عنها قد سمت المآزر حجزا باسم المواضع التى عقدت

---

(١) المصدر نفسه: ٢/ ٩٤٨ (حقا).
(٢) وينظر صحيح مسلم بشرح النووى ٢/ ٦٠٠، وفتح البارى: ٣/ ١٥٠ وما بعدها.
(٣) لسان العرب: ٢/ ٩٤٨ (حقا)
(٤) المصدر نفسه: ٢/ ٧٨٦ (حجز).
(٥) المصدر نفسه والموضع.
(٦) أساس البلاغة (حجز).
(٧) لسان العرب: ٢/ ٧٨٦ (حجز).

عليها، لمجاورتها لها، وغنى عن البيان أن الحجز أى خواصر الناس لا تشق، ولا تتخذ خمرا تضرب على جيوب النساء.

وقد نظّر صاحب لسان العرب بالمزادة والراوية أيضًا حين أطلق العسب، وهو طرق الفحل وضرابه على كراء ذلك الضراب فقال: «وفى حديث أبى معاذ كنت رجلا تياسا فقال لى البراء بن عازب لا يحل لك عسب الفحل، وقال أبو عبيد معنى العسب فى الحديث الكراء والأصل فيه الضراب، والعرب تسمى الشىء باسم غيره إذا كان معه أو من سببه كما قالوا للمزادة راوية، وإنما الراوية البعير الذى يستقى عليه»(١).

فالعسب فى الأصل هو الضراب، ثم أطلق على أجرته وكرائه؛ لأن أخذ الكراء مصاحب للضراب، قريب منه، مقترن به.

وقوله (والعرب تسمى الشىء باسم غيره إذا كان معه...) صريح فى علاقة المجاورة، فالمعية المذكورة تنبىء بالاقتران، والمصاحبة.

ولذلك كان إطلاق العسب على كرائه مساويا ومناظرا لإطلاق الراوية على المزادة.

وقد بدا لى من النظر فى هذا المثال أن المجاورة ليست مقصورة على المجاورة المكانية، بل يمكن أن تكون زمانية أيضًا، فالكراء ليس مجاورا للضراب حيثما كان، وأنى وجد، بل يمكن أن يحصل فى مكان، وتؤخذ أجرته فى مكان آخر فى زمن متقارب، اللهم إلا أن تكون عادة العرب قد جرت على أخذ الكراء فى موضع الضراب دون تأخير أو إبطاء.

رابعها: أن يذكر أن الشىء قد يسمى باسم الشىء لقربه منه، ويعنى بهذا القرب المجاورة كما تشير إلى ذلك الأمثلة التى ذكرها، فقد جعل إطلاق اسم الظعينة على الجمل الذى يظعن عليه، وعلى الهودج على سبيل الحقيقة، ثم جعل من المجاز إطلاق الظعينة على المرأة فى الهودج لمجاورتها له عندما قال «والظعينة الجمل يظعن عليه والظعينة الهودج تكون فيه المرأة، وقيل هو الهودج كانت فيه المرأة، أو لم تكن، والظعينة المرأة فى الهودج سميت به على حد تسمية الشىء باسم الشىء لقربه منه..»(٢) فيكون إطلاق الظعينة على المرأة مجازاً مرسلا علاقته المجاورة لأنها تكون فى الظعينة أى الهودج، أو لأنها تركب الجمل الذى هو ظعينة(٣).

---

(١) لسان العرب: ٤/٢٩٣٦ (عسب)، وينظر فتح البارى: ٤/٥٣٩.

(٢) لسان العرب: ٤/٢٧٤٨ (ظعن). (٣) ينظر المصدر نفسه والموضع.

ويبدو أن وجهة اللغويين لم تتفق حول هذا المجاز، فقد أورد صاحب لسان العرب ما يفيد عكس ما ذكره آنفا، فنقل عن ابن الإنبارى أن «الأصل فى الظعينة المرأة تكون فى هودجها، ثم كثر ذلك حتى سموا زوجة الرجل ظعينة... وفى حديث حنين فإذا بهوازن على بكرة آبائهم بظعنهم، وشاتهم، ونعمهم الظعن النساء واحدتها ظعينة...»[1].

ويكاد إجماع اللغويين الذين أورد صاحب اللسان كلامهم فى هذا الموضع - ينعقد على أن إطلاق الظعينة على المرأة مجاز؛ لأنها تركب الجمل، أو تكون فى الهودج وعلى ذلك يكون قول الشيخ عبدالقاهر الجرجانى: «وأن الظعينة أصلها المرأة فى الهودج، ثم صار البعير والهودج ظعينة»[2] مستندا إلى قول فردى هو قول ابن الإنبارى الذى أورده صاحب لسان العرب.

* * *

(١) المصدر نفسه والموضع.

(٢) أسرار البلاغة: ٣٢١.

بين المزادة والراوية

رأينا فيما سلف من حديث علاقة المجاورة ترداد كلمتى الراوية والمزادة فى كلام أهل العلم، وقياس بعض أمثلة هذه العلاقة عليهما، واعتبارهما أصلا يقاس عليه فى هذا الصدد، وقد وجدت أن من النافع المفيد أن ألقى عليهما بعض الضوء، ليكون معناهما بينا واضحا، لا لبس فيه، ولا غموض، ولبيان أمر المجاز فيهما، أما المزادة، فقد ذكر صاحب لسان العرب فى أحد المواضع أنها الراوية، ونقل عن بعض اللغويين أنها «لا تكون إلا من جلدين تفأم بجلد ثالث لتتسع... والجمع المزاد والمزايد»[١].

فالمزادة هى الوعاء أو الظرف الذى يحمل فيه الماء[٢] كالقربة وغيرها، ولم أجد أحدا من العلماء قد خالف فى ذلك - على قدر علمى - إلا سعد الدين التفتازانى، فقد فسر المزادة بالمزود الذى يجعل فيه الزاد أى طعام السفر[٣] وهذا تفسير غير صحيح[٤] أما الراوية، فقد رأينا فيما سبق أن صاحب لسان العرب قد ذكر فى عدة مواضع أنها البعير الذى يستقى عليه[٥] وسميت المزادة راوية لمجاورتها للبعير الذى يحملها، وعلى ذلك فالراوية أصل فى البعير مجاز فى المزادة.

ومع أن صاحب اللسان كرر هذا المعنى عدة مرات إلا أنه نقل فى بعض المواضع عن ابن سيده أن الراوية أصل فى المزادة مجاز فى البعير فقال: «... ابن سيدة والراوية المزادة فيها الماء، ويسمى البعير راوية على تسمية الشىء باسم غيره لقربه منه...»[٦].

وقد سار الإمام العلوى على القول بأن الراوية أصل فى المزادة مجاز فى البعير، فجعل المجاورة كنقل اسم الراوية من ظرف الماء إلى ما يحمل عليه من الجمل وغيره[٧].

ويبدو أن هذا قول مغمور عند العلماء، ولذلك أشار إليه ابن الأثير بصيغة

---

(١) لسان العرب: ٣/ ١٨٩٧ (زيد).

(٢) ينظر - مثلا - النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٤/ ٣٢٤.

(٣) المطول: ٣٥٥، والمختصر: ٤/ ٣٤ شروح التلخيص.

(٤) حاشية السيد الشريف على المطول: ٣٥٥ على هامش المطول.

(٥) لسان العرب: ٣/ ٢٠٢٥ (سفر)، ٤/ ٢٩٣٦ (عسب) ٢/ ٩٤٨ (حقا).

(٦) المصدر نفسه: ٣/ ١٧٨٤ (روى). (٧) الطراز: ١/ ٧٢.

التضعيف (قيل) فقد ذكر أن «الروايا من الإبل الحوامل للماء واحدتها راوية... ومنه سميت المزادة راوية، وقيل بالعكس»[1].

وقد أورد صاحب لسان العرب شواهد على استعمال العرب الراوية فى البعير والمزادة، فمن استعمالها بمعنى البعير قول أبى النجم:

تمشى من الردة مشى الحفل   مشى الروايا بالمزاد الأثقل

ومن استعمالها بمعنى المزادة قول عمرو بن ملقط:

ذاك سنان محلب نصره   كالجمل الأوطف بالراوية

والذى أميل إليه، وهو ما عليه الكثير من العلماء أن الراوية أصل فى البعير مجاز فى المزادة، والذى يرجح ذلك أن العرب استعارت الراوية لمن يحمل الأثقال من الرجال مثل قول الشاعر:

ولنا روايا يحملون لنا   أثقالنا إذ يكره الحمل

يعنى به الرجال الذين يحملون لهم الديات شبه السيد الذى تحمل الديات عن الحى بالبعير الراوية[2].

فاستعارة الراوية بمعنى البعير للرجل الذى تحمل الديات يدل على أن كلمة الراوية متأصلة فى تلك الدلالة، مستقرة فى عرفهم اللغوى، حتى ساغ لهم استعارتها لمن يحمل الأثقال من الناس، ومعلوم أن الإبل كانت تحمل الأثقال التى لا يستطيع حيوان آخر حملها، ومنها المزايد التى تمتلىء بالماء خصوصا عند اجتماع الجم الغفير من الناس كما فى أيام الحج، ولذلك كان الجمل جديرا بأن يسمى راوية.

وقد سار الشيخ عبدالقاهر الجرجانى على هذا القول الشهير، فذكر أنهم سموا المزادة راوية، وهى اسم البعير الذى يحملها فى الأصل[3] وإذا كان العرب قد سموا المزادة راوية باسم البعير حاملها، لمجاورتها له، فإنهم قد فعلوا عكس ذلك عندما سموا البعير الحامل لمتاع البيت الردئ حفضا باسم ذلك المتاع الذى يحمله، وقد أومأ إلى ذلك صاحب لسان العرب دون أن يذكر لفظ المجاز، أو المجاورة، أو شيئا من هذا القبيل، فقد قال فى بعض المواضع»... والحفض البيت، وقيل متاع البيت إذا هيىء للحمل قال ابن الأعرابى الحفض قماش البيت، وردئ المتاع، ورذاله والذى يحمل ذلك

(١) النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٢/ ٢٧٩.
(٢) ينظر لسان العرب: ٣/ ١٧٨٤، ١٧٨٥ (روى).
(٣) أسرار البلاغة: ٣١٧، ٣١٨.

عليه من الإبل حفض، ولا يكاد يكون ذلك إلا رذال الإبل، ومنه سمى البعير الذى يحمله حفضا به، ومنه قول عمرو بن كلثوم:

ونحن إذا عماد الحى خرّت على الأحفاض نمنع ما يلينا

قال الأزهرى وهى ههنا الإبل، وإنما هى ما عليها من الأحمال..»[١] فسمى البعير حفضا، والإبل أحفاضا باسم المتاع المحمول، تسمية للشىء باسم ما يجاوره على سبيل المجاز المرسل، وقول الأزهرى: (وإنما هى ما عليها من الأحمال) يعنى أن الأحفاض هى الأحمال التى تحملها الإبل باعتبار الأصل، ثم نقلت إلى الإبل نفسها مجازا، وهذا موافق لما قاله الشيخ عبد القاهر الجرجانى من أنهم سموا «البعير حفضا وهو اسم لمتاع البيت الذى يحمل عليه»[٢].

وقد ذكر صاحب اللسان عقب كلامه المتقدم أن البيت له روايتان (على الأحفاض) و(عن الأحفاض) فمن قال (عن الأحفاض) عنى الإبل التى تحمل المتاع، ومن قال (على الأحفاض) عنى الأمتعة[٣].

وإذا نظرنا إلى هاتين الروايتين نجد أن الذى يتلاءم مع السياق، والحديث عن المجاورة رواية (عن الأحفاض).

وكان ينبغى أن يورد صاحب لسان العرب البيت بهذه الرواية حتى يكون كلامه متناسبا ومتسقا مع سياقه؛ لأن سياق البيت شاهدا على أن البعير سمى حفضا باسم ما يحمله من الأمتعة.

وقد رجعت إلى معلقة عمرو بن كلثوم فوجدت البيت مذكورا فيها برواية (عن الأحفاض)[٤].

وقال شارح المعلقة: «من روى البيت (على الأحفاض) أراد بها الأمتعة، ومن روى (عن الأحفاض) أراد بها الإبل[٥]. وهو فى ذلك متفق مع ما ذكره صاحب اللسان، وقد زاد هذا الشارح معنى البيت توضيحا فقال:

«يقول – أى الشاعر – ونحن إذا قوضت الخيام فخرت على أمتعتها نمنع، ونحمى من يقرب منا من جيراننا، أو نحن إذا سقطت الخيام عن الإبل للإسراع فى الهرب نمنع، ونحمى جيراننا إذا هرب غيرنا حمينا غيرنا»[٦].

---

(١) لسان العرب: ٢/٩٢٨ (حفض).
(٢) أسرار البلاغة: ٣١٨.
(٣) لسان العرب: ٢/٩٢٨ (بتصرف).
(٤) شرح المعلقات السبع، للزوزنى: ١٤٩.
(٥) المرجع نفسه والموضع.
(٦) شرح المعلقات السبع للزوزنى: ١٤٩.

اعتبار ما كان

وهو تسمية الشيء باسمه الذى كان عليه فى الزمان الماضى [1] كما فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا ﴾ [طه: ٧٤] سماه الله مجرما يوم القيامة باعتبار ما كان عليه فى الدنيا من الإجرام [2].

وقد تمثل تناول لسان العرب لهذه العلاقة فى صورتين:

إحداهما: أن يصرح بأن ما جاء من سبيلها مجاز، فقد جاء فيه وهو يعالج قوله تعالى: ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ﴾ [النساء: ٢]... أى أعطوهم أموالهم إذا آنستم منهم رشدا، وسموا يتامى بعد أن أونس منهم الرشد بالاسم الأول الذى كان لهم قبل إيناسه...» [3].

وقبل أن أمضى مع كلامه حول المجاز فى هذه الآية أود أن أنبه إلى أنه قد يتبادر إلى الذهن من قول لسان العرب (وسموا يتامى بعد أن أونس منهم الرشد بالاسم الأول) - أن إيناس الرشد يعتد به فى دفع أموال اليتامى إليهم، ولو كان ذلك قبل البلوغ، والواقع أن هذا الإيناس لا يعتد به إلا إذا كان بعد البلوغ كما هو ظاهر من قوله تعالى: ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ [النساء: ٦].

ولعله من أجل ذلك قرر الإمام القرطبى «أن دفع المال - إلى اليتامى - يكون بشرطين إيناس الرشد والبلوغ، فإن وجد أحدهما دون الآخر، لم يجز تسليم المال كذلك نص الآية» [4].

ويتابع لسان العرب حديثه حول (اليتامى) فى الآية المعهودة قائلا: «... واليتم

---

(١) ينظر مختصر السعد: ٤ / ٤٠ شروح التلخيص.
(٢) ينظر البرهان فى علوم القرآن، للزركشى: ٢ / ٢٨٠.
(٣) لسان العرب: ٦ / ٤٩٤٩ (يتم).
(٤) تفسير القرطبى: ١٦٠٨ ط الشعب.

فى الناس فقد الصبى أباه قبل البلوغ، وفى الدواب فقد الأم، وأصل اليتم الانفراد... والأنثى يتيمة، وإذا بلغا زال عنهما اسم اليتم حقيقة، وقد يطلق عليهما مجازا بعد البلوغ كما كانوا يسمون النبى ﷺ وهو كبير يتيم أبى طالب؛ لأنه رباه بعد موت أبيه...»(١).

فإطلاق اليتم على الكبير البالغ مجاز؛ لأن حقيقته أن يطلق على من دون البلوغ، وقد جاء فى لسان العرب عقب الكلام السابق أن اسم اليتم يطلق على المرأة البالغة مجازا فقال: «وفى الحديث تستأمر اليتيمة فى نفسها، فإن سكتت فهو إذنها(٢) أراد باليتيمة البكر البالغة التى مات أبوها قبل بلوغها، فلزمها اسم اليتم فدعيت به، وهى بالغة مجازا»(٣).

فتصريح صاحب لسان العرب، وهو إمام من أئمة اللغة وينقل عن أئمتها بأن إطلاق اليتامى على البالغين، واليتيمة على البالغة مجاز يدحض القول الذى حكاه صاحب الرسالة البيانية ومحشيه ومؤداه أن إطلاق اليتامى على البالغين حقيقة لأنه «وارد على أصل اللغة فإن اليتيم مشتق من اليتم وهو الانفراد، فالاشتقاق يقتضى جواز إطلاقه على كل من مات أبوه صغيراً كان أو كبيراً؛ لتحقق الانفراد عن الأب فيهما»(٤).

وقد أشار إلى هذا القول بعض البلاغيين، واعتبره مخالفا لما عليه الجمهور(٥) وأومأ إليه الإمام الزركشى فى برهانه أيضاً(٦).

ثانيتهما: أنه كان أحيانا يذكر أن تسمية الشىء باسمه الذى كان عليه فى الماضى اتساع، فقد قال: «... السِّبْت بالكسر كل جلد مدبوغ... وفى الحديث أن النبى ﷺ رأى رجلا يمشى بين القبور فى نعليه فقال: يا صاحب السبتين اخلع

---

(١) لسان العرب: ٦/٤٩٤٩ (يتم).

(٢) الحديث فى كتاب غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٥/٢٩٢.

(٣) لسان العرب: ٦/٤٩٤٩ (يتم).

(٤) حاشية الإنبابى على الرسالة البيانية: ٢٢٧ وينظر الرسالة البيانية فى الصفحة نفسها.

(٥) ينظر مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح، لابن يعقوب المغربى: ٤/٤٠ وحاشية الدسوقى: ٤/٤٠ شروح التلخيص.

(٦) ينظر البرهان فى علوم القرآن: ٢/٢٨٠.

سبتيك[١]... قال الأزهرى كأنها سميت سبتية؛ لأن شعرها قد سبت عنها أى حلق وأزيل بعلاج من الدباغ معلوم عند دباغيها... وفى تسمية النعل المتخذة من السبت سبتا اتساع مثل قولهم فلان يلبس الصوف والقطن والإبريسم أى الثياب المتخذة منها»[٢]. فقد استعمل كلمة اتساع مكان كلمة مجاز، وقد أشرت إلى ذلك فى موضع سابق، وسيأتى لهذا الأمر زيادة بيان – إن شاء الله – فى أثناء الكلام عن علاقة اعتبار ما يئول إليه.

ونجد وراء أمر النبى ﷺ لهذا الرجل بخلع سبتيه إجلالا لحرمة المقابر، وتقديرا لمنزلة الموتى، لأنهم يتألمون كما يتألم الحى فلا ينبغى إيذاؤهم بقرع النعال حول قبورهم، أو لأنها كانت وسخة، ولذلك قال ابن الأثير فى كلامه الذى أخذ عنه صاحب لسان العرب: «وإنما أمره بالخلع احتراما للمقابر؛ لأنه كان يمشى بينها، وقيل لأنها كان بها قذر، أو لاختياله فى مشيه»[٣].

وإذا ما عدنا إلى المجاز، أو الاتساع كما جاء فى لسان العرب فى هذا الموضع. فإننا نجد أنه ذكر أن النبى ﷺ سمى النعلين سبتين باعتبار ما كانتا عليه فى الماضى، وجعل ذلك نظيرا لقولهم فلان يلبس الصوف أى الثياب التى اتخذت من الصوف؛ فإنها سميت صوفا باعتبار ما كانت عليه فى الماضى، وقولهم فلان يلبس القطن أى الثياب المتخذة من القطن وسميت قطنا باعتبار ما كانت عليه فى الماضى، وقولهم فلان يلبس الإبريسم أى الثياب المتخذة منه سميت باعتبار ما كانت عليه فى الماضى. وأمثال هذه الاستعمالات التى أوردها لسان العرب لا تزال تتردد على ألسنة الناس فى حياتهم اليومية فنراهم يقولون «أكلنا قمحا، وشربنا بنا، ونحو ذلك مما يكون التعبير فيه باعتبار ما كان»[٤].

ومعلوم أنهم لا يقتاتون حبات القمح كما هى، ولا يشربون مسحوق البن، ولا يلبسون القطن كما أخذ من أشجاره دون غزل أو نسج، فقد سموا الخبز قمحًا باعتبار ما كان، وأطلقوا على شراب القهوة بنا أيضًا باعتبار ما كان.

* * *

(١) الحديث فى كتاب غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٢ / ٣٣٠.
(٢) لسان العرب: ٣ / ١٩١١ (سبت).
(٣) النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٢ / ٣٣٠.
(٤) المنهاج الواضح، للأستاذ حامد عونى: ١١١.

اعتبار ما يئول إليه

وهو تسمية الشيء باسم ما يئول إليه في المستقبل نحو قوله تعال: ﴿...إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٣٦] أى أعصر عنبا يئول إلى أن يصير خمرا بعد العصر(١) وقد جاء تناول هذه العلاقة في لسان العرب على وجهين:

أحدهما: أن يصرح بأن تسمية الشيء باعتبار ما يئول إليه مجاز، فقد أورد كلاما مؤداه أن العنب أو العصير يسمى خمرا؛ لأنه سيكون خمرا في المستقبل، فقال حول إطلاق الخمر على العصير: «والخمر ما خمر العقل، وهو المسكر من الشراب... وفي حديث سمرة أنه باع خمرا فقال عمر قاتل الله سمرة(٢) قال الخطابي إنما باع عصيرا ممن يتخذه خمراً فسماه باسم ما يئول إليه مجازا كما قال عز وجل ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٣٦].

فلهذا نقم عمر رضى الله عنه عليه؛ لأنه مكروه، وأما أن يكون سمرة باع خمراً، فلا لأنه لا يجهل تحريمه مع اشتهاره»(٣).

فالذى باعه (سمرة) عصير، وقد سمى خمراً باعتبار أنه يئول في المستقبل إلى خمر، وهذا مجاز، لأنه استعمال الكلمة في غير ما وضعت له، وغنى عن البيان أنه مجاز مرسل؛ لأن علاقته غير المشابهة، ولو كان (سمرة) قد باع خمرا بعينها، لعاقبه عمر – رضى الله عنه – لأن الذى حرم شربها حرم بيعها، روى أن رجلاً أهدى لرسول الله ﷺ راوية خمر فقال له رسول الله ﷺ هل علمت أن الله قد حرمها؟ قال لا فسارّ إنسانا فقال له رسول الله ﷺ بم ساررته؟ فقال أمرته ببيعها فقال إن الذى حرم شربها حرم بيعها قال ففتح المزادة حتى ذهب ما فيها(٤).

---

(١) ينظر المختصر للسعد: ٤/ ٤٠، ٤١ ومواهب الفتاح.. لابن يعقوب المغربى شروح التلخيص: ٤/ ٤٠.

(٢) ينظر الحديث في صحيح مسلم بشرح النووى: ٤/ ٩٢ط الشعب ومسند الإمام أحمد: ١/ ٩٦ مكتبة التراث الإسلامى شرح أحمد محمد شاكر.

(٣) لسان العرب: ٢/ ١٢٥٩ (خمر).

(٤) صحيح مسلم بشرح النووى: ٤/ ٨٨، ٨٩.

وواضح أن تنظير العصير الذى سيكون فى المستقبل خمرا بما فى آية (يوسف) – كما جاء فى كلام الخطابى السالف الذكر – ليس فى كل شيء؛ لأن خمرا فى الآية يراد به العنب «بدليل ذكر العصر؛ لأن الخمر عصير، والعصير لا يعصر»[1] أما العصير، فقد تجاوز مرحلة كونه عنبا، فهو سائل مهيأ لأن يكون خمرا إذا عتق، وخمرت عليه دنانه.

وقد أورد ابن منظور فى لسان العرب ما يفيد أن الخمر معناها العنب وعلى ذلك تكون كلمة (خمرا) فى الآية حقيقة، وليست مجازا، فقد قال: « . . . والعرب تسمى العنب خمراً قال – أى ابن سيده – وأظن ذلك لكونها منه حكاها أبو حنيفة قال وهى لغة يمانية وقال – أى أبو حنيفة – فى قوله تعالى: ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً ﴾ [يوسف: ٣٦] إن الخمر هنا العنب. قال – أى ابن سيده – وأراه سماها باسم ما فى الإمكان أن تئول إليه، فكأنه قال إنى أرانى أعصر عنبا قال الراعى:

ينازعني بها ندمان صدق   شواء الطير والعنب الحقينا

يريد الخمر»[2]

ويبدو أن اعتبار (خمرا) فى الآية حقيقة – كما قال بعضهم – رأى مغمور، لا يبالى به، ولا يلتفت إليه، ولذلك ذكره صاحب الرسالة البيانية بصيغة (قيل) التى تنبيء عن الضعف والتمريض[3] ولعله من أجل ذلك لم يذكره شراح التلخيص[4] أو يحوموا حوله.

ويبدو لى أن تنظير ابن سيده (خمرا) فى الآية بالعنب فى قول الراعى المتقدم – ليس سديدا؛ لأن العنب فى البيت أطلق على الخمر وهى موضوعة على مائدة الطعام، وقد يؤيد هذا الفهم قول صاحب لسان العرب فى موضع آخر:

«قال الراعى فى العنب التى هى الخمر:

ونازعني بها إخوان صدق   شواء الطير والعنب الحقينا»[5]

---

(١) المنهاج الواضح، للأستاذ حامد عونى: ١١٢.

(٢) لسان العرب: ٢/ ١٢٥٩ (خمر).

(٣) ينظر الرسالة البيانية، للصبان: ٢٢٨.

(٤) ينظر شروح التلخيص: ٤: ٤٠، ٤١.

(٥) لسان العرب: ٤/ ٣١١٩ (عنب).

وإذا كان العنب فى بيت الراعى يراد به الخمر – كما ذكر ابن منظور – فإنه مجاز مرسل علاقته اعتبار ما كان أى الخمر التى كانت عنبا فى الماضى، أما فى الآية فإن كلمة (خمرا) أطلقت على العنب الذى يتناوله العصر، ليكون خمرا فى المستقبل، فهو مجاز مرسل علاقته اعتبار ما يئول إليه.

ومما يجدر ذكره هنا أننى لحظت أن صاحب لسان العرب ذكر بيت الراعى بروايتين جاء فى إحداهما (ينازعنى) وفى الثانية (نازعنى) وفى إحداهما (ندمان) وفى الثانية (إخوان).

وقد رجعت إلى ديوان الشاعر[1] فوجدت البيت قد جاء فيه برواية قد لفقت بين الروايتين اللتين ذكرتا فى لسان العرب وهى:

ونازعني بها ندمان صدق   شواء الطير والعنب الحقينا

والمهم أن العنب فى البيت مجاز مرسل علاقته اعتبار ما كان، وليس مناظرا للمجاز فى آية (يوسف) كما بينت.

ومن هذا النوع الذى صرح فيه بأنه تسمية الشيء باعتبار ما يئول إليه مجاز ما ذكره فى مادة (ثيب) من أن الثيب تطلق على البكر مجازا؛ لأنها ستكون كذلك فيما يستقبل من عمرها فقد قال: «الثيب من النساء التى تزوجت وفارقت زوجها بأى وجه كان بعد أن كان قد مسها... وقد يطلق الثيب على المرأة البالغة وإن كانت بكرا مجازا، واتساعا[2].

فإطلاق الثيب على المرأة البالغة قبل أن تتزوج مجاز، وربما كان هذا الإطلاق تفاؤلا بأنها ستتزوج وتصير ثيبا فى المستقبل.

ونلحظ هنا أنه سمى هذا الإطلاق (مجازاً واتساعًا) وسمى إطلاق الخمر على العصير والعنب – كما سبق – مجاز لا غير، وفى هذا ما يدل على أن الاتساع يستعمل استعمال المجاز، ويؤدى مؤداه فعطفه عليه يكون عطف تفسير، وقد ذكرت ذلك من قبل.

---

(١) ديوان الراعى النميرى: ٢٨٨، جمعه وحققه راينهرت ڤاييرت بيروت: ١٤٠١هـ ١٩٨٠م.

(٢) لسان العرب: ١/ ٥٢٥ (ثيب).

ثانيهما: أنه قاس بعض أمثلة هذه العلاقة على بعض وصرح بأنها على وجه تصور الحال المتوقعة، فقد ذكر في مادة (عفر) عدة أمثلة لهذه العلاقة أتبع بعضها بعضا، فبعد أن ذكر أن «العَفْرَ والعفر ظاهر التراب والجمع أعفار...»(1) أورد قول أبي ذؤيب:

ألفيت أغلب من أسد المسد حديـ ـد الناب أخـذته عَفْرٌ فتطريح(2)

ونقل عن بعضهم أن كلمة (عفر) في البيت معناها جذب، فيكون قد سمى الجذب عفرا؛ لأنه يئول إليه بعد أن يطرح على الأرض فقال: «.. وقال أبو نصر عفر جذب قال ابن جني قول أبي نصر هو المعمول به، وذلك أن الفاء مرتبة، وإنما يكون التعفير في التراب بعد الطرح لا قبله، فالعفر إذا ههنا هو الجذب، فإن قلت فكيف جاز أن يسمى الجذب عفرا؟ قيل جاز ذلك لتصور معنى التعفير بعد الجذب وأنه إنما يصير إلى العفر الذي هو التراب بعد أن يجذبه ويساوره..»(3).

وقد أورد بعد المثال السابق مثالا آخر سميت فيه جلود الحيوانات وهي لا تزال حية أفيقا باعتبار ما يئول إليه، لأن الأفيق هو الجلد في الدباغ فقال عقب كلامه الذي تقدم ذكره:

«.. ألا ترى ما أنشده الأصمعي: (**وهن مدا غضن الأفيق**)(4)

فسمى جلودها وهي حية أفيقا، وإنما الأفيق الجلد ما دام في الدباغ، وهو قبل ذلك جلد وإهاب ونحو ذلك، ولكنه لما كان قد يصير إلى الدباغ سماه أفيقا، وأطلق ذلك عليه قبل وصوله إليه على وجه تصور الحال المتوقعة...»(5).

ثم ساق صاحب لسان العرب عدة أمثلة من قبيل المجاز المرسل علاقته اعتبار ما يكون أو ما يئول إليه دون أن يصرح باسم هذه العلاقة فقال: «... ونحو منه قوله تعالى: ﴿**إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا**﴾ [يوسف: ٣٦] وقول الشاعر:

---

(١) المصدر نفسه: ٤/٣٠٠٨ (عفر).

(٢) المسد موضع بمكة عند بستان ابن عامر (في الماضي) وذلك البستان ماسدة، وقيل هو موضع بقرب مكة شرفها الله تعالى، لسان العرب: ٣/١٩٧١ (سدد).

(٣) المصدر نفسه: ٤/٣٠٠٨ (عفر).

(٤) الغضن والغضن الكسر في الجلد والثوب والدرع وغيرها وجمعه غضون.

(٥) المصدر نفسه: ٤/٣٠٠٨ (عفر).

إذا ما مات ميت من تميم فسرك أن يعيش فجيء بزاد

فسماه ميتا وهو حي؛ لأنه سيموت لا محالة وعليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] أى إنكم ستموتون قال الفرزدق:

قتلت قتيلا لم ير الناس مثله أقلبه ذا تومتين مسـوورا»[١]

والمجاز كما هو واضح فى البيت الأخير فى (قتيلا) لأنه لم يقتل مقتولا، وإنما قتل حيا يصير بعد قتله قتيلا[٢].

ونلحظ فى الكلمات التى أوردها لسان العرب أنه أومأ إلى شيء مهم وهو أن الأيلولة فى هذه العلاقة ليست حتمية دائماً، بل قد تكون حتمية كما فى إطلاق الميت على الحى؛ لأنه صائر إلى الموت لا محالة، وقد تكون ظنية محتملة كما فى إطلاق الأفيق على الجلد يشعر بذلك قوله (ولكنه لما كان قد يصير إلى الدباغ سماه أفيقا) فمفهوم تلك العبارة أنه قد لا يصير إلى الدباغ، ويعزز هذا المعنى ويعضده قوله بعد ذلك فى هذا الصدد أيضًا (وأطلق ذلك عليه قبل وصوله إليه على وجه تصور الحال المتوقعة) فالأيلولة متوقعة وليست متيقنة، ولذلك فرق فى نهاية هذه الأمثلة بين إطلاق العَفْر على الجذب وإطلاق الميت على الحى فقال:

«وإذا جاز أن يسمى الجذب عفرا؛ لأنه قد يصير إلى العفر، وقد يمكن ألا يصير الجذب إلى العفر كان تسمية الحى ميتا لأنه ميت لا محالة أجدر بالجواز»[٣].

ولم أجد هذا المعنى الذى ألمح إليه صاحب لسان العرب حول حتمية الأيلولة فى هذه العلاقة، أو عدم حتميتها فيما قرأت من الكتب البلاغية إلا فى الرسالة البيانية للصبان – رحمه الله – فقد قال: «الثالثة عشرة اعتبار ما شأنه أن يئول إليه الشيء ظنا كقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٣٦] أى عنبا يئول عصيره إلى الخمرية... أو قطعا كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠][٤].

وقد جعل بعض أعلام اللغة العربية المجاز فى بعض الأمثلة السالفة الذكر المسببية

(١) لسان العرب: ٤/٣٠٠٨ (عفر).
(٢) ينظر الخصائص، لابن جنى: ٣/١٧٧.
(٣) لسان العرب: ٤/٣٠٠٨ (عفر). (٤) الرسالة البيانية: ٢٢٨.

فقال: « ... وعليه قول الله سبحانه ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ وإنما يعصر عنبا يصير خمراً فاكتفى بالمسبب الذى هو الخمر من السبب الذى هو العنب وقال الفرزدق:

قتلت قتيلا لم ير الناس مثله   أقلبه ذا تومتين مســـــورا»(١)

وإنما قتل حيا يصير بعد قتله قتيلا فاكتفى بالمسبب من السبب »(٢) وقد سبق أن أشرت إلى أنه لا ضرر فى أن ينظر فى المجاز الواحد إلى أكثر من علاقة واحدة، ومدار الفرق على العلاقة المقصودة(٣).

* * *

---

(١) التومة اللؤلؤة، والمسور لابس السوار.

(٢) الخصائص، لابن جنى: ٣/١٧٧.

(٣) ينظر حاشية الخضرى على شرح الملوى على السمرقندية: ٤٦ والمباحث البيانية في تفسير الفخر الرازى: ٢١٦.

الكلية

هى «كون الشيء متضمنا لشيء آخر ولغيره نحو قوله تعالى: ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم ﴾ [البقرة: ١٩] أى رءوس أناملهم»(١).

ولم أظفر بأمثلة كثيرة فى لسان العرب لهذه العلاقة - على قدر جهدى - وجاء تناول لسان العرب لهذا النزر اليسير من أمثلة تلك العلاقة على صورة واحدة ذكر فيها أنها تتمثل فى تسمية الجزء باسم الكل فقد قال فى أحد المواضع: «... وربما سموا البيت الواحد شعرا حكاه الأخفش قال ابن سيده وهذا ليس بقوى إلا أن يكون على تسمية الجزء باسم الكل كقولك الماء للجزء من الماء، والهواء للطائفة من الهواء، والأرض للقطعة من الأرض»(٢).

فقول ابن سيده الذى ارتضاه صاحب لسان العرب، ونقله عنه (... تسمية الجزء باسم الكل) يشير إشارة واضحة جلية إلى علاقة الكلية أعنى إطلاق الكل وإرادة الجزء، فيقال كما ألمح قرأت شعرا أى بيتا من الشعر، وشربت الماء أى بعضا منه، لأن الإنسان لا يشرب الماء كله، واستنشقت الهواء أى جزءا منه، وسكنت الأرض أي بقعه معينة منها.

ومثل ذلك ما أشار إليه فى أحد المواضع من أن الصلاة تطلق على القراءة؛ لأن القراءة بعض منها فقد قال: «وفى حديث قراءة الفاتحة قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين أراد بالصلاة ههنا القراءة تسمية للشيء ببعضه..»(٣).

والمقصود من القراءة كما يدل صدر الحديث قراءة الفاتحة؛ لأن الحديث الشريف جاء بشأنها.

وقد يكون من إتمام الفائدة أن أورد هذا الحديث بتمامه ثم أكمل الكلام عن

---

(١) الرسالة البيانية، للصبان: ١٩٧، ١٩٨.

(٢) لسان العرب: ٣/٢٢٧٤ (شعر).

(٣) المصدر نفسه: ٥/ ٣٦٣٠ (قسم).

المجاز فيه، فقد روى أبو هريرة - رضى الله عنه - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل، فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله تعالى حمدنى عبدى، وإذا قال الرحمن الرحيم قال الله تعالى أثنى على عبدى، وإذا قال مالك يوم الدين قال مجدنى عبدى، وقال مرة فوض إلى عبدى، فإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين قال هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل، فإذا قال اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال هذا لعبدى ولعبد ما سأل»[١].

وقد ذكر الإمام النووى - رحمه الله - فى شرح الحديث ما يؤكد أن المراد بالصلاة فى الحديث الفاتحة فقال: «قال العلماء المراد بالصلاة هنا الفاتحة»[٢] وواضح أن إطلاق الصلاة التى تتضمن أقوالا وأفعالا كثيرة على (الفاتحة) وحدها مجاز مرسل علاقته الكلية حيث أطلق الكل على بعض منه.

وقد بدا لى أن قول صاحب اللسان فى كلامه المتقدم (أراد بالصلاة ههنا القراءة تسمية للشيء ببعضه) لا يتسق صدره مع عجزه، فإن قوله (تسمية للشيء ببعضه) يدل على أن المصرح به فى الكلام هو البعض، والواقع خلاف ذلك، لأن المذكور فى الكلام هو الكل أعنى الصلاة التى أريد بها الفاتحة.

وقد وجدت أن صاحب لسان العرب قد نقل هذا القول عن ابن الأثير[٣] دون أن ينعم النظر فيه، أو يفطن لما فيه من خلل، ولعله سهو منهما معاً. والذى يعزز ما قلته، ويقويه أن صاحب اللسان ذكر فى علاقة الجزئية، وهو بصدد الحديث عن إطلاق الرقبة على الإنسان كله أن الجملة سميت باسم العضو تسمية للشيء ببعضه[٤].

ولا شك أن استعمال تعبير واحد فى علاقتين متقابلتين يدل على أنه مجانب للصواب فى إحداهما، وكان يمكن أن يقال - مثلا - تسمية للجزء باسم الكل كما قال فى الأمثلة التى سلف ذكرها فى مطلع الحديث عن هذه العلاقة التى نحن بسبيلها حتى يكون الكلام متلائما متناسقا.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى: ١/ ٢٧ ط الشعب.
(٢) صحيح مسلم بشرح النووى: ١/ ٢٩ ط الشعب.
(٣) ينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٤/ ٦١.
(٤) ينظر لسان العرب: ٣/ ١٧٠١ (رقب).

الجزئيـــة

الجزئية هى كون الشيء يتضمنه شيء آخر نحو قوله تعالى ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص: ٨٨] أى ذاته(١)..

وقد تناول صاحب لسان العرب أمثلة هذه العلاقة على عدة صور:

إحداها: أنه صرح بأن إطلاق الجزء على الكل مجاز، فقد قال فى أحد المواضع: الظِّلْفُ والظِّلْفُ ظفر كل ما اجتر، وهو ظلف البقرة والشاة والظبى وما أشبهها... وقد يطلق الظلف على ذات الظلف أنفسها مجازا ومنه حديث رقيقة تتابعت على قريش سنو جدب أقحلت الظلف، أى ذات الظلف »(٢).

فكلامه صريح فى أن الظلف، وهو من الشاة والبقرة والظبى ونحوها مثل الحافر من الفرس، والخف من البعير(٣) يطلق على الحيوان كله مجازا ولا يخفى أنه مجاز مرسل علاقته الجزئية؛ لأن الظلف جزء من هذه الحيوانات.

وقد ذكر صاحب لسان العرب هذا الكلام فى موضع آخر منسوبا إلى (عبدالمطلب) دون أن يصرح فيه بكلمة المجاز، ولكنه ذكر ما يفيد أنه من قبيل ذلك المجاز، فقد قال: « القاحل اليابس من الجلود.. وفى الحديث قحل الناس على عهد رسول الله – ﷺ – أى يبسوا من شدة القحط، وقد قحل يقحل قحلا إذا التزق جلده بعظمه من الهزال والبلى... ومنه حديث استسقاء عبد المطلب تتابعت على قريش سنو جدب قد أقحلت الظلف، أى أهزلت الماشية، وألصقت جلودها بعظامها، وأراد ذات الظلف »(٤) فقوله: (.... وأراد ذات الظلف) فيه إشارة واضحة إلى أن الإقحال ليس للظلف وحده بل إن الحيوان كله قد اعتراه الهزال، وأصابه الجفاف والضمور، وهذا يعتبر مجازا مرسلا علاقته الجزئية.

---

(١) الرسالة البيانية للصبان: ١٩٩. (٢) لسان العرب: ٤/ ٢٧٥١، ٢٧٥٢ (ظلف).
(٣) المصدر نفسه: ٤/ ٢٧٥١ (ظلف).
(٤) لسان العرب: ٥/ ٣٥٣٨ (قحل)، وينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٤/ ١٨.

ولم أجد أحدا من البلاغيين الذين قرأت كتبهم قد مثل لعلاقة الجزئية بإطلاق الظلف على الحيوان.

والمتأمل فى هذا المثال يجد أنه جزء من الحيوان غير ذى بال، ولا يستأهل أن يحفل به فى بادئ الرأى، ويطلق على الحيوان كله، وقد يؤيد هذا أن سعد الدين التفتازانى قد اشترط فى الجزء الذى يطلق على الكل أن يكون وثيق الصلة بالغرض الذى يتوخاه المتكلم من الكل، فقد قال: «لابد فى الجزء المطلق على الكل من أن يكون له مزيد اختصاص بالمعنى الذى قصد بالكل مثلا لا يجوز إطلاق اليد، أو الإصبع على الربيئة، وإن كان كل منهما جزءا منه»[١].

وواضح أن الظلف من الحيوان أقل قيمة فى جسم هذا الحيوان من اليد بالنسبة لجسم الإنسان؛ لأنه (ظفر كل ما اجتر) كما جاء فى اللسان، وقد نصت بعض الكتب البيانية على أن الظفر لا يصح أن يطلق على الإنسان لعلاقة الجزئية[٢].

فهل يكون قول صاحب لسان العرب (وقد يطلق الظلف على ذات الظلف أنفسها مجازا) - غير متلائم مع ما ذكره بعض البيانيين؟.

الذى يبدو لى أن كلام صاحب اللسان حق، وأن كلام بعض البيانيين إن صح فى إطلاق الظفر على الإنسان، فإنه لا يتأتى فى إطلاق الظلف على الحيوان كله، فإنه يظهر من سياق العبارة (تتابعت على قريش سنو جدب أقحلت الظلف) أن العرب كانت تميز بين أنواع الحيوانات بالعضو الذى تطأ به الأرض فى مشيها يدل على ذلك الحديث الذى أورده صاحب لسان العرب (لا سبق إلا فى خف أو نصل، أو حافر) وقد عقب عليه بقوله: «فالخف الإبل ههنا، والحافر الخيل، والنصل السهم الذى يرمى به»[٣].

ويبدو أن قائل عبارة (تتابعت على قريش...) كان يقصد منها الحيوانات التى يأكلون لحومها، ويشربون ألبانها فى أغلب أحوالهم، وهى البقر، والغنم، وما أشبهها هى التى تهمهم، وتعنيهم، ومن هنا كان للظلف فى نظرهم قيمة، لأنه يمثل هذه

(١) المطول: ٣٥٦ وينظر شروح التلخيص: ٤/٣٥، ٣٦.
(٢) ينظر الرسالة البيانية، للصبان، وحاشية الإنبابى عليها: ٢٠٠.
(٣) لسان العرب: ٢/١٢١٣ (خفف).

الحيوانات، ويميزها عما عداها من الحيوانات، فاستحق أن يطلق على الحيوان كله، وهذا يؤكد (أن الاعتبارات اللغوية تتبع أحوال المخلوقين وعاداتهم»[1].

ثانيتها: أنه كان أحيانا يذكر أمثلة من قبيل تلك العلاقة، ويذكر عقبها أن فيها تسمية للشيء ببعضه، فقد بين في أحد المواضع أن القرآن - أى القراءة - يطلق على الصلاة؛ لأن القراءة بعض منها فقال:

« ... وقرأت الكتابة قراءة وقرآنا[2] ومنه سمى القرآن، وأقرأه القرآن فهو مقرئ، وقال ابن الأثير تكرر في الحديث ذكر القراءة، والاقتراء، والقارئ، والقرآن، والأصل في هذه اللفظة الجمع، وكل شيء جمعته فقد قرأته، وسمى القرآن، لأنه جمع القصص، والأمر، والنهى، والوعد، الوعيد، والآيات والسور بعضها إلى بعض، وهو مصدر كالغفران، والكفران قال - أى ابن الأثير - وقد يطلق على الصلاة؛ لأن فيها قراءة تسمية للشيء ببعضه، وعلى القراءة نفسها.. »[3].

فقوله الذى باركه، وارتضاه، ونقله عن ابن الأثير إن القرآن - بمعنى القراءة - يطلق على الصلاة (لأن فيها تسمية للشيء ببعضه) يشير إشارة واضحة إلى مضمون علاقة الجزئية التى يطلق فيها اسم الجزء على الكل، ولم يذكر صاحب اللسان في هذا الموضع مثالا أطلق فيه القرآن على الصلاة، ولعله كان يلوح بما ذكره إلى ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ﴾ [الإسراء: ٧٨] فقد قال الزمخشرى « ... (وقرآن الفجر أى صلاة الفجر سميت قرآنا وهو القراءة؛ لأنها ركن... »[4].

وبهذا يتضح أن إطلاق (القرآن) على الصلاة مجاز مرسل علاقته الجزئية، أما إطلاقه على القراءة، فهو حقيقة؛ لأن حينئذ يكون مصدرا مرادفا للقراءة كما تبدى من الكلام الذى سلف ذكره، ويؤكد هذا المنحى، ويدعمه إطلاقه على القراءة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ [القيامة: ١٧][5] أى قراءته.

(١) أسرار البلاغة: ٣١٦.
(٢) واضح أن كلمة (قرآن) هنا مصدر مرادف للقراءة كما سيجىء بعد قليل.
(٣) لسان العرب: ٥/ ٣٥٦٣ (قرأ).
(٤) الكشاف: ٢/ ٣٧٢ وينظر البرهان في علوم القرآن، للزركشى: ٢/ ٢٦٦.
(٥) ينظر لسان العرب: ٥/ ٣٥٦٣ (قرأ).

وقد أفدنا مما أورده صاحب لسان العرب فى هذا الموضع أن القرآن الكريم سمى بهذا الاسم؛ لأنه مقروء، أو لأنه جمع القصص، والأوامر، والنواهى، والوعد والوعيد...[١].

ومن هذا القبيل الذى عقب فيه على بعض أمثلة هذه العلاقة بأن فيها تسمية للشيء ببعضه ما ذكره حول تسمية رسول الله ﷺ الصلاة ركوعا؛ لأن الركوع جزء منها فقد قال فى بعض المواضع:

« ... وجبى الرجل وضع يديه على ركبتيه فى الصلاة، أو على الأرض، وهو أيضًا انكبابه على وجهه... وفى الحديث أن وفد ثقيف اشترطوا على رسول الله - ﷺ - ألا[٢] يعشروا، ولا يحشروا، ولا يجبوا فقال النبى - ﷺ - ولا خير فى دين لا ركوع فيه »[٣].

ثم نقل عن ابن الأثير قوله: « ... والمراد بقولهم لا يجبون أنهم لا يصلون، ولفظ الحديث يدل على الركوع والسجود؛ لقوله فى جوابهم ولا خير فى دين ليس فيه ركوع، فسمى الصلاة ركوعا لأنه بعضها »[٤].

واضح أن تسمية الصلاة ركوعا مجاز مرسل علاقته الجزئية، وهذا مجاز قرآنى مشهور لا أجد حاجة إلى ذكر شواهد منه فى هذا الصدد.

وهنا أجد أن من المفيد الذى يقتضيه المقام أن أشير إلى معنى اشتراطهم (ألا يعشروا، ولا يحشروا) بعد أن أصبح واضحا لدينا أن معنى اشتراطهم (ألا يجبوا) أى لا يصلوا، وإن كان ذلك بعيدا عما نحن فيه من حديث المجاز، حتى لا يترك قارئ هذا العمل متطلعا إلى معرفته، والوقوف على فحواه، وقد أغنانى صاحب اللسان - رحمه الله- عن مئونة البحث فى مصادر أخرى، فقد بين فى مادة (حشر) أن معنى (لا يحشروا) أنهم لا يندبون إلى المغازى والجهاد[٥] وبين فى مادة (عشر) أن معنى (لا يعشروا) أى لا يؤخذ عشر أموالهم أى لا يدفعون الزكاة[٦] وقد يستغرب كل من

---

(١) ينظر المصدر نفسه والموضع.

(٢) فى لسان العرب طبعه دار المعارف (أن يعشروا) دون (لا) والصواب ما أثبته، ولعله خطأ مطبعى، وقد كتب صحيحا فى مادة (حشر) و(عشر).

(٣) لسان العرب: ١ / ٥٤٢ (جبى).

(٤) المصدر نفسه، والموضع.

(٥) لسان العرب: ٢ / ٨٨٣ (حشر).

(٦) المصدر نفسه: ٤ / ٢٩٥٣ (عشر).

يقرأ هذا الحديث، ويتساءل كيف يسمح رسول الله ﷺ لثقيف أن يتركوا الجهاد، وهو ذروة سنام الإسلام، وأن يسقط عنهم الزكاة؟.

والإجابة عن هذا التساؤل أنه ﷺ: «أراد أن يتألفهم، ويدرجهم شيئًا فشيئًا»[١] فإذا ما ذاقوا حلاوة الإيمان، امتثلوا إلى جميع أوامره.

وقد «سئل جابر – رضى الله عنه – عن اشتراط ثقيف ألا صدقة عليها ولا جهاد، فقال علم – أى رسول الله ﷺ – أنهم سيتصدقون، ويجاهدون إذا أسلموا، ولم يرخص لهم فى ترك الصلاة؛ لأن وقتها حاضر متكرر بخلاف وقت الزكاة والجهاد»[٢].

ثالثتها: ألا يصرح بلفظ المجاز، ولا يذكر أن ذلك من تسمية الكل باسم الجزء، ولكنه يصرح بنقل اللفظ من الجزء إلى الكل، وهذا بعينه هو المجاز المرسل بعلاقة الجزئية فقد قال فى أحد المواضع: «ربأ القوم يربؤهم ربأ، وربأ لهم، اطلع لهم على شرف... والربيئة الطليعة، وإنما أنثوه؛ لأن الطليعة يقال له العين؛ إذ بعينه ينظر، والعين مؤنثة، وإنما قيل له عين؛ لأنه يرعى أمورهم، ويحرسهم، وحكى سيبويه فى العين الذى هو الطليعة أنه يذكر ويؤنث، فمن أنث، فعلى الأصل، ومن ذكر، فعلى أنه قد نقل من الجزء إلى الكل»[٣].

فكون اللفظ قد (نقل من الجزء إلى الكل) صريح فى أنه مجاز لغوى، لم يبن على علاقة المشابهة، فيكون مجازا مرسلا علاقته الجزئية.

ونلحظ أن هذه الحكاية التى حكاها (سيبويه) تعتبر إشارة مبكرة جداً إلى المجاز المرسل بشكل عام، وإلى علاقة الجزئية بوجه خاص، ومعلوم أن (سيبويه) متوفى عام (١٨٠)هـ.

وقد زاد صاحب لسان العرب أمر الربيئة توضيحا فقال إثر كلامه السابق: «... وفى الحديث مثلى ومثلكم كرجل ذهب يربأ أهله[٤] أى يحفظهم من عدوهم،

---

(١) المصدر نفسه والموضع.
(٢) المصدر نفسه: ١/٥٤٢ (جبى).
(٣) لسان العرب: ٣/١٥٤٥ (ربأ).
(٤) ينظر صحيح مسلم بشرح النووى: ١/٤٨٤.

والاسم الربيئة، وهو العين، والطليعة الذى ينظر للقوم؛ لئلا يدهمهم عدو، ولا يكون إلا على جبل أو شرف ينظر منه»[١].

وقد أشار صاحب اللسان فى موضع آخر إلى أن العين الذى ينظر للقوم قد نقل من الجزء إلى الكل، وهذا هو الذى جعلهم يذكرونه فقال: «والعين الذى ينظر للقوم يذكر ويؤنث، سمى بذلك؛ لأنه إنما ينظر بعينه، وكأن نقله من الجزء إلى الكل هو الذى حملهم على تذكيره، وإلا فإن حكمه التأنيث، قال ابن سيده وقياس هذا عندى أن من حمله على الجزء فحكمه أن يؤنثه، ومن حمله على الكل فحكمه أن يذكره، وكلاهما قد حكاه سيبويه...»[٢].

وفيما ذكره هؤلاء اللغويون حول تذكير كلمة (العين) إذا أريد به الطليعة إشارة جلية إلى أثر المجاز فى الكلمة، فقد تغير من أجله حكم الكلمة من التأنيث إلى التذكير، فكأنها أفرغت من معناها الأصلى، وصبت فى قالب مجازى جديد، استدعى حكمًا جديداً.

ويمكن توضيح ذلك بمثال فيقال - مثلا - هذه عين باكية من خشية الله، بتأنيث (عين) الباصرة، لأنها جزء من الإنسان، فإذا ما نقلت (عين) إلى الربيئة والرقيب يقال سهر عين يقظان على حراستنا بتذكيرها، لأنها أطلقت على الرقيب كله.

وقد اتخذ البلاغيون من إطلاق العين على الرقيب منطلقا إلى بيان أهمية الجزء الذى يطلق على الكل، وأنه ينبغى أن يكون له مزيد اختصاص بالمعنى المراد، فقد قال الشيخ عبد القاهر الجرجانى بعد أن أشار إلى بعض علاقات المجاز المرسل وأمثلتها: «... فالعين لما كانت المقصودة فى كون الرجل ربيئة صارت كأنها الشخص كله؛ إذ كان لولا هداها لا يعى شيئًا مع فقدها»[٣].

وقد استلهم قول الشيخ، وسار على سننه من جاء بعده من البلاغيين، فقد قال السكاكى: «... ونحو أن يراد الرجل بالعين، إذا كان ربيئة من حيث إن العين لما كانت المقصودة فى كون الرجل ربيئة صارت كأنها الشخص كله»[٤].

---

(١) لسان العرب: ٣/١٥٤٥ (ربأ). (٢) لسان العرب: ٤/٣١٩٧ (عين).
(٣) أسرار البلاغة: ٣١٨. (٤) المفتاح: ١٧٣.

وقال سعد الدين التفتازاني: « . . . كالعين وهي الجارحة المخصوصة في الربيئة وهي الشخص الرقيب، والعين جزء منه، ويجب أن يكون الجزء الذى يطلق على الكل مما يكون له من بين الأجزاء مزيد اختصاص بالمعنى الذى قصد بالكل . . . »(١).

وفيما ذكرته من كلام بعض البلاغيين غنية، وكفاية في هذا المقام(٢).

بقيت هنا نقطة أود أن أشير إليها، وهي المصاحبة، والارتباط بين كلمات العين والربيئة، والطليعة في كلام صاحب لسان العرب، وبعض البلاغيين، فنجد صاحب اللسان يقرن بينها في قوله: « والاعتيان الارتياد، وبعثنا عينا أى طليعة يعتاننا ويعتان لنا أي يأتينا بالخبر . . . واعتان لنا فلان أى صار لنا عينا أى ربيئة . . »(٣).

فقد فسر كلمة (عين) مرة بالطليعة، ومرة بالربيئة، وقد سبق أن أوردت في صدر هذا الحديث عن استعمال العين مجازا في الرقيب قوله: « . . والربيئة الطليعة، وإنما أنثوه؛ لأن الطليعة يقال له العين . . . ».

وقد بحثت عن معنى كلمة (الطليعة) فوجدته يذكر في مادة (طلع) أنها تستعمل في الواحد والجمع الذين يستطلعون أخبار العدو، ويراقبون تحركاته فقد قال:

« والطليعة القوم يبعثون لمطالعة خبر العدو، والواحد والجمع فيه سواء، وطليعة الجيش الذى يطلع من الجيش يبعث ليطلع طلع العدو . . . وفي الحديث أنه بعث بين يديه طلائع هم القوم الذين يبعثون ليطلعوا طلع العدو كالجواسيس واحدهم طليعة »(٤).

ومن البلاغيين الذين جمعوا بين هذه الكلمات الثلاث العصام – رحمه الله – فقد صرح بأن العين تستعمل في الربيئة، والربيئة الطليعة . . .(٥).

ولعله بذلك الجمع يكون قد استدرك ما فات أمثال الشيخ عبد القاهر،

---

(١) المختصر: ٤/٣٥، ٣٦ شروح التلخيص.
(٢) وينظر بغية الإيضاح: ٣/٩٥، والأطول للعصام: ٢/١٢٠.
(٣) لسان العرب: ٤/٣١٩٧ (عين).
(٤) لسان العرب: ٤/٢٦٩٠ (طلع).
(٥) ينظر الأطول، للعصام: ٢/١٢٠.

والسكاكى والخطيب القزوينى الذين ذكروا فى هذا المجال أن العين استعملت فى الربيئة دون أن يكشفوا الغطاء عن معنى الربيئة[1].

وغنى عن البيان أن كلمتى الربيئة، والطليعة، قد أتى بهما فى الكلام السابق لتوضيح المراد بكلمة العين عندما تطلق مجازا على الشخص كله، وكلتاهما قد استعملت فى معناها الحقيقى.

رابعتها: أنه كان فى بعض الأحيان يشرح مضمون المجاز، ويوضح مفهومه دون أن يصرح بلفظ المجاز، أو الجزئية، أو شىء من هذا القبيل، فقد ذكر فى أحد المواضع أن التسبيح يأتى بمعنى الصلاة، وفى هذا إشارة إلى أنه أطلق على الصلاة؛ لأنه جزء منها « ... تقول قضيت سبحتى، وروى أن عمر رضى الله عنه جلد رجلين سبحا بعد العصر أى صليا قال الأعشى:

وسبح على حين العشيات والضحى ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا

يعنى الصلاة بالصباح والمساء، وعليه فسر قوله تعالى: ﴿ **فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ** ﴾ [الروم: ١٧] يأمرهم بالصلاة فى هذين الوقتين، وقال الفراء ﴿ **حِينَ تُمْسُونَ** ﴾ المغرب والعشاء ﴿ **وَحِينَ تُصْبِحُونَ** ﴾ صلاة الفجر ﴿ **وَعَشِيًّا** ﴾ العصر ﴿ **وَحِينَ تُظْهِرُونَ** ﴾ [الروم: ١٨][2] الأولى وقوله تعالى: ﴿ **وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ** ﴾ [آل عمران: ٤١] أى وصل، وقوله عز وجل: ﴿ **فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ** ﴾ [الصافات: ١٤٣] أراد من المصلين قبل ذلك... »[3].

وقد سبق أن المحت إلى أن إطلاق التسبيح على الصلاة من المجازات اللغوية التى عرفت منذ عهد مبكر، فقد أشار إليه أبو عبيدة فى كتابه (مجاز القرآن)[4].

---

(١) ينظر أسرار البلاغة: ٣١٨، والمفتاح: ١٧٣، وبغية الإيضاح: ٣/٩٥.

(٢) فى معانى القرآن، للفراء (وحين تظهرون) صلاة الظهر: ٢/٣٢٣ ولعل صاحب اللسان أو من أخذ عنه وجد فى إحدى نسخ معانى القرآن كلمة (الأولى) بدل صلاة الظهر بناء على ما هو مشهور من أن جبريل صلى بالرسول ﷺ صلاة الظهر قبل أى صلاة أخرى.

(٣) لسان العرب: ٣/١٩١٦ (سبح).

(٤) عند الكلام عن المجاز المرسل عند أبى عبيدة.

ومن هذا الضرب أيضًا ما نقله صاحب لسان العرب عن بعض اللغويين، ومضمونه إطلاق لفظ كلمة على كلمة التوحيد وهى مركبة من كلمات، وهذا يعنى أنها مجاز مرسل علاقته الجزئية فقد قال: « ... وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ [الزخرف: ٢٨] قال الزجاج عنى بالكلمة هنا كلمة التوحيد لا إله إلا الله، جعلها باقية فى عقب إبراهيم لا يزال من ولده من يوحد الله عز وجل»(١).

وواضح أن إبراهيم عليه السلام لم يقل لا إله إلا الله صراحة كما قال الزجاج، وإنما قال: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٦].

وهذا القول يعدل لا إله إلا الله، وقد صرح بذلك الإمام فخر الدين الرازى - رحمه الله - حين قال فى تفسير الآية: « ... ﴿وَجَعَلَهَا﴾ أى وجعل إبراهيم كلمة التوحيد التى تكلم بها وهى قوله ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ جاريا مجرى (لا إله) وقوله ﴿إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ جاريا مجرى قوله (إلا الله) فكان مجموع قوله: (إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى جاريا مجرى قوله (لا إله إلا الله)(٢).

وسواء قلنا إن لفظ (كلمة) أطلق على كلمة التوحيد لا إله إلا الله، أو على قوله ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ الذى يعدلها، فإنه مجاز مرسل علاقته الجزئية، لأن فيه تسمية الكل باسم الجزء.

وإطلاق الكلمة على الكلمات مجاز قرآنى مشهور، فقد سمى الله قول الكفار ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف: ٤] كلمة فى قوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥] وهو كلمات، وسمى هذا الكلام كلمة كما تسمى القصيدة كلمة(٣).

وجعل سبحانه وتعالى - قوله ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢، ١٧٣] كلمة فى قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٧١] وهو كلمات عديدة.

---

(١) لسان العرب: ٥/٣٩٢٢ (كلم). (٢) التفسير الكبير: ١٤ ١/٢٠٩.
(٣) التفسير الكبير ١١ ١/٧٩.

ومن هذا الصنف كذلك ما نقله صاحب لسان العرب عن الزجاج أيضًا في تفسير (وجهه) من قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص: ٨٨] فقد قال: « ... قال الزجاج أراد إلا إياه »[١] أي إلا ذاته، كما ذكر في صدر الكلام عن هذه العلاقة، فيكون إطلاق الوجه على ذاته تعالى مجازا مرسلا علاقته الجزئية.

* * *

---

(١) لسان العرب: ٦ / ٤٧٧٥ (وجه).
وينظر معاني القرآن، للفراء: ٢ / ٣١٤.

المحليـــة

هي كون الشيء محلاً لآخر نحو جرى الميزاب أى الماء (١).

وقد تناول صاحب لسان العرب هذه العلاقة على عدة وجوه **أحدها**: أن يصرح بأن إطلاق المحل على الحال اتساع، فقد قال فى أحد المواضع «..... والغوط والغائط المتسع من الأرض مع طمأنينة... الغوط عمق الأرض الأبعد، ومنه قيل للمطمئن من الأرض غائط، ولموضع قضاء الحاجة غائط؛ لأن العادة أن يقضى فى المنخفض من الأرض حيث هو أستر له، ثم اتسع فيه حتى صار يطلق على «النجو نفسه، والغائط العذرة نفسها؛ لأنهم كانوا يلقونها بالغيطان»(٢) فالغائط فى الأصل موضع منخفض من الأرض، وقد يخرج عن معناه على سبيل المجاز ويطلق على ما يخرج من البطن؛ لأنهم كانوا يلقونه بالغيطان من إطلاق المحل على الحال، فالعلاقة فى هذا المجاز المحلية، والنجو ما يخرج من البطن أيضاً، ومنه قولهم استنجى فلان أى مسح موضع النجو أو غسله، ويقال أنجى أى أحدث(٣).

ثانيها: أن يذكر أن الشيء يسمى باسم موضعه أى محله، فقد قال فى أحد المواضع: «... والجبان والجبانة بالتشديد الصحراء، وتسمى بها المقابر؛ لأنها تكون فى الصحراء، تسمية للشيء بموضعه»(٤).

فقد أطلق اسم الجبانة، وهى الصحراء على المقابر، فسميت المقابر جبانة، لأنها تكون بالصحراء من إطلاق اسم المحل على الحال فيه، فقوله: (تسمية للشيء بموضعه) واضح الدلالة على أنه يعنى علاقة المحلية، لأن اسم الموضع أطلق على الموضوع فيه، أو بعبارة أخرى أطلق اسم المحل على الحال فيه.

ثالثها: أن يفهم من شرحه وبيانه أنه يقصد علاقة المحلية، فقد قال فى أحد المواضع: «فضضت الشيء أفضه فضاً فهو مفضوض وفضيض كسرته ومزقته... وفى الدعاء لا يفضض الله فاك أي لا يكسر أسنانك، والفم ههنا الأسنان كما يقال سقط

---

(١) الرسالة البيانية، للصبان: ٢٤٠.
(٢) لسان العرب: ٥/٣٣١٦ (غوط).
(٣) ينظر المصدر نفسه: ٦/٤٣٦٠ (نجا).
(٤) المصدر نفسه: ١/٥٤٠ (جبن).

فوه يعنون الأسنان . . . أو تقديره لا يكسر الله أسنان فيك فحذف المضاف يقال فضه إذا كسره، ومنه حديث النابغة الجعدى لما أنشده القصيدة الرائية قال لا يفضض الله فاك[1] قال - أى الجوهرى - فعاش مائة وعشرين سنة لم تسقط له سن»[2].

فعلى القول الأول الذى لا يقدر فيه مضاف محذوف يكون الفم قد أطلق على الأسنان؛ لأنه محلها، فتكون العلاقة المحلية.

وقصيدة النابغة الجعدى التى يلوح إليها صاحب لسان العرب، هى التى جاء فيها:

ولا خير فى حلم إذا لم يكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

ولا خير فى جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا[3]

ومن هذا القبيل الذى يفهم من شرحه أنه يقصد علاقة المحلية ما ذكره فى أحد المواضع من أن العذرة تطلق على الغائط الذى يخرجه الإنسان، والعذرة فى الأصل فناء الدار فقال:

«والعاذر والعذرة الغائط الذى هو السلح وفى حديث ابن عمر أنه كره السلت الذى يزرع بالعذرة يريد الغائط الذى يلقيه الإنسان، والعذرة فناء الدار وفى حديث على أنه عاتب قوماً فقال: مالكم لا تنظفون عذراتكم أى أفنيتكم . . .»[4].

فكلامه يشير إلى أن العذرة فى الأصل فناء الدار ثم أطلقت على الغائط الذى هو السلح، والنجو إطلاقاً للمحل على الحال، ولذلك قال عقب كلامه السابق:

«وفى الحديث إن الله نظيف يحب النظافة فنظفوا عذراتكم ولا تشبهوا باليهود[5] . . . قال أبو عبيد وإنما سميت عذرات الناس بهذا لأنها كانت تلقى بالأفنية، وقال الحطيئة يهجو قومه ويذكر الأفنية:

لعمرى لقد جربتكم فوجدتكم قباح الوجوه سيىء العذرات»[6]

---

(١) الحديث فى كتاب النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٣/٤٥٣.

(٢) لسان العرب: ٤/٣٤٢٦، ٣٤٢٧.

(٣) ينظر شعر النابغة الجعدى/ ٦٩ منشورات المكتب الإسلامى بدمشق ط أولى ١٩٦٤م.

(٤) لسان العرب: ٤/٢٨٦٠ وينظر كتاب النهاية.. لابن الأثير: ٣/١٩٩.

(٥) الحديث فى كتاب النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٣/١٩٩.

(٦) لسان العرب: ٤/٢٨٦٠ (عذر).

الحاليـــة

الحالية كون الشيء حالاً فى غيره كقوله تعالى: ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٠٧] يعنى الجنة التى تحل فيها الرحمة...(١).

وقد تناول صاحب لسان العرب هذه العلاقة فى مواضع من لسانه، ولم أعثر - قدر جهدى - على موضع ذكر فيه أن إطلاق الحال على المحل مجاز، ولكنه صرح فى أحد هذه المواضع بأنه اتساع، وعلى ذلك فإن تناوله لهذه العلاقة جاء على وجهين:

أحدهما: أنه أشار إلى أن إطلاق الحال على المحل اتساع، فقد أورد ما جاء فى حديث جابر «عقلت الجمل فى ناحية البلاط»(٢) ثم عقب عليه بقوله: «البلاط ضرب من الحجارة تفرش به الأرض ثم سمى المكان بلاطًا اتساعًا وهو موضع معروف بالمدينة تكرر ذكره فى الحديث»(٣).

ويبدو أن هذا المكان كله قد سمى بلاطًا تسمية له باسم الحال فيه، لأن البلاط حال فى هذا المكان، وبناء على ذلك تكون العلاقة فى هذا المجاز هى الحالية، ونلمح فى كلام لسان العرب فى هذا الموضع أن ما يتردد على ألسنة الناس من مثل قولهم بلطت البيت، أو الدار أسلوب عربى فصيح، ويؤيد ذلك قول الزمخشرى أيضًا بلط داره إذا فرشها بصخر أو آجر، وما أحسن بلاط صحنك(٤).

وفى لسان العرب دار مبلطة بآجر أو حجارة، ويقال بلطت الدار فهى مبلوطة إذا فرشتها بآجر أو حجارة(٥).

ثانيهما: أنه قد يشير إلى أن الشيء يسمّى باسم الحال فيه، وذلك يعنى أنه

---

(١) ينظر الرسالة البيانية، للصبان: ٢٣٦ - ٢٣٨.

(٢) الحديث فى كتاب غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ١/١٥٢ وينظر الحديث فى فتح البارى: ٥/١٤٠.

(٣) لسان العرب: ١/٣٤٤ وقد جاء فى (فتح البارى....) أن (البلاط) موضع قرب مسجد المدينة. جزء المقدمة: ٩٤.

(٤) أساس البلاغة (بلط).

(٥) لسان العرب: ١/٣٤٤ (بلط).

يقصد علاقة الحالية، فقد قال فى أحد المواضع: «... والْخَدَمَةُ السير الغليظ المحكم مثل الحلقة يشد فى رسغ البعير... والخدمة الخلخال، وهو من ذلك؛ لأنه ربما كان من سيور يركب فيها الذهب والفضة، والجمع خدام، وقد تسمى الساق خدمة حملاً على الخلخال؛ لكونها موضعه، والجمع خدم وخدام قال:

كيف نومى على الفراش ولما تشمل الشأم غارة شعواء[1]

تذهل الشيخ عن بنيه وتبدى عن خدام العقيلة العذراء

أراد وتبدى عن خدام العقيلة، وخدام ههنا فى نية عن خدامها.. وفى حديث سلمان أنه كان على حمار وعليه سراويل وخدمتاه تذبذبان[2] أراد بخدمتيه ساقيه؛ لأنهما موضع الخدمتين، وهما الخلخالان»[3].

واضح من كلام لسان العرب الذى سلف ذكره أن الساق سميت خدمة؛ لأنها موضع الخدمة أى الخلخال، وقد مثل لذلك الاستعمال بما جاء فى حديث سلمان (وخدمتاه تذبذبان) أى ساقاه، وقول الشاعر (وتبدى عن خدام العقيلة) فيكون المقصود من (خدام العقيلة) فى البيت ساقيها، فالغارة تذهل الشيخ عن بنيه، وتجعل العذراء الكريمة تفر منها مشمرة عن ساقيها، إمعانًا فى الهرب، واستسلامًا للفرار، ولكنى وجدت صاحب (مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف) ذهب إلى عكس ذلك، ففسر (خدام العقيلة) فى البيت بالخلخال عندما قال: «وإذهال الشيخ عن بنيه كناية عن اشتدادها - أى الغارة - وكذلك كشفها عن خدام العقيلة والخدام الخلخال»[4].

وإذا كان كشف الغارة عن خدام العقيلة كناية عن شدتها - كما قال - فإن الذى يتسق مع هذه الشدة، ويتلاءم معها أن يكون المراد بها ساقيها كما ذكر فى لسان العرب، والذهاب إلى أنها الخلخال يضعف - كما يبدو لى - المعنى الذى تتوخاه هذه

---

(١) غارة شعواء أى منتشرة، ينظر لسان العرب: ٤/٢٢٨٢ (شعا).

(٢) الحديث فى كتاب النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٢/١٥.

(٣) لسان العرب: ٢/١١١٥ (خدم).

(٤) مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف، للشيخ محمد عليان المرزوقى: ٧ فى نهاية الجزء الرابع من الكشاف. ط دار المعرفة - بيروت.

الكناية؛؛ لأن الخلخال عادة يكون أسفل الساق فلا ينبىء كشفه عن قوة الغارة، وشدتها.

وإطلاق الخدمة – أى الخلخال – على الساق؛ لأنها موضعه، أو لأنه حال بها من الأمثلة التى لم تعهدها كتب البلاغة المألوفة، أو تسطرها أقلام البلاغيين المشهورين فى علاقة الحالية، ولعلها تحتسب من الإضافات البلاغية التى أضافها هذا العمل المتواضع الماثل بين أيدينا.

ومن هذا النوع ما ذكره فى مادة (ثأر) فقد قال: « ويقال ثأرت القتيل وبالقتيل... أى قتلت قاتله... وأثار فلان من فلان إذا أدرك ثأره، وكذلك إذا قتل قاتل وليه... وفى حديث عبد الرحمن يوم الشورى لا تغمدوا سيوفكم عن أعدائكم فتوتروا ثأركم[1] الثأر هنا العدو؛ لأنه موضع الثأر أراد أنكم تمكنون عدوكم من أخذ وتره عندكم يقال وترته إذا أصبته بوتر وأوترته إذا أوجدته وتره ومكنته منه »[2].

فقوله (الثأر ههنا العدو، لأنه موضع الثأر) صريح فى أنه أطلق الثأر على العدو؛ لأنه محل له، وسمى العدو ثأراً؛ لأن الثأر حال فيه، ونلحظ مما ذكر من أمثلة هذه العلاقة أن الحال قد يكون اسم ذات مثل البلاط، والخدمة، وقد يكون معنى من المعانى مثل الثأر، ومثل الرحمة كما فى قوله تعالى: ﴿ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٧] أى جنته وقد لمس هذا المعنى العلامة الصبان عندما ذكر أن المراد بالحلول فى هذه العلاقة ما يشمل حلول المتمكن فى المكان، وحلول الأعراض فى موضوعاتها[3] ومن حلول الأعراض فى موضوعاتها، ما جاء فى قوله تعالى: ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف: ٣١] فإن المراد بالزينة فى الآية اللباس، لأن الزينة حالة فيه، وقائمة به[4].

* * *

(١) الحديث فى كتاب النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ١/ ٢٠٥.

(٢) لسان العرب: ١/ ٤٦٦. (ثأر).

(٣) ينظر الرسالة البيانية، للصبان: ٢٣٩.

(٤) ينظر حاشية الإنبابى على الرسالة البيانية: ٢٣٩.

الفصل الثالث

المجاز عن المجاز



الفصل الثالث

المجاز عن المجاز

عهدنا بالمجاز أنه «كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له فى وضع واضعها لملاحظة بين الثانى والأول»(١).

فالكلمة المستعملة فيما وضعت له حقيقة، فإذا نقلت عن هذا المعنى إلى معنى آخر له صلة بالأول، كانت مجازًا، فمثلاً كلمة (رحمة) فى قولنا رحمة الله تتنزل على عباده ليل نهار حقيقة؛ لأنها استعملت فيما وضعت له، لكنها فى قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ... ﴾ [الجاثية: ٣٠] مجاز عن الجنة؛ لأن دخول الناس الجنة يكون برحمة الله(٢) وواضح أن القرينة ﴿ فَيُدْخِلُهُمْ... ﴾ لأن الدخول لا يكون إلا فى مكان والرحمة معنى من المعانى لا يتأتى الدخول فيها.

وقد يكون المجاز ليس متفرعًا عن الحقيقة مباشرة، ولكنه متفرع عن مجاز آخر نزل منزلة الحقيقة بالنسبة للمجاز الذى تفرع عنه، وقد مثل له عز الدين بن عبد السلام بقوله تعالى: ﴿ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ [البقرة: ٢٣٥] فقال: «.... إنه مجاز عن مجاز فإن الوطء يتجوز عنه بالسر، لأنه لا يقع غالبًا إلا فى السر، فلما لازم السر فى الغالب سمى سرًا، ويتجوز بالسر عن العقد، لأنه سبب، فيه، فالمصحح للمجاز الأول الملازمة، والمصحح، للمجاز الثانى التعبير باسم المسبب الذى هو السّر عن العقد الذى هو سبب،كما سمى عقد النكاح نكاحًا؛ لكونه سببا فى النكاح وكذلك سمى العقد سرًا لأنه سبب فى السر الذى هو النكاح فهذا مجاز عن مجاز مع اختلاف المصحح فمعنى قوله ﴿ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ [البقرة: ٢٣٥] لا تواعدوهن عقد نكاح»(٣).

---

(١) أسرار البلاغة: ٢٨١.

(٢) ينظر تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة: ١٤٥.

(٣) الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز: ١٤٥، ١٤٦.

وقد نقل كلام العز بن عبد السلام حول هذا المجاز الإمام الزركشي، وزاد عليه ما حكاه عن بعضهم من أن هذا المجاز يسمى مجاز المراتب، وجعل منه قوله تعالى ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً ﴾ [الأعراف: ٢٦] فإن المنزل عليهم ليس هو نفس اللباس، بل الماء المنبت للزرع المتخذ منه الغزل المنسوج منه اللباس»[١].

والذى دعانى إلى أن أعرج على هذا النوع من المجاز أننى وجدت صاحب لسان العرب يذكر أمثلة يمكن أن تعد من هذا المجاز، وإن كان لم يشر إلى أنها مجاز فضلاً عن كونها مجازاً عن مجاز، لكن سياق كلامه ينبىء أنها من قبيله، وصميمه، فقد ذكر أن السماء المطر، يقال مازلنا نطأ السماء أى المطر قال معاوية بن مالك:

إذا سقط السماء بأرض قوم　　رعيناه وإن كانوا غضاباً[٢]

ثم قال: «ويسمى العشب أيضًا سماء لأنه يكون عن السماء الذى هو المطر، كما سموا النبات ندى؛ لأنه يكون عن الندى الذى هو المطر، ويسمى الشحم ندى؛ لأنه يكون عن النبات قال الشاعر:

فلما رأى أن السماء سماؤهم　　أتى خطة كان الخضوع نكيرها

أى رأى أن العشب عشبهم، فخضع لهم ليرعى إبله فيه»[٣] فالسماء أطلقت على المطر لعلاقة المجاورة، ثم أطلق السماء بمعنى المطر على النبات لأنه سبب إنباته وكذلك الندى الذى هو المطر أطلق على النبات لأنه سبب إنباته، ثم أطلق الندى بمعنى النبات على الشحم، لأنه سبب تكونه فى جسم الحيوان.

وقد زاد أمر هذا (الندى) إيضاحًا فى موضع آخر، فحكى عن بعض اللغويين أن «الندى المطر والبلل، وقيل للنبت ندى؛ لأنه عن ندى المطر نبت، ثم قيل للشحم ندى لأنه عن ندى النبت يكون، واحتج بقول عمرو بن أحمر:

كثور العداب الفرد يضربه الندى　　تعلى الندى فى متنه وتحدراً[٤]

أراد بالندى الأول الغيث والمطر، وبالندى الثانى الشحم، وشاهد الندى اسم النبات قول الشاعر:

---

(١) البرهان فى علوم القرآن: ٢/٢٩٨، ٢٩٩.

(٢) ينظر لسان العرب: ٣: ٢١٠٨ (سما).　　(٣) المصدر نفسه والموضع.

(٤) العداب: أرض أنبتت أول نبت ثم أيسرت. ينظر لسان العرب: ٤/٢٨٣٢ (عدب).

يلس الندى حتى كأن سراته غطاها دهان أو ديابيج تاجر[1]

فالندى بمعنى المطر حقيقة، وإطلاقه على النبات مجاز مرسل من إطلاق السبب على المسبب، وإطلاق الندى بمعنى النبات على الشحم مجاز مرسل أيضًا من إطلاق السبب على المسبب كذلك.

ويبدو أن ندرة أمثلة هذا الصنف من المجاز جعلت البلاغيين لا يحفلون به كثيرًا، ولا يهتمون بدراسته.

وهنا يعن أمامنا هذا التساؤل هل يمكن أن يسقط من الكلام المجاز الذى يعتبر واسطة، ويبقى الكلام على مجازيته؟

الذى يبدو من كلام بعض كبار البلاغيين أن هذا أمر ممكن، فقد ذكر السكاكى - كما سبق فى قول القائل:

..... يأكلن كل ليلة إكافا

أن هناك تعلقًا بين (إكاف) و(علف) «أى علفًا بثمن إكاف للتعلق بين ذلك العلف وبين الإكاف»[2].

فنجد أنه ترك الثمن، الذى يعتبر واسطة بين العلف والإكاف، وجعله مطويًا منسيًا، ويظهر ذلك أيضًا فى كلمة (رزق) من قوله تعالى: ﴿ **وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا** ﴾ [غافر: ١٣] فإنهم ذكروا - كما سبق - أن ﴿ **رِزْقًا** ﴾ يراد به المطر؛ لأن الرزق مسبب عن المطر.

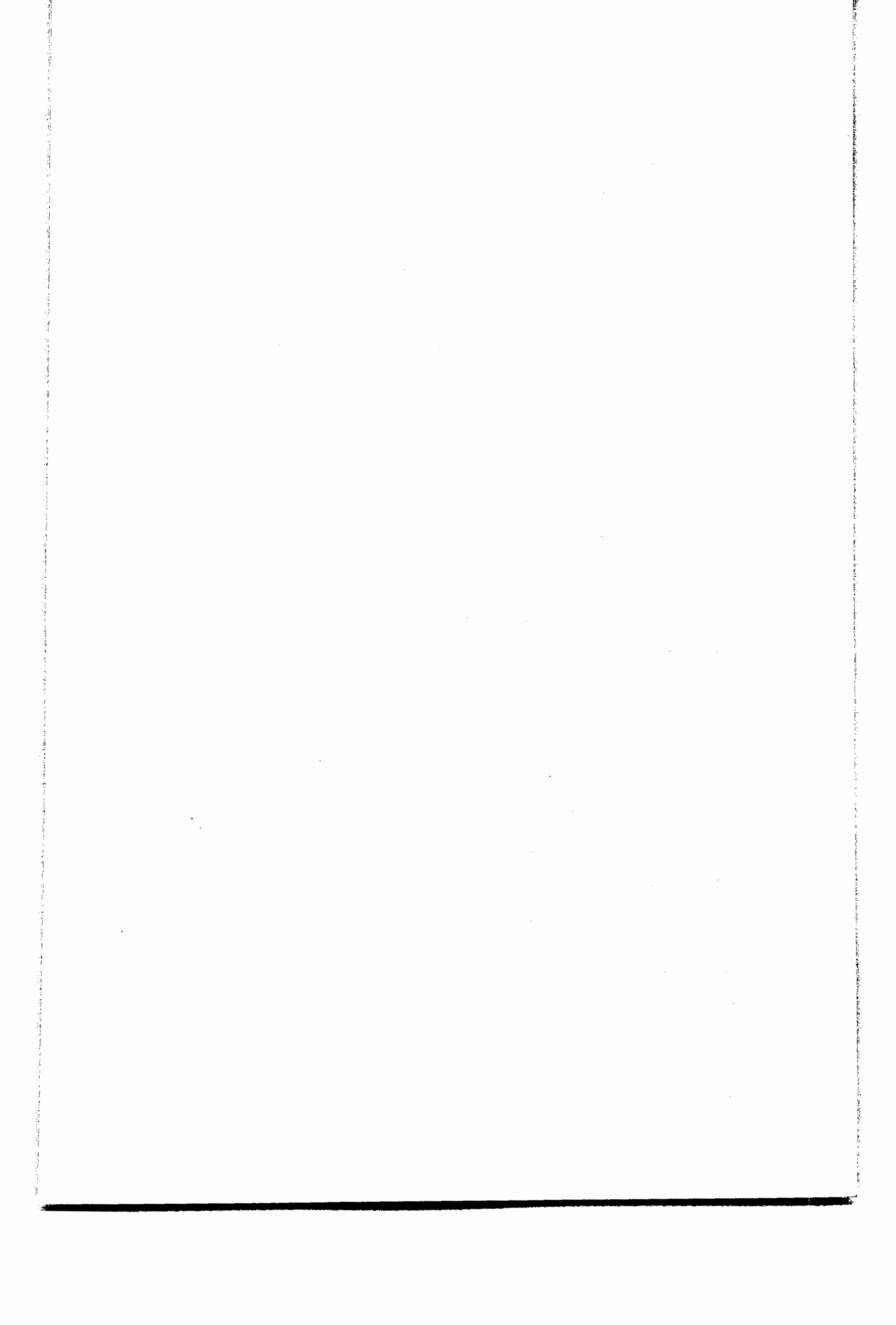
فنراهم جعلوا التعلق بين الرزق والمطر، وأهملوا أو تناسوا الواسطة بينهما، فإن كونه رزقًا ينتفع به لا يتأتى إلا بعد زراعة الأرض، ثم حصاد ما أنتجته، والانتفاع به.

ومثل ذلك ما جاء فى حديث (لو كان ثوبك فى تنور أهلك) الذى سلف ذكره، فقد نظروا إلى التعلق بين (ثوبك) والخبز، أو الحطب الذى يوضع فى التنور، وطووا الثمن الذى يشترى به والدقيق، أو الحطب الذى يشترى بثمن ذلك الثوب.

---

(١) لسان العرب: ٦/ ٤٣٨٧ (ندى)، ومعنى تلس الدابة النبات تأخذه بجحفلتها. أساس البلاغة (لسس).

(٢) المفتاح: ١٧٣.



الفصل الرابع

بين المجاز المرسل والاستعارة
فى لسان العرب

الفصل الرابع

بين المجاز المرسل والاستعارة في لسان العرب

من المعلوم أن كلا من المجاز المرسل والاستعارة مجاز لغوى، والتفرقة بينهما باعتبار العلاقة، فإذا كانت العلاقة المشابهة، كان هذا المجاز استعارة، وإذا كانت العلاقة غير المشابهة، كان مجازاً مرسلاً، فالعلاقة هى الفيصل بين المجاز المرسل والاستعارة، ويمكن أن ينظر إلى اللفظ الواحد باعتبارين مختلفين، فيعد من الاستعارة إذا اعتبرت العلاقة المشابهة، ويعد من المجاز المرسل إذا اعتبرت علاقة أخرى غير المشابهة، قال سعد الدين التفتازانى: « .... فإذا أطلق نحو المشفر على شفة الإنسان، فإن أريد تشبيهها بمشفر الإبل فى الغلظ، فهو استعارة وإن أريد أنه إطلاق المقيد على المطلق كإطلاق المرسن على الأنف من غير قصد إلى التشبيه، فمجاز مرسل، فاللفظ الواحد بالنسبة إلى المعنى الواحد يجوز أن يكون استعارة، وأن يكون مجازاً مرسلاً باعتبارين »(١).

من أجل ذلك وجدت الإمام فخر الدين الرازى قد وجه فى اللفظ الواحد استعارة، ومجازاً مرسلاً باعتبار قصد العلاقة وملاحظتها فيهما، فقد بين أن لفظ (الكلمة) يطلق مجازاً على الكلام الكثير، إما من إطلاق الجزء على الكل، وإما على تشبيه ارتباط الكلام، وتماسكه بارتباط حروف الكلمة الواحدة بعضها ببعض يقول فى هذا الشأن: «إن إطلاق لفظ الكلمة على المركب مجاز، وذلك لوجهين: **الأول**: أن المركب إنما يتركب من المفردات، فإطلاق لفظ الكلمة على الكلام يكون إطلاقًا لاسم الجزء على الكل **والثانى**: أن الكلام الكثير إذا ارتبط بعضه ببعض، حصلت له وحدة، فصار شبيهًا بالمفرد فى تلك الوجوه، والمشابهة سبب من أسباب حسن المجاز، فأطلق لفظ الكلمة على الكلام الطويل لهذا السبب»(٢).

وهذا صريح فى أن الكلمة الواحدة يمكن إجراء استعارة فيها إذا قصدت علاقة

---

(١) المطول: ٣٥٧.

(٢) التفسير الكبير : ١/ ٢٣ وينظر المباحث البيانية فى تفسير الفخر الرازى: ٢٤٥ .

المشابهة بين المعنى الحقيقى، والمعنى المجازى، ويمكن أن تكون مجازاً مرسلاً إذا قصد فيها علاقة الملابسة، والارتباط بين المعنى الحقيقى والمعنى المجازى لأى سبب من الأسباب التى أشار إليها البلاغيون «فمدار الفرق بين المجاز المرسل والاستعارة على العلاقة الملحوظة»[1].

وقد ظفرت ببعض كلمات فى لسان العرب ذكر صاحبه فى بعض المواضع ما يفيد أنها مجاز مرسل، ثم صرح فى موضع آخر من لسانه بأنها استعارة، من هذه الكلمات كلمة (الأملوج) أى الغصن الناعم[2] فقد ذكر فى أحد المواضع أنها أطلقت على السمن الذى ظهر على بكارة الإبل التى تقتات هذا الغصن، وترعاه؛ لأنه سبب هذا السمن، فقال «... البكر بالفتح الفتى من الإبل بمنزلة الغلام من الناس والأنثى بكرة... وفى حديث طهفة وسقط الأملوج من البكارة[3] بالكسر جمع البكر بالفتح يريد أن السمن الذى علا بكارة الإبل بما رعت من هذا الشجر قد سقط عنها، فسماه باسم المرعى؛ إذ كان سبباً له»[4].

فكلامه فى هذا الموضع صريح فى أن إطلاق (الأملوج) الذى ترعاه بكارة الإبل على السمن الذى كساها، وبدا على أجسامها من إطلاق السبب على المسبب، أى أنه مجاز مرسل علاقته السببية، وذلك ظاهر من قوله (فسماه - أى السمن - باسم المرعى؛ إذ كان سبباً له).

ولكنه ذكر فى موضع آخر أن (الأملوج) مستعار للسمن، فقال: «.... ومنه حديث طهفة أن رسول الله ﷺ دخل عليه قوم يشكون القحط، وفى نسخة وفد من اليمن، فقال قائلهم: سقط الأملوج، ومات العسلوج[5]... والأملوح الغصن الناعم.. وفى رواية سقط الأملوج من البكارة هو جمع بكر، وهو الفتى السمين من الإبل، أى سقط عنها ما علاها من السمن برعى الأملوج، فسمى السمن نفسه أملوجا على سبيل الاستعارة، قال ابن الأثير قاله الزمخشرى»[6].

---

(١) حاشية الإنبابى على الرسالة البيانية، للصبان: ١١١.

(٢) لسان العرب: ٦/٤٢٥٤ (ملج).

(٣) الحديث فى كتاب النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ١/١٤٩.

(٤) لسان العرب: ١/٣٣٤ (بكر).

(٥) العسلوج ما لان واخضر من قضبان الشجر، ينظر المعجم الوجيز مادة (عسل).

(٦) لسان العرب: ٦/ ٤٢٥٤ (ملج)، وينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٤/ ٣٥٣.

ونلحظ أن صاحب اللسان قد حرص على أن يضيف القول باستعارة الأملوج للسمن إلى الزمخشرى اتباعًا لابن الأثير[١].

مع أن المتأمل فى كلام اللسان الذى أوردته آنفًا يجد أن المناسب أن تكون كلمة (الأملوج) مجازاً مرسلاً، وليست استعارة، والكلمات التى سيقت فى هذا الصدد خير شاهد على ذلك، فالسمن الذى علا بكارة الإبل، وجلل أجسامها، إنما كان (برعى الأملوج) وغنى عن البيان أن الباء فى قوله (برعى...) للسببية، وفى ذلك ترشيح، وتدعيم لكون (الأملوج) مجازاً مرسلاً، وليس استعارة.

ولا يمكن - كما يبدو - تمحل شبه بين (الأملوج) والسمن؛ لأن السمن غطى جميع أجسامها، فلا يتأتى تشبيهه بالأملوج أعنى الغصن الناعم ولعل هذا هو السبب الذى جعل ابن الأثير، وصاحب لسان العرب يحرصان على نسبة القول باستعارة (الأملوج) للسمن إلى الزمخشرى - رحمه الله - ليضفيا عليها هالة من القوة والثبات؛ لأن الرجل ذائع الصيت، جهير الصوت، رفيع المنزلة فى علم البيان.

وقد أغرمت بإنعام النظر فى هذه المسألة، وشغفت بتحرير القول فيه، فتتبعت كلام كل من ابن الأثير، والزمخشرى تجاهها، فوجدت ابن الأثير يقول فيها: «.... وفى رواية سقط الأملوج من البكارة هى جمع بكر، وهو الفتى السمين من الابل أي سقط عنها ما علاها من السمن برعى الأملوج، فسمى السمن نفسه أملوجًا على سبيل الاستعارة قاله الزمخشرى»[٢] وهذه الكلمات التى جاءت فى كتاب ابن الأثير هى بقضها وقضيضها كلمات صاحب اللسان التى سبق ذكرها، ومعلوم أن كتاب ابن الأثير أصل من الأصول التى يأخذ عنها صاحب اللسان.

ووجدت الزمخشرى يقول فيها[٣] «... وروى وسقط الأملوج من البكارة أي هزلت البكارة فسقط عنها ما علاها من السمن برعى الأملوج، فسمى السمن نفسه أملوجًا على سبيل الاستعارة كقوله يصف غيثًا:

---

(١) ينظر المصدر نفسه والموضع. (٢) نفسه: ٤/٣٥٣.

(٣) أرشدنى إلى مكان كلام الزمخشرى حول هذه الاستعارة محقق كتاب النهاية.. لابن الأثير، وإن كنت لم أعثر عليه فى الموضع الذى أشار إليه، لاختلاف طبعات الكتاب، وسيأتى ذكره عقب هذا الموضع مباشرة.

أقبل فى المستن من ربابه　　أسنمة الآبال فى سحابه[1]

فجعل استعارة (الأملوج) للسمن مناظرة، ومشاكلة للمجاز فى قول الشاعر (أسنمة الآبال فى سحابه) ومعلوم أن المجاز فى قول هذا الشاعر من قبيل المجاز المرسل؛ لأن (أسنمة الآبال . .) مسببة عن الماء الذى ينزل من السحاب، فهو مجاز مرسل علاقته المسببية[2] وإذا كان الممثل به مجازاً مرسلاً، فإن الممثل أيضًا يكون كذلك، وبعبارة أخرى إذا كان المجاز فى (أسنمة الآبال) مرسلاً، فإن إطلاق (الأملوج) على السمن يكون مرسلاً كذلك.

وقد أغنانا عن هذا القياس، وتلك المناظرة العلامة جار الله الزمخشرى نفسه، فصرح فى أحد المواضع من الكشاف بأن المجاز فى قول الشاعر (أسنمة الآبال . . .) من إطلاق المسبب على السبب، فذكر عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا . . .** ﴾ [الأحزاب: ٤٩] أن النكاح فى الآية - يقصد فى نكحتم - بمعنى العقد؛ لأن النكاح مسبب عن العقد، وشبه ذلك بقول الشاعر المتقدم، وتسمية الخمر إثما[3] فقال: « . . . . . وتسمية العقد نكاحًا لملابسته له من حيث إنه طريق إليه، ونظيره تسميتهم الخمر إثمًا؛ لأنها سبب فى اقتراف الإثم، ونحوه فى علم البيان قول الراجز (أسنمة الآبال فى سحابه) سمى الماء بأسنمة الآبال؛ لأنه سبب سمن المال، وارتفاع أسنمته . . . »[4].

وفى هذا دليل واضح على أن مصطلح الاستعارة الذى ذكره فى قوله الذى سبق إيراده (. . . فسمى السمن نفسه أملوجًا على سبيل الاستعارة . . .) أريد به المجاز المرسل تحقيقًا لمعنى المناظرة، والمماثلة بين المجازين إطلاق (الأملوج) على السمن

---

(١) الفائق فى غريب الحديث، للزمخشرى: ٢/ ٢٧٩، تحقيق على محمد البجاوى، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه ط ثانية.

(٢) ينظر المفتاح: ١٧٣ وبغية الإيضاح: ٣/ ٩٧.

(٣) سبق فى علاقة المسببية إيراد قول الشاعر:

شربت الإثم حتى ضل عقلى　　كذاك الإثم يذهب بالعقول

(٤) الكشاف: ٣/ ٢٤١.

وإطلاق (أسنمة الآبال . . .) على الماء، وإن كانت العلاقة فى أولهما السببية وفى الثانى المسببية ويكون الزمخشرى قد تساهل فى إطلاق مصطلح الاستعارة على ما هو مجاز مرسل؛ لأنه كان « يتساهل فى استعمال المصطلحات العلمية التى حدد هو مدلولها »(١).

ولعله يكون سائراً على نهج بعض العلماء الذين يجعلون (المجاز كله استعارة كأنك استعرت اللفظ من مستحقه الذى وضع له أولاً، ونقلته إلى ما تجوزت به عنه)(٢).

ومن هذه الكلمات التى ذكر صاحب لسان العرب فى بعض المواضع ما يفيد أنها مجاز مرسل، وذكر أيضاً أنها تكون استعارة كلمة (الفوهة) أي الفم، فقد ذكر أنها مجاز مرسل عن القالة أو الكلام فقال: « . . . وقولهم إن رد الفوهة لشديد أى القالة، وهو من فهت بالكلام، ويقال هو يخاف فوهة الناس أى قالتهم، والفوهة تقطيع المسلمين بعضهم بعضاً بالغيبة، ويقال من ذا يطيق رد الفوهة »(٣).

وقد ذكرت ذلك فى علاقة الآلية، وذكر صاحب اللسان فى حديثه حول هذه المادة نفسها(٤) ما يدل على أن كلمة (الفوهة) قد تستعار لفم النهر، أو رأس الوادى، أو نحو ذلك؛ لأن الفم هو مدخل الأشياء إلى الجوف فقال: « . . . وفوهة السكة والطريق والوادى والنهر فمه، والجمع فوهات وفوائه . . وفى الحديث أن النبى ﷺ خرج فلما تفوه البقيع قال السلام عليكم(٥) يريد لما دخل فم البقيع، فشبهه بالفم؛ لأنه أول ما يدخل إلى الجوف منه، ويقال لأول الزقاق، والنهر فوهته بضم الفاء، وتشديد الواو، ويقال طلع علينا فوهة إبلك أى أولها بمنزلة فوهة الطريق . . . »(٦).

ويفهم من كلامه الذى تقدم أن الفوهة أى الفم قد استعيرت لأول السكة، والطريق والوادى، والنهر، وأول قطار الإبل على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية؛

---

(١) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى، للدكتور محمد أبو موسى: ٤٣٢ .
(٢) الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز، لعز الدين بن عبد السلام: ٢٩، ٣٠ .
(٣) لسان العرب: ٥ / ٣٤٩٤، ٣٤٩٥ (فوه) .
(٤) نفسه: ٥: ٣٤٩٤ (فوه) .
(٥) الحديث فى كتاب النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٣: ٤٨١ .
(٦) لسان العرب: ٥ / ٣٤٩٤ (فوه) .

لأنها - كما هو واضح - في اسم جنس يصدق على كثيرين[١] ونلحظ أن في الحديث النبوي الذي أورده استعارة تصريحية تبعية في قوله (تفوه البقيع . . يريد لما دخل البقيع فشبهه (بالفم) فليس التشبيه في (تفوه) من التشبيه الاصطلاحي، بل هو من التشبيه الذي بنيت عليه الاستعارة، وأمره أظهر من أن يخفى .

والمهم فيما نحن بسبيله أن كلمة (فوهة) استعملت مجازاً مرسلاً، واستعارة باعتبارين مختلفين على حسب العلاقة المنظور إليها .

ومن هذه الكلمات أيضًا كلمة (خدمة) أي الخلخال، فقد أشار إلى أنها استعملت مجازاً مرسلاً عن الساق من إطلاق الحال على المحل في قوله (. . . وقد تسمى الساق خدمة حملاً على الخلخال؛ لكونها موضعه)[٢] وقد سبق ذكره في علاقة (الحالية) .

وذكر في الموضع نفسه أن كلمة (الخدمة) تستعار لاجتماع القوم، واتحادهم وقوة تماسكهم، فقد قال: « . . . وقد تسمى حلقة القوم خدمة، وفي حديث خالد بن الوليد إلى مرازبة فارس الحمد لله الذي فض خدمتكم قال - أي ابن سيده - فض الله خدمتهم أي فرق جماعتهم . . فضرب ذلك مثلاً لذهاب ما كانوا عليه، وتفرقه، وشبه اجتماع أمر العجم، واتساقه بالحلقة المستديرة؛ فلهذا قال فض الله خدمتكم أي فرقها بعد اجتماعها . . . »[٣] .

فكلمة (خدمة) في كلامه السالف الذكر مستعارة لاجتماع العجم، وترابطهم وإن لم تذكر فيه كلمة استعارة، أو ما اشتق منها، لكنها معلومة من قوله (وشبه اجتماع أمر العجم، واتساقه بالحلقة المستديرة) لأن الكلام ليس فيه تشبيه اصطلاحي، وإنما فيه تشبيه قامت عليه الاستعارة .

وقد عد أبو هلال العسكري كلمة (خدمة) في قول خالد بن الوليد - رضي الله عنه - استعارة ضمن استعارات كثيرة ذكرها عندما قال: « ومما في كلام النبي - ﷺ ، والصحابة - رضي الله عنهم - ونثر الأعراب، وفصول الكتاب من الاستعارة

(١) ينظر بغية الإيضاح: ٣/١٣٥ .
(٢) لسان العرب: ٢/١١١٥ (خدم) .
(٣) لسان العرب: ٢/١١١٦ (خدم) .

قوله ﷺ . . . . (كلما سمع هيعة طار إليها) . . . وكتب خالد بن الوليد رضى الله عنه إلى مرازبة فارس الحمد لله الذى فض خدمتكم وفرق كلمتكم . . . »[١].

فنجد أن كلمة (خدمة) قد استعملت مجازاً مرسلاً، واستعارة باعتبارين مختلفين.

ومن الكلمات التى أُجرى فيها مجاز مرسل، واستعارة أيضًا كلمة (القول) أو ما اشتق منها، فقد ذكر صاحب لسان العرب أنها تكون مجازاً مرسلاً عن الاعتقادات والآراء، فقال : « القول الكلام . . . وهو عند المحقق كل لفظ قال به اللسان . . . فأما تجوزهم فى تسميتهم الاعتقادات، والآراء قولاً، فلأن الاعتقاد يخفى فلا يعرف إلا بالقول، أو بما يقوم مقام القول من شاهد الحال، فلما كانت لا تظهر إلا بالقول، سميت قولاً، إذ كانت سببًا له، وكان القول دليلاً عليها، كما يسمى الشىء باسم غيره إذا كان ملابسًا له، وكان القول دليلاً عليه »[٢].

فإطلاق القول على الاعتقادات، والآراء مجاز مرسل من إطلاق المسبب على السبب، وقد سبق ذكر ذلك المجاز فى علاقة المسببية.

وأشار فى الموضع نفسه إلى أن القول يستعمل مجازاً فى غير نطق الإنسان حين قال : « وقد يستعمل القول فى غير الإنسان قال أبو النجم :

قالت له الطير تقدم راشداً   إنك لا ترجع إلا حامداً

وقال آخر :

فقالت له العينان سمعًا وطاعة   وحدرتا كالدر لما يثقب

. . . وإذا جاز أن يسمى الرأي، والاعتقاد قولاً، وإن لم يكن صوتًا، كان تسميتهم ما هو أصوات قولاً أجدر بالجواز . . . . »[٣].

ومفهوم من كلامه الآنف الذكر أن القول حين يستعمل فى غير الإنسان يكون من قبيل الاستعارة؛ لأنه ينبئ عن المقصود بشواهد الحال، وقرائن السياق كما يترجم الإنسان عن مراده بالكلمات الدالة. والعبارات المنطوقة. فقول الطير، أو قول العينين

---

(١) الصناعتين : ٣٠٥ – ٣٠٧.

(٢) لسان العرب : ٥ / ٣٧٧٧ (قول).

(٣) المصدر نفسه والموضع.

ليس على سبيل الحقيقة، مثل قول الإنسان، بل هو مستعار للدلالة الموحية المعبرة عن المطلوب.

واستعارة القول لغير النطق باللسان مجاز مشهور عند البيانيين وأرباب الفصاحة والذلاقة حتى جعله بعضهم مستعارا فى بعض آى الذكر الحكيم لدلالة الحال، وشهادة المقام، فقد ذكر الإمام فخر الدين الرازى عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا... ﴾ [الأعراف: ١٧٢] أن ﴿ قَالُوا.... ﴾ فى بعض المواضع لا يراد به القول باللسان فقال: «... ثم أشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من دلائل وحدانيته، وعجائب خلقه، وغرائب صنعه، فبالإشهاد صاروا كأنهم قالوا بلى، وإن لم يكن هناك قول باللسان، ولذلك نظائر منها قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١].

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠]. وقول العرب قال الجدار للوتد لم تشقنى؟ قال سل من يدقنى... فهذا النوع من المجاز والاستعارة مشهور فى الكلام فوجب حمل الكلام عليه...»(١).

وبناء على ما سبق بيانه يظهر لنا بجلاء ووضوح أن ما ذكره صاحب لسان العرب من أن الكلمة الواحدة يمكن اعتبارها مجازاً مرسلاً، أو استعارة بحسب العلاقة الملحوظة فيهما جار على سنن البيانيين، وسائر على نهجهم، وإن تساهل فى بعض الأحيان فساير بعض البيانيين فى إطلاقهم مصطلح الاستعارة على ما هو من قبيل المجاز المرسل، وقد تبدى ذلك في موافقته على جعل (الأملوج) مستعاراً لسمن بكارة الإبل، وقد ذكرت ذلك قريباً.

* * *

(١) التفسير الكبير: ١/٥٣، ٥٤.

وينظر تنزيه القرآن عن المطاعن، للقاضى عبد الجبار: ٣٧٠، والمباحث البيانية فى تفسير الفخر الرازى: ٢٨٤.

الفصل الخامس

بين المجاز المرسل والكناية
فى لسان العرب

الفصل الخامس

بين المجاز المرسل والكناية فى لسان العرب

يظهر من صنيع صاحب لسان العرب أنه يرى أن اللفظ الواحد يمكن أن يكون مجازاً مرسلاً وكناية باعتبارين.

وقد تبدت لى هذه الرؤية من خلال تناوله لبعض كلمات معينة، فقد أورد فى بعض المواضع ما يفيد أن كلمة (لسان) تطلق على الكلام واللغة، فنقل عن ابن سيده أن (لسان صدق) فى قوله تعالى: ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٤] معناه اجعل لى ثناء حسناً باقياً إلى آخر الدهر(١).

وفسر ﴿ لِسَانَ قَوْمِهِ ﴾ فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ [إبراهيم: ٤] بلغة قومه(٢).

فليس المقصود من كلمة ﴿ لِسَانَ ﴾ العضو المعروف، وإنما المقصود منه اللغة، أو الكلام، ومعلوم عند البلاغيين أن إطلاق اللسان على الكلام مجاز مرسل علاقته الآلية، وهو أشهر مثال لتلك العلاقة يتردد ذكره فى كتب البلاغة.

ولكنه ذكر فى موضع آخر أن اللسان كناية عن الكلام فقال: «وقطع لسانه أسكته بإحسانه إليه، وانقطع لسانه ذهبت سلاطته، وامرأة قطيع اللسان إذا لم تكن سليطة، وفى الحديث أنه قال لما أنشده العباس ابن مرداس أبياته العينية اقطعوا عنى لسانه أى أعطوه وأرضوه حتى يسكت(٣) فكنى باللسان عن الكلام، ومنه الحديث أتاه رجل فقال إنى شاعر فقال يا بلال اقطع لسانه فأعطاه أربعين درهماً»(٤). فقوله: (فكنى باللسان عن الكلام) صريح فى أنه جعل (اللسان) كناية عن الكلام، وقد رأينا أنه جعله فى الموضع الذى سلف ذكره مجازاً مرسلاً.

---

(١) لسان العرب: ٥ / ٤٠٣٠ (لسن).

(٢) ينظر لسان العرب: ٥ / ٤٠٣٠ (لسن).

(٣) الحديث فى كتاب النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٤ / ٨٣.

(٤) لسان العرب: ٥ / ٣٦٧٦ (قطع).

وهذا يعطينا دليلاً واضحًا على أن اللفظ الواحد عنده يمكن أن يكون مجازاً مرسلاً ويمكن أن يكون كناية.

ومما هو بسبب من حديث قطع لسان هذا الشاعر، وإعطائه ما يرضيه، واستلال سخيمة قلبه أنني وجدت فى بعض المراجع أن الذى أمره الرسول ﷺ بقطع لسان العباس على بن أبى طالب، وليس بلالا كما جاء فى الحديث الذى أخذه صاحب لسان العرب عن ابن الأثير، وقد سبق ذكره آنفا، فقد رووا أن العباس بن مرداس أنشد رسول الله ﷺ :

أتجعل نهبى ونهب العبيد ... بين عيينة والأقرع
وما كان حصن ولا حابس ... يفوقان مرداس فى مجمع
وما أنا دون امرئ منهما ... ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال رسول الله ﷺ يا على اقطع لسانه عنى، فقبض على عليه السلام على يده، وخرج به فقال أقاطع أنت لسانى يا أبا الحسن؟ فقال إنى لممض فيك ما أمر... ثم مضى به إلى إبل الصدقة فقال خذ ما أحببت، أو كما قال[1].

وسواء كان المأمور هو عليًا، أو بلالاً - رضى الله عنهما - فإن الذى تتوخاه هذه السطور، وتتحراه هو جعل صاحب لسان العرب (لسانه) فى قوله ﷺ : (اقطعوا عنى لسانه) كناية عن الكلام بعد أن اعتبره فى موضع آخر مجازاً مرسلاً عن الكلام.

ومن هذه الكلمات التى ألمع إلى أنها مجاز مرسل، وصرح بأنها كناية كلمة (الرقبة) فقد ذكر فى بعض المواضع أنها تطلق على ذات الإنسان كلها تسمية للشىء باسم جزئه فقال: « .... والرقبة العنق، وقيل أعلاها.. والرقبة المملوك وأعتق رقبة أى نسمة، وفك رقبة أطلق أسيراً سميت الجملة باسم العضو لشرفها. التهذيب وقوله تعالى فى آية الصدقات ﴿ وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ [التوبة: ٦٠] قال أهل التفسير فى الرقاب إنهم المكاتبون ولا يبتدأ منه مملوك فيعتق، وفى حديث قسم الصدقات (وفى الرقاب) يريد المكاتبين من العبيد يعطون نصيبًا من الزكاة يفكون بها رقابهم، ويدفعونه إلى مواليهم»[2].

---

(١) ينظر تحرير التحبير، لابن أبى الإصبع: ٢٥١، تحقيق الدكتور حفنى محمد شرف ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة: ١٣٨٣هـ.

(٢) لسان العرب: ٣/ ١٧٠١ (رقب).

فقوله بعد أن ذكر أن الرقبة أطلقت على النسمة، وعلى الأسير (سميت الجملة - أى جملة الإنسان - باسم العضو لشرفها) أى لشرف الرقبة على سائر أجزاء الجسم، يومئ إلى أن إطلاق الرقبة على ذات الإنسان مجاز مرسل علاقته الجزئية.

ولكنه أورد فى الموضع نفسه عن ابن الأثير أن إطلاق العنق على ذات الإنسان كناية، ومعلوم أن الرقبة والعنق شيء واحد[1] يقول فى ذلك: « .... وفى الحديث كأنما أعتق رقبة قال ابن الأثير وقد تكررت الأحاديث فى ذكر الرقبة وعتقها وتحريرها وفكها، وهى فى الأصل العنق فجعلت كناية عن جميع ذات الإنسان، وتسمية للشيء ببعضه، فإذا قال أعتق رقبة فكأنه قال أعتق عبداً أو أمة، ومنه قولهم دينه فى رقبته... وفى حديث بلال والركائب المناخة لك رقابهن وما عليهن أى ذواتهن وأحمالهن... »[2].

فنجده قد ارتضى قول ابن الأثير، واحتذى حذوه فى جعل الرقبة أو العنق كناية عن جميع ذات الإنسان، أو ذات الحيوان كما فى جعل رقاب الركائب كناية عن ذواتهن، وإن كان من الملحوظ أن ثمة تداخلاً فيما قاله بين الكناية والمجاز المرسل فى قوله: (.... وهى فى الأصل العنق فجعلت كناية عن جميع ذات الإنسان، وتسمية للشيء ببعضه).

فصدر العبارة ناطق بأن العنق كناية عن ذات الإنسان، وعجزها ناطق بأنها مجاز مرسل عن الإنسان، وهذا يعتبر دعماً ومساندة لكونه يجعل اللفظ الواحد مجازاً مرسلاً، وكناية.

ومن الكلمات التى بدا أن فى تناوله لها تداخلاً بين المجاز المرسل، والكناية أيضاً كلمة (قحف) فقد جعلها كناية عن الرأس كله، أومجازا مرسلاً عنه .. عندما قال: « القحف العظم الذى فوق الدماغ من الجمجمة، والجمجمة التى فيها الدماغ، ومنه حديث[3] أبى هريرة فى يوم اليرموك فما رئى موطن أكثر قحفاً ساقطاً أى رأساً فكنى عنه ببعضه أو أراد القحف نفسه.... »[4].

فنرى فى قوله: (فكنى عنه ببعضه) تداخلاً، أو إن شئنا الدقة دمجاً بين الكناية

---

(١) ينظر لسان العرب: ٣/ ١٧٠١ (رقب).
(٢) المصدر نفسه والموضع.
(٣) يبدو أن الحديث هنا بمعناه اللغوى.
(٤) لسان العرب: ٥/٣٥٣٧ (قحف).

والمجاز المرسل، فإن قوله (فكنى عنه) صريح فى أن لفظ (قحف) كناية عن الرأس، وقوله (ببعضه) يشير إلى أنه مجاز مرسل علاقته الجزئية عن الرأس نفسه.

ومن الكلمات التى أشار صاحب اللسان إلى أنها يمكن أن تكون مجازاً مرسلاً وكناية أيضاً كلمة (عذرة)[1] وهى سلح الإنسان وغائطه، فقد قال فى أحد المواضع: « والعاذر والعذرة الغائط الذى هو السلح، وفى حديث ابن عمر أنه كره السلت الذى يزرع بالعذرة[2] يريد الغائط الذى يلقيه الإنسان، والعذرة فناء الدار، وفى حديث على أنه عاتب قوماً فقال ما لكم لا تنظفون عذراتكم[3] أى أفنيتكم.. قال أبو عبيد وإنما سميت عذرات الناس بهذا، لأنها كانت تلقى بالأفنية، فكنى عنها باسم الفناء، كما كنى بالغائط وهى الأرض المطمئنة عنها.... »[4] واضح من هذا الكلام الذى ذكره أن العذرة فى الأصل فناء الدار، وسميت عذرات الناس بهذا الاسم؛ لأنها كانت تلقى بالأفنية، وغنى عن البيانِ أن دور العرب، وأفنيتهم كانت رحبة واسعة لا تضيق بحاجاتهم، وضروريات حياتهم.

وبناء على ذلك تكون كلمة (عذرة) أو (عذرات) مجازاً مرسلاً علاقته المحلية أطلق فيه المحل على الحال فيه.

وفى الوقت نفسه نجد أن عبارة أبى عبيد التى أوردها صاحب اللسان فى عجز كلامه الذى سبق ذكره تتضمن أن العذرة أى فناء الدار كناية عن غائط الإنسان الذى يلقيه فى هذا المكان، ويتجلى ذلك فى قوله: (.... فكنى عنها باسم الفناء كما كنى بالغائط وهى الأرض المطمئنة عنها) أى العذرة.

وفى علاقة المحلية كذلك أورد صاحب لسان العرب عدة أقوال فى معنى الثياب من قوله تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر: ٤] منها أنها النفس فقال: « ... والعرب تكنى بالثياب عن النفس وقال:

---

(١) أعتذر عن ذكر مثل هذه الألفاظ، ولعله يشفع لى أن هذه لغة العرب التى وسعت حياتهم، وعبرت عن حاجاتهم.

(٢) ينظر كتاب النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٣/ ١٩٩.

(٣) المصدر نفسه والموضع.

(٤) لسان العرب: ٤/ ٢٨٦٠ (عذر).

فسلي ثيابي عن ثيابك تنسل[١]

وفلان دنس الثياب إذا كان خبيث الفعل والمذهب، خبيث العرض قال امرؤ القيس:

ثياب بني عوف طهارى نقية وأوجههم بيض المسافر غران[٢]

وقال (الشماخ)[٣]:

رموها بأثواب خفاف ولا ترى لها شبهاً إلا النعام المنفرا

رموها يعنى الركاب بأبدانهم، ومثله قول الراعى:

فقام إليها حبتر بسلاحه ولله ثوبا حبتر أيما فتى

يريد ما اشتمل عليه ثوب حبتر من بدنه»[٤].

فقد صرح في حديثه المتقدم بأن الثياب كناية عن النفس، ويلوح شرحه لكلمة الثياب أو نحوها في بعض الشواهد التي ساقها إلى أن الثياب مجاز مرسل عن ذات الإنسان وبدنه، فقد فسر قول ليلى الأخيلية (رموها بأثواب) بأنهم رموها بأبدانهم، وغير خاف أن الأثواب محل لهذه الأبدان، وكذلك فسر قول الراعي (ولله ثوبا حبتر) بما اشتمل عليه هذان الثوبان من بدنه، فهما محل لذلك البدن، وبدنه حال فيها وهذا ظاهر في علاقة المحلية.

وهكذا نجد أن المجاز المرسل والكناية يمكن أن يتواردا على لفظ واحد، وإن كان

---

(١) هذا عجز بيت لامرئ القيس وصدره: وإن تك قد ساءتك مني خليقة.. ورواية المعلقات التي شرحها الزوزني (ثيابي من ثيابك) باستبدال الحرف (من) بالحرف (عن) ينظر المعلقات السبع شرح الزوزني: ١٤.

(٢) في هامش لسان العرب ذكر أحد محققيه أن البيت في ديوانه: وأوجههم عند المشاهد غران: ١/٥١٩ (ثوب).

وذكر صاحب اللسان نفسه في موضع آخر عن ابن برى أن المشهور في بيت امرئ القيس.. وأوجههم عند المشاهد غران.

أي إذا اجتمعوا لغرم حمالة أو لإدارة حرب وجدت وجوههم مستبشرة غير منكرة... ٥/٣٢٣٤ (غرر).

(٣) نسب محققو لسان العرب هذا البيت إلى الشماخ، وذكر ابن قتيبة أن البيت لليلى الأخيلية: ١٤٢ تأويل مشكل القرآن، وأيد محقق كتاب ابن قتيبة أن البيت لها.

ينظر هامش تأويل مشكل القرآن: ١٤٢ تحقيق السيد أحمد صقر.

(٤) لسان العرب: ١/٥١٩ (ثوب).

ذلك يبدو فى بادئ النظر تناقضًا ظاهرًا؛ لأن المجاز قرينته مانعة من إرادة المعنى الحقيقى، والكناية قرينتها مجوزة لإرادة ذلك المعنى(١).

وقبل أن أعرض لإزالة هذا التناقض الظاهر عن هذا الاستعمال أشير إلى أن إطلاق مصطلح الكناية، والمجاز المرسل على اللفظ الواحد أمر لم ينفرد به اللغويون الذين سطر كلامهم صاحب لسان العرب، وذكرت طرفًا منه آنفًا، بل شاركهم فى هذا الإطلاق أرباب البيان، وجهابذة البلاغة - فمثلاً - صاحب الكشاف وهو علم من أعلامهم يشار إليه بالبنان يذكر صوراً من المجاز المرسل، ويسميها كناية، فقد قال فى قوله تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر: ٤].

«وقيل هو أمر بتطهير النفس مما يستقذر من الأفعال، ويستهجن من العادات يقال فلان طاهر الثياب، وطاهر الجيب والذيل والأردان، إذا وصفوه بالنقاء من المعايب، ومدانس الأخلاق، وفلان دنس الثياب للغادر، وذلك لأن الثوب يلابس الإنسان، ويشتمل عليه فكنى به عنه»(٢). وقد عقب الدكتور محمد أبو موسى على ذلك بقوله:

«فالتعبير عن الإنسان بثوبه من المجاز المرسل الذى علاقته المجاورة، أو الحالية، ولكن الزمخشرى يجعله من الكناية.. ويمكن أن يكون المثال الواحد كناية لغوية باعتبار، ومجازاً مرسلاً باعتبار آخر...»(٣).

والكناية اللغوية هى المفردة التى تعبر فيها عن المكنى عنه بلفظ واحد مثل كلمة (نعجة) فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ [ص: ٢٣] فإن هذه الكلمة فى الموضعين كناية عن المرأة(٤).

وقد رأينا فيما تقدم ذكره أن جميع الكنايات التى أشار صاحب لسان العرب إلى أنها تكون مجازاً مرسلاً أيضًا هى كنايات لغوية مفردة.

وقد وجدت الإمام فخر الدين الرازى، وهو من البيانيين الذين لهم جهد يذكر فى البيان العربى يذكر فى تفسيره الكبير كثيراً من هذه الكنايات المفردة، ثم يذكر فى مواطن أخرى من ذلك التفسير ما يفيد أنها مجاز مرسل(٥).

---

(١) ينظر - مثلا - بغية الإيضاح: ٣/١٧٣.
(٢) الكشاف: ٤/١٥٦.
(٣) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى: ٤٦٧.
(٤) الطراز للعلوى: ١/٤٢٧.
(٥) ينظر المباحث البيانية فى تفسير الفخر الرازى رسالة دكتوراه ٣٦٢ مكتبة وهبة - القاهرة - ط أولى سنة ١٩٩٩.

ولا بأس أن أورد نموذجًا واحداً دليلاً على ذلك، فقد ذكر في قوله تعالى: ﴿ ... قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

أن الاشتغال بالاستهزاء لا يكون إلا بسبب الجهل، ومنصب النبوة لا يحتمل الإقدام على الاستهزاء، فلم يستعذ موسى عليه السلام من نفس الشيء الذى نسبوه ولكنه استعاذ من السبب الموجب له كما قد يقول الرجل عند مثل ذلك أعوذ بالله من عدم العقل، وغلبة الهوى والحاصل أنه أطلق اسم السبب على المسبب مجازاً»(١).

فجعل إطلاق الجهل على الاستهزاء مجازاً مرسلاً، لكنه عند تفسير قوله تعالى مخاطبًا نبيه نوحًا عليه السلام: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] جعل الجهل كناية عن الذنب فقال: «جعل الجهل كناية عن الذنب مشهور فى القرآن قال تعالى: ﴿ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ [النساء: ١٧] وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام (أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين)»(٢).

وهنا نأتى إلى إزالة ما يبدو من تناقض ظاهر يتمثل فى إطلاق مصطلح المجاز المرسل والكناية على لفظ واحد، مع أن قرينة المجاز مانعة، وقرينة الكناية غير مانعة، وقد تصدى لهذه المهمة بجدارة واقتدار ابن يعقوب المغربى - رحمه الله - فبين أن اللفظ الواحد لا يكون مجازاً مرسلاً، وكناية فى آن واحد، ونظرة متساوقة، وإنما يتأتى ذلك إذا تباينت النظرة إليهما، وانفكت جهة الإطلالة عليهما، واختلفت الحيثية المعتبرة فيهما، فكلمة النبات - مثلاً - تكون مجازاً مرسلاً عن الغيث من حيث التلازم بينهما، وتكون كناية عنه من حيث كون النبات رديفًا للغيث، وتابعًا له فى الوجود(٣).

وبناء على تلك النظرة ينقشع عن هذا الاستعمال ما يبدو من تعارض فى بادئ الرأي، ويمكننا أن نقول - مثلاً - إن لفظ (اللسان) يكون مجازاً مرسلاً عن الكلام لما بينهما من تلازم الآلية، وما يصدر عنها، ويكون كناية عن الكلام؛ لأنه تابع له، وأثر من آثاره.

---

(١) التفسير الكبير: ٢/ ١٢٦. (٢) التفسير الكبير٩ ٢/٤، ٥.

(٣) ينظر مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح: ٤/٢٤٦، ٢٤٧ شروح التلخيص.

الباب الثانى

الاستعارة غير المفيدة ومتى تصبح مفيدة؟

- تطور رؤية النقاد والبلاغيين للاستعارة غير المفيدة.
- الاستعارة بين أسماء الذوات.
- الاستعارة بين أسماء الأعضاء وما يماثلها.
- استعارة أسماء بعض الأعمال مكان بعض.
- استعارة أسماء بعض الأصوات مكان بعض.

تقـــديم

من المعلوم أن الاستعارة ضرب من المجاز اللغوى علاقته المشابهة بين المستعار له، والمستعار منه، وقد ذكرها الشيخ عبد القاهر الجرجانى فى مطالع كتابه (أسرار البلاغة) وقدمها على غيرها من المسائل البيانية، فيما يبدو أنه اهتمام بأمرها، وتنويه بفضلها، وقد قسمها تقسيما أوليا إلى مفيدة وغير مفيدة، ومدح الاستعارة المفيدة وأشاد بها، ورفع من قدرها، فأشار إلى أنها أوسع ميدانا، وأبعد مدى، وأعجب حسنا، وأعمق غورا، وأرحب صدرا فقال: « . . . ومن الفضيلة الجامعة فيها – أى فى الاستعارة المفيدة – أنها تبرز هذا البيان أبدا فى صورة مستجدة، تزيد قدره نبلا، وتوجب له بعد الفضل فضلا، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد حتى تراها مكررة فى مواضع ، ولها فى كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد، وشرف منفرد، وفضيلة مرموقة، وخلابة موموقة، ومن خصائصها التى تذكر بها، وهى عنوان مناقبها أنها تعطيك الكثير من المعانى باليسير من اللفظ، حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر، وتجنى من الغصن الواحد أنواعا من الثمر»(١) ثم يقول: « . . . فإنك لترى بها الجماد حيا ناطقا، والأعجم فصيحا، والأجسام الخرس مبينة، والمعانى الخفية بادية جلية . . »(٢).

أما الاستعارة غير المفيدة، فقد عابها، وانتقص منها، وحط من شأنها، لأنها ضيقة الأفق، ضحلة العمق، شحيحة العطاء، قليلة النماء فقال فى شأنها: « . . . وأنا أبدأ بذكر غير المفيد، فإنه قصير الباع، قليل الاتساع . . . وموضع هذا الذى لا يفيد نقله حيث يكون اختصاص الاسم بما وضع له من طريق أريد به التوسع فى أوضاع اللغة، والتنوق(٣) فى مراعاة دقائق فى المعانى المدلول عليها كوضعهم للعضو الواحد

---

(١) أسرار البلاغة: ٣٠ تحقيق الشيخ محمد رشيد رضا الطبعة السادسة ١٩٥٩م مكتبة القاهرة. وهى المقصودة عند الإطلاق.

(٢) المرجع نفسه والموضع.

(٣) التنوق فى الأمر – التانق فيه.

ينظر لسان العرب ٦ / ٤٥٨١ (نوق) طبعة دار المعارف.

أسامى كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان، نحو وضع الشفة للإنسان والمشفر للبعير، والجحفلة للفرس، وما شاكل ذلك من فروق...»[1] وهذه الاستعارة التى سماها الشيخ عبد القاهر غير مفيدة فى كلامه الآنف الذى تسمى أيضًا استعارة لفظية، لأنها تعتمد على نقل لفظ مكان لفظ، دون التفات إلى معناه، فهى استعارة غير مفيدة، أو استعارة لفظية يقابلها الاستعارة المفيدة أو المعنوية، وقد ألمع الشيخ عبد القاهر إلى كلا الاسمين اللفظية والمعنوية فى قوله:

« .. فاعلم أنك قد تجد الشىء يخلط بالضرب الأول الذى هو استعارة من طريق اللفظ، ويعد فى قبيله، وهو إذا حققت ناظر إلى الضرب الآخر فهو مستعار من جهة المعنى، وجار فى سبيله....»[2].

* * *

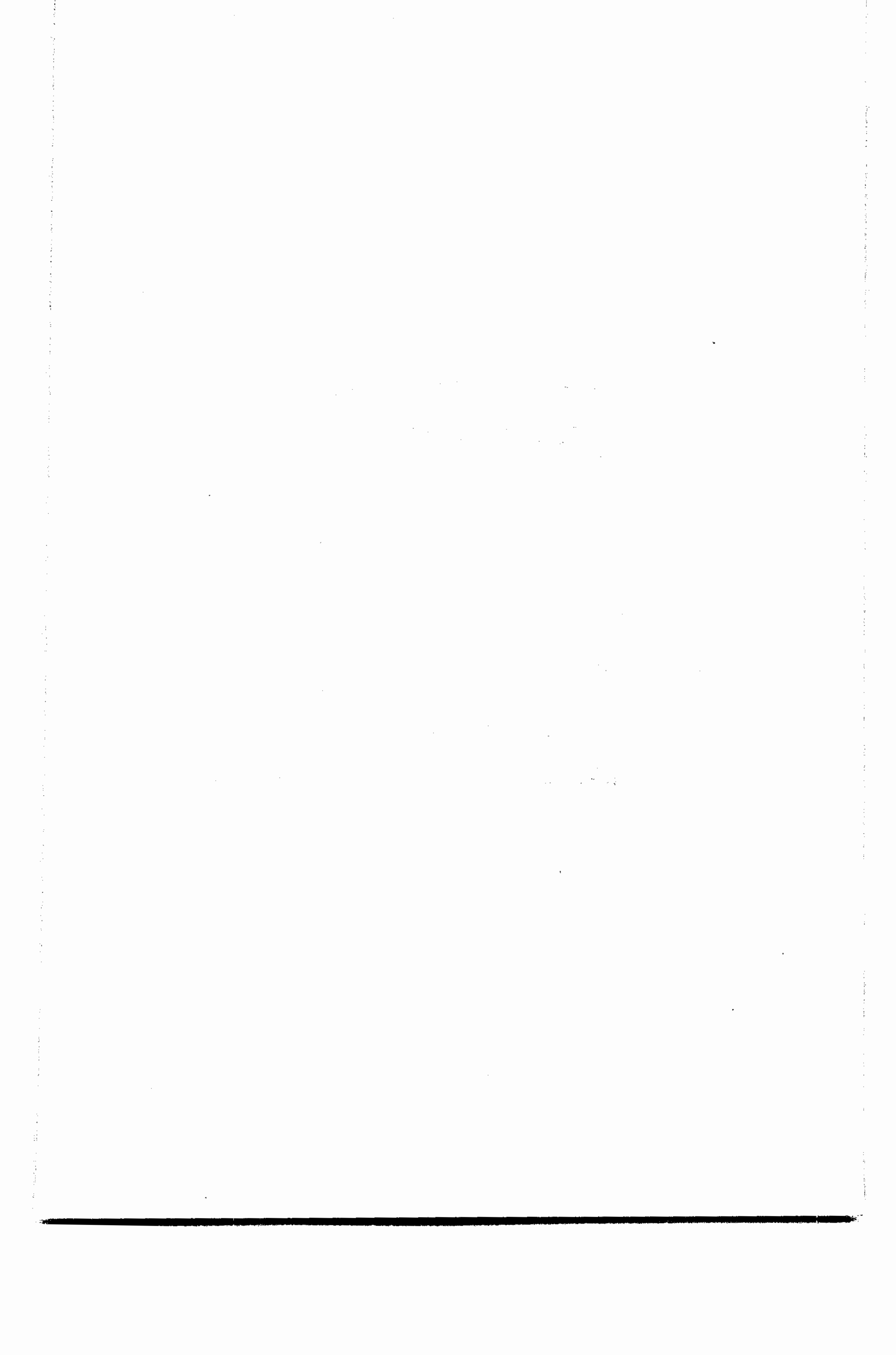
(١) أسرار البلاغة: ٢٠، ٢١.

(٢) المرجع نفسه: ٢٤.

الفصل الأول

تطور رؤية النقاد والبلاغيين للاستعارة غير المفيدة

- الاستعارة غير المفيدة عند قدامة بن جعفر .
- الاستعارة غير المفيدة عند الآمدى .
- الاستعارة غير المفيدة عند أبى هلال العسكرى .
- الاستعارة غير المفيدة عند الشيخ عبد القاهر الجرجانى .
- الاستعارة غير المفيدة عند الزمخشرى .
- الاستعارة غير المفيدة عند السكاكى والخطيب .



الاستعارة غير المفيدة عند قدامة بن جعفر

كان المنطلق الذى بدأت منه هذه الدراسة حول الاستعارة غير المفيدة، أو الاستعارة اللفظية هو معنى المعاظلة فى ثناء الخليفة عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – على الشاعر الجاهلى زهير بن أبى سلمى، وامتداحه له بأنه كان لا يعاظل فى الكلام، فقد روى «عبدالله بن عباس – رضى الله عنهما – أنه قال قال لى عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – أنشدنى لأشعر شعرائكم، قلت من هو يا أمير المؤمنين؟ قال زهير، قلت ولم كان كذلك؟ قال كان لا يعاظل بين الكلام، ولا يتتبع حوشيه، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه[1].

وهذه شهادة عظيمة من الفاروق – رضى الله عنه – (لزهير) استحقها عن جدارة واقتدار؛ لأنه كان لا يغرم بوحشى الكلام، وغريبه، ولا يولع بتعقيد شعره، ولا يمدح رجلا إلا بما فيه.

وقد اعتبر «قدامة بن جعفر» المعاظلة التى تنزه عنها شعر (زهير) عيبا من عيوب اللفظ، وفسرها بأنها فاحش الاستعارة فقال:

«... وسألت «أحمد بن يحيى» عن المعاظلة فقال مداخلة الشىء فى الشىء، يقال تعاظلت الجرادتان، وعاظل الرجل المرأة إذا ركب أحدهما الآخر، وإذا كان الأمر كذلك، فمن المحال أن تنكر مداخلة بعض الكلام فيما يشبهه من وجه، أو فيما كان من جنسه، وما هو غير لائق به، وما أعرف ذلك إلا فاحش الاستعارة...»[2].

ويضيف «قدامة» ممثلا لفاحش الاستعارة قائلاً: «مثل قول أوس[3]:

---

(١) العمدة، لابن رشيق: ١/٩٨ تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الخامسة ١٤٠١هـ.

(٢) نقد الشعر، لقدامة بن جعفر: ١٧٥ تحقيق وتعليق الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجى، الطبعة الأولى ١٩٧٩م مكتبة الكليات الأزهرية.

(٣) يقصد أوس بن حجر الشاعر الجاهلى.

وذاتُ هِـــدْمٍ عـــارٍ نواشرهـــا تُصْمِتُ بالمـــاء تَوْلَبًا جَدِعًا[١]

فسمى الصبى تولبا، وهو ولد الحمار، ومثل قول الآخر:

فما رقد الولدان حتى رأيته على البكر يمريه بساق وحافر[٢]

فسمى رجل[٣] الإنسان حافرا؛ فإن ما جرى هـذا المجـرى مـن الاستعـارة قبيـح لا عذر فيه»[٤].

وهكذا رفض «قدامة» أن يكون معنى المعاظلة مداخلة الشـىء فـى الشـىء أو مداخلة الكلام فيما يشبهه، أو فيما كان من جنسه، كما وضحها له «أحمد بن يحيى» ولم يعره أذنا صاغية، أو يحفل بكلامه، وارتضى أن يكون معناها فاحش الاستعارة، أو قبيحها الذى لا عذر فيه، ومثل لها باستعارة بعض الشعراء ولد الحمار للصبى من بنى الإنسان، واستعارة شاعر آخر حافر الدابة لقدم الإنسان؛ لأن هذا إدخال لجنس فيما ليس من جنسه، أو عضو فيما ليس من شكله، ولا يليق به.

ومع أن هذا الرأى الذى أعجب به «قدامة» وضرب بما سواه عرض الحائط لم ينل القبـول عند أهل العلم، وحذاق الأدب والنقـد إلا أنه ألقى ضوءا، ولو خافتا على الاستعارة غير المفيدة، أو كما سماها هو فاحش الاستعارة

* * *

الاستعارة غير المفيدة عند الآمدى

رفض الآمدى، وجمهور النقاد رأى «قدامة» فى معنى المعاظلة، وإن كانوا قد وافقوه على أن مثل هذه الاستعارة التى أشار إليها قبيحة، أو رديئة، أو نحو ذلك من

---

(١) الهِـدْمُ – الثـوب الخلق المرقع. ينظر لسـان العـرب: ٦/٤٦٣٦ (هدم) والنواشـر – عصب الذراع من داخل وخارج.
ينظر لسـان العـرب: ٦/٤٤٢٤ (نشـر)، (جَدِعًا) سىء الغـذاء لسـان العـرب: ١/٤٣٨ (تلب).

(٢) يمريه: يستخرج ما عنده من الجرى. ينظر لسان العرب: ٥/ ٤١٨٩ (مرا).

(٣) الأدق أن يقـال فسـمى قدم الإنسـان... فقـد حكى صـاحب لسـان العرب عن بعض اللغويين أن الرجل من أصل الفخذ إلى القدم، ٣: ٥٩٧ (رجل).

(٤) نقد الشعر لقدامة: ١٧٤، ١٧٥.

الأوصاف، فقد أورد الآمدى، وهو بصدد بيان تعقيد شعر أبى تمام، وسوء نظمه ووحشى ألفاظه – كما قال – ما روى عن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – فى شعر (زهير) وقد ساق كلام (عمر) برواية تختلف عن الرواية التى قدمتها من قبل فى كلمات قليلة، لا تخرجها عن مضمونها، فقد جاء فى «الموازنة» ما روى عن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – فى (زهير بن أبى سلمى) لما قال فيه كان لا يعاظل فى الكلام ولا يتتبع حوشيه، ولا يمدح رجلا إلا بما فى الرجال»[1] ثم بين معنى المعاظلة عنده، وعند أهل العلم قائلا:

«... وقد فسر أهل العلم هذا من قول (عمر) وذكروا أن معنى المعاظلة هو مداخلة الكلام بعضه فى بعض، وركوب بعضه بعضا، من قولك تعاظل الجراد، وتعاظلت الكلاب، ونحوهما مما يتعلق بعضه ببعض عند السفاد... إلا أبو الفرج «قدامة بن جعفر» فإنه ذكر ذلك فى كتابه المؤلف فى نقد الشعر، ومثل له أمثلة، فغلط فى أمثلة المعاظلة غلطا قبيحا، وقد ذكرت ذلك فى كتاب بينت فيه جميع ما وقفت عليه من سهوه وغلطه»[2].

وفى الوقت نفسه وافق الآمدى «قدامة» على أن الأمثلة التى ذكرها لفاحش الاستعارة هى وما يماثلها استعارات فى نهاية القبح فقال «... وأخذ على الآخر قوله:

فما رقد الولدان حتى رأيته على البكر يمريه بساق وحافر[3]

فسمى رجل الإنسان حافرا، وهذه استعارات فى نهاية القبح، وكذلك قول الآخر.

قد أفنى أناملَهُ عَضُّهُ فأضحى يَعَضُّ على الوظيفا[4]

---

(١) الموازنة، للآمدى: ٢٥٨ تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد ١٩٤٤م.

(٢) هو كتاب (تبيين غلط قدامة فى كتاب نقد الشعر) كما ذكر محقق كتاب (نقد الشعر ص ٩ وينظر الموازنة: ٢٥٩.

(٣) أعتذر عن تكرار بعض الشواهد الشعرية؛ لأن طبيعة البحث تستدعى ذلك، لمعرفة موقف كل عالم من هذه الاستعارة.

(٤) فى لسان العرب: الوظيف لكل ذى أربع ما فوق الرسغ إلى مفصل الساق... وجمعه أوظفة، ووظف، الجوهرى، الوظيف مستدق الذراع والساق من الخيل، والإبل ونحوهما... قال – أى الجوهرى – وظيف البعير خفه، وهو له كالحافر للفرس. ٦/ ٤٨٦٩ (وظف).

فما ذكره الآمدى من أن الوظيف يقابل القدم على رأى بعض اللغويين.

فجعل له وظيفا مكان الرجل، وكذلك قول الآخر:

سأمنعها أو سوف أجعل أمرها إلى ملك أظلافه لم تشقق[١]

وقول الحطيئة:

قروا جارك العيمان لما جفوته وقلَّصَ عن برد الشراب مشَافِرُه[٢]

وتفسير الآمدى للمعاظلة اتباعا لرأى أهل العلم هو الموافق لمعناها فى اللغة، ويؤكد ذلك ما ذكره صاحب لسان العرب حين قال:

«العظال الملازمة فى السفاد من الكلاب، والسباع، وغير ذلك مما يتلازم فى السفاد، وينشب، وعاظلت الكلاب معاظلة، وعظالا، وتعاظلت لزم بعضها بعضا فى السفاد وأنشد:

كلابٌ تعاظلُ سود الفقا ح لم تَحْم شَيئا ولم تَصْطَد[٣]

وقد عرج صاحب لسان العرب على امتداح عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - (لزهير) وشعره، ثم أتبعه بقوله «... أى لا يعقده، ولا يوالى بعضه فوق بعض»[٤] فيما يبدو أنه تفسير للمعاظلة.

وهنا قد يبدو تساؤل مؤداه إذا كانت المعاظلة ليست فاحش الاستعارة، كما

---

(١) هذا البيت للشاعر عقفان بن قيس، وهو شاعر جاهلى، جاء فى هامش كتاب (أسرار البلاغة) تحقيق هريتر فى مناسبة هذا البيت أن النعمان ابن المنذر استعمل الغلاق بن عمرو الرياحى على هجائن من يلى أرضه من العرب، وكان لعقفان هذا هجائن، فاخفاها فطلبها الغلاق فعمد عقفان بإبله حتى اتى النعمان فاجاره ولم يأخذ منها شيئًا فقال قصيده منها هذا البيت ينظر (أسرار البلاغة): ٣٧ تحقيق هريتر، طبعة استانبول، وزارة المعارف ١٩٥٤م.

(٢) العيمان - شديد الشهوة لشرب اللبن، ينظر لسان العرب: ٤/٣١٩٥ (عيم)، وقلصت شفته وتقلصت: انضمت، وانزوت، ونقصت، ينظر لسان العرب: ٥/٣٧٢١ (قلص)، والبيت من قصيدة يهجو بها الزبرقان وبعده:

سناما ومحضا أنبتا اللحم فاكتست عظام امرئ مـا كـان يشبع طائـره
هـم لاحمونى بعـد جهـد وفاقة كما لاحـم العظم الكسير جبائـره

ديوانه: ٢٥ دار صادر بيروت ١٩٨١م.

(٣) الفقاح جمع فَقْحَة، وهى حلقة الدبر. لسان العرب: ٥/٣٤٤٣ (فقح).

(٤) لسان العرب: ٤/٣٠٠٤ (عظل).

ذهب إلى ذلك «قدامة» فما معناها الصحيح؟ والجواب عن هذا التساؤل قد تبدى وظهر في أثناء تناول صاحب اللسان لمعناها، وأنها تعنى تعقيد الكلام، وتداخل بعضه في بعض، وقد عالجها الآمدى أيضاً، وجلى مضمونها وهو يرد على «قدامة» ما قاله فيها، وذكر أنها «شدة تعليق الشاعر ألفاظ البيت بعضها ببعض، وأن يداخل لفظة من أجل لفظة تشبهها، أو تجانسها، وإن اختل المعنى بعض الاختلال»(١).

وقد مثل لها بأمثلة كثيرة من شعر أبى تمام منها قوله:

خان الصفاء أخ خان الزمان أخا   عنه فلم يتخون جسْمَهُ الكمدُ

وعقب على هذا البيت بقوله: «.. فانظر إلى أكثر ألفاظ هذا البيت، وهى سبع كلمات آخرها قوله (عنه) ما أشد تشبث بعضها ببعض، وما أقبح ما اعتمده من إدخال ألفاظ فى البيت من أجل ما يشبهها وهو «خان» و«يتخون»، وقوله «أخ» و«أخا» فإذا تأملت المعنى مع ما أفسده من اللفظ، لم تجد لها حلاوة، ولا فيه كبير فائدة؛ لأنه يريد خان الصفاء أخ خان الزمان أخا من أجله إذا لم يتخون جسمه الكمد»(٢).

وبذلك يصبح واضحا أن المعاظلة عند المحققين من أهل العلم، ونقدة الأدب شيء آخر غير الاستعارة المعيبة، أو القبيحة، أو ما شئنا من هذه الأوصاف، وحينئذ يحق لنا أن نصرف النظر عن التمادى فى تناول المعاظلة، والاستمرار فى مزيد من الحديث عنها، ونولى وجهنا نحو الاستعارة غير المفيدة، أو اللفظية التى هى الغرض المقصود، والهدف المنشود من هذا العمل، وقد خرجنا مما مضى فى أمر هذه الاستعارة بنتيجة مضمونها أن استعارة جنس لما لا يناسب جنسه، أو عضو فى مكان لا يلائمه، ويوافقه كانت هذه الاستعارة فاحشة، أو فى نهاية القبح، والدمامة كما قال كل من «قدامة» و«الآمدى».

* * *

الاستعارة غير المفيدة عند أبى هلال العسكرى

عرض (أبو هلال) لبعض الاستعارات التى جاء ذكرها عند من سبقوه مثل قول الشاعر:

(١) الموازنة، للآمدى: ٢٦٠.   (٢) الموازنة، للآمدى: ٢٥٩.

وذاتُ هِدْمٍ عارٍ نواشرها   تُصْمِتُ بالماء تَوْلَبا جَدِعَا

وقول الآخر:

وما رقد الولدان حتى رأيته   على البكر يمريه بساق وحافر[١]

واعتبر استعارة التولب للصبى، والحافر لقدم الإنسان فيها بُعْدٌ[٢].

وأعاد البيتين كليهما فى موضع آخر من كتابه ضمن أمثلة أخرى لهذا النوع من الاستعارة، ووصفها بأنها استعارة رديئة»[٣].

ولكنه أضاف إضافة جديدة، عندما ذكر عقب هذه الاستعارات أنه « ... إذا أريد بذلك - يقصد المذكور من الاستعارات - الذم والهجاء، كان أقرب إلى الصواب»[٤].

وهذه الإضافة على جانب كبير من الأهمية تجعلها محسوبة فى عداد الاستعارات المفيدة؛ لأنها إذا كانت للذم والهجاء، وليست مجرد وضع لفظ مكان لفظ، كانت قائمة على التشبيه، ولا يبعد أن يكون الشيخ عبد القاهر الجرجانى قد استلهم تلك اللمحة الدالة عندما حكم - كما سيجىء بعد - إن شاء الله - بأن مثل هذه الاستعارات التى تبدو فى بادىء النظر غير مفيدة - تصير مفيدة، إذا أريد بها الذم والنقص»[٥].

وقد تناول (أبو هلال) قول الشاعر:

سأمنعها أو سوف أجعل أمرها   إلى ملك أظلافه لم تشقق

وجعله قبيحا لا شك فى قباحته[٦].

---

(١) صدّر (أبو هلال) هذا البيت هنا بالواو (وما) ص ١٨١، ولكنه صدره فى موضع آخر بالفاء (فما) ٢٣٢، والبيت فى (أسرار البلاغة) أوله فاء (فما) ص ٢٥، وهو فى لسان العرب مبدوء بالفاء (فما) ٢/٩٢٥ (حفر)، وهذا يدل على أن الصواب ابتداؤه بالفاء، ولعل ابتداؤه بالواو سهو، أو خطأ من النساخ.

(٢) كتاب الصناعتين: ١٨١ تحقيق د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت ط أولى ١٩٨١م.

(٣) المرجع نفسه: ٣٣٢.   (٤) المرجع نفسه والموضع.

(٥) ينظر أسرار البلاغة: ٢٤، ٢٥.

(٦) قباحته: من مصادر الفعل (قبح) ينظر لسان العرب ٥/٣٥٠٨ (قبح) وسيجىء بعد - إن شاء الله تعالى - أن الشيخ عبد القاهر جعل استعارة الأظلاف مكان الأقدام فى هذا البيت نفسه استعارة مفيدة.

الاستعارة غير المفيدة عند الشيخ عبد القاهر الجرجاني

رأينا كيف كانت نظرة البلاغيين، والنقاد قبل الشيخ عبد القاهر إلى الاستعارة غير المفيدة، أو الاستعارة اللفظية، فهي عندهم لا تعدو أن تكون استعارة فاحشة، أو قبيحة، أو رديئة، أو في نهاية القبح، وكلها صفات مقتضبة عابرة، وأحكام فردية متناثرة.

وقد حاول (أبو هلال) أن يحدد مدلولها، ويبرز معالمها عندما قال - كما ذكرت آنفا - «إذا أريد بذلك الذم والهجاء، كانت أقرب إلى الصواب» فهي عندما يقصد منها الذم والهجاء، تكون أقرب إلى الصواب، لكنها لم تصل إليه، أو تدخل حيزه، وحسبه أنه خطا في سبيل اعتبارها مفيدة خطوات إلى الأمام (ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه).

وقد تناول الشيخ عبد القاهر، بعد ذلك هذه الاستعارة، فجعل منها موضوعا واضح المعالم، بين القسمات، فهو في مبلغ علمي - أول من سماها غير مفيدة، وجعلها قسيمة للاستعارة المفيدة، ومقابلة لها حين قال: «إنها - أي الاستعارة عموما - تنقسم قسمين أحدهما ألا يكون لنقله - أي اللفظ - فائدة والثاني أن يكون له فائدة...»[1] وقد وصف غير المفيدة بأنها قصيرة الباع، قليلة الاتساع، ومدلولها - كما يفهم من كلامه أن تستعار أسماء أعضاء الناس، أو الحيونات بعضها مكان بعض...[2].

«... فإذا استعمل الشاعر[3] شيئًا منها في غير الجنس الذى وضع له، فقد استعاره منه، ونقله عن أصله، وجاز به موضعه كقول العجاج:

... وفاحما ومرسنا مسرجا[4]

---

(١) أسرار البلاغة: ٢٠.

(٢)سبق نقل بعض كلامه في صدر هذا البحث، وينظر أسرار البلاغة: ٢٠ / ٢١.

(٣)كلمة الشاعر ليست مقصودة لذاتها؛ لأنه مثّل لها من غير الشعر، ولعله قالها؛ لأن المثال الذى يليها مباشرة من الشعر.

(٤) هذا عجز بيت وصدره: ومقلة وحاجبا مزججا ينظر بغية الإيضاح، للشيخ عبد المتعال الصعيدى: ١ / ١٤ المطبعة النموذجية.

يعنى أنفا برق كالسراج، والمرسن فى الأصل للحيوان؛ لأنه الموضع الذى يقع عليه الرسن»[1].

وإذا كان الشيخ عبد القاهر قد وصف هذه الاستعارة بأنها قصيرة الباع قليلة الاتساع، فإن ذلك يعنى أن فيها فائدة مّا، وليست عديمة الجدوى أو مطموسة الأثر، وقد تتبعت كلامه فى أوائل كتابه (أسرار البلاغة) وأواخره، حول هذه الاستعارة فوجدت موقفه منها لم يكن ثابتا على رؤية معينة، أو نظرة واحدة، بل تعددت رؤاه، واختلفت نظراته، وقد تمثلت هذه النظرات فى عدة صور:

إحداها: أنها عديمة الفائدة والنفع؛ لأنها تعتمد على مجرد نقل لفظ مكان لفظ، فمثلا: إذا استعملت الشفة، وهى موضوعة للإنسان مكان جحفلة الفرس كما فى قول الشاعر:

فبتنا جلوسا لدى مهرنا ننزع من شفتيه الصُّفارا[2]

فهذه الاستعارة لا تفيد شيئًا؛ لأنه لا فرق من جهة المعنى بين قوله من شفتيه، وقوله من جحفلتيه... بل الاستعارة ههنا بأن تنقصك شيئًا من الفائدة أشبه، وذلك أن الاسم فى هذا النحو إذا نفيت عن نفسك دخول الاشتراك عليه بالاستعارة، دل ذكره على العضو، وما هو منه، فإذا قلت الشفة، دلت على الإنسان أعنى أنها تدل على أنك قصدت هذا العضو من الإنسان دون غيره، فإذا توهمت جرى الاستعارة فى الاسم، زالت عنه هذه الدلالة بانقلاب اختصاصها إلى الاشتراك...»[3].

فهى ليست غير مفيدة فحسب، بل إنها تنقص الفائدة؛ لأن اسم العضو إذا استعمل فيما وضع له، أفاد الدلالة على العضو، وصاحبه، أما إذا استعير، أفاد العضو وحده[4].

ثانيتها: أنها يمكن أن تكون مفيدة، وإن بدت لأول وهلة غير مفيدة، وذلك إذا

---

(١) أسرار البلاغة: ٢٠، ٢١.

(٢) الصُّفارُ: ما بقى فى أسنان الدابة من التبن والعلف للدواب كلها. لسان العرب: ٤ / ٢٤٦١ (صفر).

(٣) أسرار البلاغة: ٢١، ٢٢.

(٤) ينظر أسرار البلاغة: ٢١/ ٢٢.

كان القصد منها تشبيه المنقول له بالمنقول عنه مثل: « قولهم إنه لغليظ الجحافل، وغليظ المشافر، وذلك أنه كلام يصدر عنهم في مواضع الذم، فصار بمنزلة أن يقال كأن شفته في الغلظ مشفر البعير، وجحفلة الفرس، وعلى ذلك قول الفرزدق:

فلو كنت ضبيا عرفت قرابتي ولكن زنجيا غليظ المشافر[١]

فهذا يتضمن معنى قولك ولكن زنجيا كأنه جمل لا يعرفني، ولا يهتدي، لشرفي...»[٢].

وهي حينئذ تصبح استعارة مفيدة، ومعنوية، لأنها بنيت على التشبيه، ويتأتى هذا عندما يكون الغرض منها الذم، والقدح، وقد صرح الشيخ بهذا المعنى وهو بصدد بيان تلك الاستعارة، وإلقاء الضوء عليها فقال: «... فإذا كان من شروط هذه الاستعارة أن يؤتى بها في موضع العيب، والنقص، فلا شك في أنها معنوية»[٣].

وكأنه – رحمه الله – يريد أن يعطينا مصباحا منيرا، ونبراسا هاديا، يرشدنا، ويدلنا على الاستعارة المفيدة، وقد أشرت خلال الكلام عن تلك الاستعارة عند (أبي هلال العسكري) إلى أن الشيخ ربما يكون قد أفاد هذه الأمارة منه، وإن كان أكثر حسما من صاحبه؛ لأنه جعلها عندما يراد بها الذم والعيب مفيدة قولاً واحداً، وليست أقرب إلى الصواب فقط كما قال (أبو هلال) وهنا يبرز أمامنا تساؤل مؤداه أن هذه الاستعارة تصبح مفيدة، معنوية، عندما يقصد منها الذم، أو الهجاء، فهل تكون مفيدة أيضاً عندما يراد بها المدح والثناء؟

والجواب أنها تكون مفيدة، وإن كان الشيخ عبد القاهر لم يذكر ذلك صراحة، إلا أنه أتى بمثال تعتبر فيه من قبيل المدح، وجعلها فيه من جنس المفيد، فقد قال: «.... وأما قول الأعرابي كيف الطلا وأمه؟ فمن جنس المفيد أيضاً؛ لأنه أشار إلى

---

(١) أورد الخطيب القزويني بيت الفرزدق، وهو يعرض كلام الشيخ عبد القاهر حول الاستعارة التي تكون مفيدة في مواضع الذم برفع كلمة (زنجي) على أنه خبر لكن واسمها محذوف يدل على ذلك أنه قال عقب البيت (أي ولكنك زنجي كأنه جمل لا يهتدي لشرفي) فجعل ضمير الخطاب المحذوف اسم (لكن) خلافا لما ذكره الشيخ عبد القاهر الذي أورده بنصب (زنجيا) على أنه اسم (لكن) وخبرها محذوف، وتقديره لا يعرف قرابتي. ينظر بغية الإيضاح: ١٠٣/٣.

(٢) أسرار البلاغة: ٢٥. (٣) المرجع نفسه: ٢٧.

شيء من تشبيه المولود بولد الظبي، ألا تراه قال ذاك بعد أن انصرف عن السخط إلى الرضا، وبعد أن سكن عنه فورة الجوع الذى دعاه إلى أن قال ما أصنع به آكله أم أشربه؟ حتى قالت المرأة غرثان فاربكوا له»(١).

واستعارة الطلا وأمه لمولود الإنسان وأمه من قبيل الاستعارة المفيدة كما أشار إلى ذلك الشيخ عبد القاهر، وهى لا تدخل ضمن استعارة الأعضاء، إنما هى استعارة ذات لذات، ومفهوم ذلك أن الاستعارة بين الذوات تندرج تحت مسمى الاستعارة غير المفيدة، إذا لم يقصد منها المدح، أو الذم، وإن كان الشيخ لم يذكرها صراحة، لكن دلنا عليها تمثيله لها، ولعله كان يلوح من بعد إلى استعارة الذوات وغيرها عندما قال:

« ... وماشاكل ذلك من فروق »(٢) بعد أن عدد طرفا من أسماء الأعضاء التى تقع بينها الاستعارة اللفظية، أو غير المفيدة، وهذه العبارة الفضفاضة تدخل بين طياتها ما عدا الأعضاء من ذوات، وغيرها، وبناء على ذلك يمكننا أن نقول إن كل شيء يعلم من طريق اللغة أنه مختص بشيء معين، ثم يستعار لشئ آخر يناظره، يمكن أن يعد من هذه الاستعارة، وتجرى عليه أحكامها، وسيأتى قريبا – إن شاء الله تعالى – أن الزمخشرى أدخل ضمن الاستعارة اللفظية أشياء لم يذكرها الشيخ عبد القاهر قياسا – فيما يبدو – على ما ذكره.

هاتان الوجهتان أبداهما الشيخ فى أوائل (أسرار البلاغة) ولو أنه اكتفى بهما، لا عتبر موقفه من هذه الاستعارة متلائما متناسقا، فهى استعارة غير مفيدة إذا وضع اسم عضو أو نحوه مكان آخر أو نحوه فقط، فإذا قصد منها التشبيه كانت مفيدة، لكنه ذكر فى أواخر (أسرار البلاغة) وجهتين أخريين ذكر فى أولاهما ما يعتبر إلغاء

---

(١) المرجع نفسه: ٢٧، ٢٨ وقد ذكر صاحب لسان العرب مورد هذا المثل فقال: « ... وفى المثل غرثان فاربكوا له، وأصل هذا المثل أن رجلا قدم من سفر، وهو جائع، وقد ولدت امرأته غلاما فبشر به، فقال ما أصنع به آكله أم أشربه؟ ففطنت له امرأته، فقالت غرثان فاربكوا له، فلما شبع قال كيف الطلا وأمه؟ معنى المثل أنه غرثان جائع فسووا له طعاما يهجأ غرثه... ٣ / ١٥٧١ (ربك)، ومعنى يَهْجَأ غَرَثُه: يسكن جوعه. نفسه ٦ / ٤٦١٤ (هجأ).

والربيكة كما فى لسان العرب: التمر والسمن يعمل رخوا. ٣ / ١٥٧١ (ربك) (ويضرب هذا المثل لمن قد ذهب همه، وتفرغ لغيره) نقلا من أسرار البلاغة تحقيق هـ ريتر: ٣٨.

(٢) أسرار البلاغة: ٢١.

لهذه الاستعارة، ورجوعا عنها، وذكر فى أخراهما ما يعتبر اعتدادا بها، وإبقاء عليها، فقال فى الأولى :

« واعلم أن الواجب كان ألا أعد وضع الشفة موضع الجحفلة، والجحفلة فى مكان المشفر، ونظائره التى قدمت ذكرها فى الاستعارة، وأضن باسمها أن يقع عليه، ولكن رأيتهم قد خلطوه بالاستعارات، وعدوه معدها، فكرهت التشدد فى الخلاف، واعتددت به فى الجملة، ونبهت على ضعف أمره بأن سميته استعارة غير مفيدة »[١].

وهكذا نراه قد صدف عن تلك الاستعارة، وقلب لها ظهر المجن، وضن عليها أن تكون فى عداد الاستعارات، لكنه وجد الذين سبقوه، قد خلطوها بالاستعارات، فسايرهم على ذلك، وكره التشدد فى الخلاف، وعدها منها فى الجملة، ونبه على ذلك بجعلها استعارة غير مفيدة.

وربما كان مقصد الشيخ عبد القاهر من قوله (ولكنى رأيتهم قد خلطوه بالاستعارات عدوه معدها) « قدامة » و« الآمدى » و« أبا هلال العسكرى » فقد أشاروا – كما أسلفت – إلى هذه الاستعارة إشارات سريعة، وإن كانت نظراتهم إليها متفاوتة.

ولو أنه أنهى كلامه حول هذه الاستعارة عند هذا الحد الذى وصل إليه، وبقى متمسكا باعتبارها لا تستحق أن تسلك فى زمرة الاستعارات، لكان موقفه منها واضحا محددا، واعتبر كلامه هنا إلغاء، ونسخا لما قاله فى أوائل كتابه، لكنه ذكر عقب كلامه السابق وجهة أخرى، مضمونها أن هذه الاستعارة ليست خلوا من الفائدة، ولا صفرا من المبالغة فإن فيها فائدة أقل من الاستعارة المفيدة، وأكثر فى المبالغة، وقوة العلاقة من المجاز المرسل، فهى فى منزلة بين المنزلتين –كما يقولون – يقول فى هذا الشأن – « ووجه شبه هذا النحو الذى هو نقل الشفة إلى موضع الجحفلة بالاستعارة الحقيقية لأنك تنقل الاسم إلى مجانس له، ألا ترى أن المراد بالشفة، والجحفلة عضو واحد، وإنما الفرق أن هذا من الفرس، وذاك من الإنسان، والمجانسة، والمشابهة من واد واحد، فأنت تقول أعير الشىء اسم الموضوع له هنالك أى فى الإنسان ههنا أى فى الفرس؛ لأن أحدهما مثل صاحبه، وشريكه فى جنسه، كما أعرت الرجل اسم الأسد؛ لأنه شاركه فى صفته الخاصة به، وهى الشجاعة البليغة، وليس لليد مع النعمة هذا الشبه، إذ لا مجانسة بين الجارحة، وبين النعمة، وكذلك لا شبه، ولا جنسية بين البعير، ومتاع البيت، وبين المزادة، وبين البعير »[٢].

(١) المرجع نفسه : ٣٢٤، ٣٢٥ تحقيق الشيخ محمد رشيد رضا.

(٢) أسرار البلاغة : ٣٢٥.

وهذا الكلام الأخير منه يعتبر اعتدادا بها، وميلا إليها بعد أن بخل عليها باسم الاستعارة، ومنحها الصدود، فأضحى موقفه منها ليس بقاطع، ولا حاسما، وقد أكد هذا المعنى الدكتور محمد أبو موسى، وهو يتناول علاقات المجاز المرسل، فقد أشار إلى أن السكاكى جعل هذه الاستعارة مجازا مرسلا غير مفيد، أو خاليا من الفائدة ثم قال:

« ... وقد جرى بعض الدارسين بعده على طريقته، والذى أغرى بذلك هو موقف عبد القاهر الذى لم يتحدد تحديدا قاطعا فيها؛ فقد ذكرها استعارة غير مفيدة، ثم رجع عن هذه التسمية، ثم ذكر ما يشبه تبرير ذكر هذا الضرب فى الاستعارة، وأنه أولى بها من إطلاق اليد على النعمة... ثم يقرر أن الاستعارة يجب أن تقتصر على ما علاقته المشابهة »(١).

وعلى الرغم من أنه كان مترددا فى قبولها أو رفضها -كما سبق بيانه- إلا أنه بذل جهداً كبيراً فى تحويل معظم شواهدها التى أوردها فى (أسرار البلاغة) إلى استعارة معنوية مفيدة، إذا لوحظ فيها شبه بين المستعار منه، والمستعار له، وبذلك فتح لمن جاء بعده باب القياس على تلك الشواهد التى حولها من استعارة غير مفيدة عند النظرة الأولى التى توصف بأنها حمقاء إلى استعارة مفيدة عند إنعام النظر، واستقصاء التأمل، - فمثلا - قول الشاعر:

سأمنعها أو سوف أجعل أمرها ... إلى ملك أظلافه لم تشقق

الذى جعله « قدامة » قبيحا لا شك فى قباحته(٢) تناوله الشيخ عبد القاهر فجعل الاستعارة فيه قائمة على التشبيه، وأبعد عن البيت ما توهم فيه من قبح، فقد قال بعد أن أورده:

« ... هو فى حد التشبيه والاستعارة؛ لأن المعنى على أن الأظلاف لمن تزيى بالملك عن مشابهة، كأنه قال أجعل أمرها إلى ملك، لا إلى عبد جاف متشقق الأظلاف، ويدل على ذلك أن (أبا بكر بن دريد) قال فى أول الباب الذى وضعه للاستعارة: (يقولون للرجل إذا عابوه جاء حافيا متشقق الأظلاف) ثم أنشد البيت،

---

(١) التصوير البيانى: ٣٤٦ الطبعة الثانية ١٩٨٠م مكتبة وهبة.

(٢) ينظر كتاب الصناعتين: ٣٣٢.

فإذا كان من شروط هذه الاستعارة أن يؤتى بها فى موضع العيب، والنقص، فلا شك فى أنها معنوية»(١).

والذى أود أن أؤكده بعد استعراض موقفه من الاستعارة غير المفيدة أنه إذا لوجظ فيها التشبيه، صارت مفيدة، وخرجت عن دائرة اللفظية، أو غير المفيدة، ويتجلى ذلك عندما تساق فى مجال الذم، والهجاء، أو المدح، والثناء.

* * *

الاستعارة غير المفيدة عند الزمخشرى

كان تفسير القرآن الكريم هو الميدان الرحب الفسيح الذى بث فيه صاحب الكشاف آراءه البلاغة، التى أفادها ممن سبقوه، وخاصة الشيخ عبد القاهر الجرجانى، فقد استوعب فكره البلاغى، وطبقه على بلاغة القرآن الكريم، وقد عرض لهذه الاستعارة فى مواضع من (كشافه)، وترددت كلمات الشيخ عبد القاهر فى أثناء كلماته، ويفهم من كلامه أنه يجوز وجودها فى القرآن فقد قال فى قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ .. ﴾ [النور: ٤٥].

«... فإن قلت لم سمى الزحف على البطن مشيا؟ قلت على سبيل الاستعارة كما قالوا فى الأمر المستمر قد مشى هذا الأمر، ويقال فلان لا يتمشى له أمر، ونحوه استعارة الشفة مكان الجحفلة، والمشفر مكان الشفة، ونحو ذلك...»(٢) فنجده قد نظر استعارة المشى للزحف، باستعارة الشفة مكان الجحفلة، والمشفر مكان الشفة، وهذا يشعر أنها استعارة لفظية غير مفيدة، كما ينطق بذلك ظاهر كلامه؛ ولذلك رفض الدكتور محمد جلال الذهبى هذا التنظير منه وتساءل قائلا:

«... ماذا يعنى الزمخشرى بكلامه هذا؟ أيقصد ما قصد الشيخ من قبل، وهو أن الاستعارة إذا وقعت فى اسم يكون اختصاصه بما وضع له من طريق أريد به التوسع

---

(١) أسرار البلاغة: ٢٦، ٢٧.

(٢) الكشاف: ٣ / ٨٠ وأسرار البلاغة: ٢٠، ٢١.

فى أوضاع اللغة كوضعهم للعضو الواحد أسامى كثيرة بحسب احتلاف أجناس الحيوان نحو وضع الشفة للإنسان، والمشفر للبعير، والجحفلة للفرس...»[1].

وأضاف قائلا: «إذا كان الزمخشرى؛ يقصد ذلك فإنا لا نوافقه؛ لأنا نلمح فى استعارة المشى للزحف معنى لا يتحقق بدون هذه الاستعارة، فالحشرة التى بدون أرجل قد يبدو أنها تعانى السير، ولا تقدر عليه، فإذا قيل إنها تمشى أفاد أن الله سبحانه وتعالي قد منحها من القدرة على قطع المسافة ما منحه لصاحبة الأرجل، على أن المشى غير الزحف، وإن كانا مشتركين فى قطع المسافة، أفبعد هذا ندعى أن هذه الاستعارة من قبيل إطلاق الشفة على الجحفلة؟[2].

واضح من كلام الدكتور الذهبى أن استعارة المشى للزحف فى الآية ليست استعارة لفظية، وإنما هى استعارة مفيدة معنوية اعتمدت على التشبيه وليس المقصود منها وضع لفظ مكان لفظ فقط، وهذا هو الذى يتلاءم مع بلاغة القرآن الكريم.

والزمخشرى – رحمه – الله – وإن كان قد اكتفى فى آية النور بتنظير استعارة المشى للزحف باستعارة الشفة مكان الجحفلة، فإنه قد صرح فى موضع آخر من تفسيره باسم الاستعارة اللفظية غير المفيدة، فقد قال فى قوله تعالى: ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رءوس الشَّيَاطِينِ ﴾ [الصافات: ٦٥].

«والطلع للنخلة فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم إما استعارة لفظية، أو معنوية»[3].

والذى يظهر من قوله: (... إما استعارة لفظية أو معنوية) أنه يجعل احتمال وجودها فى الآية مساويا لاحتمال وجود الاستعارة المعنوية المفيدة.

ولو أننا نظرنا إلى الاستعارة فى تلك الآية بمنظور الشيخ عبد القاهر، لوجدنا – والله أعلم – أنها سيقت لذم شجرة الزقوم، والتنفير منها، وتبغيض الناس فيها، وفى مكانها، فهى دون ريب استعارة معنوية مفيدة، مبنية على تشبيه طلع شجرة الزقوم برءوس الشياطين.

---

(١) الفخر الرازى والبلاغة العربية: ٣٥٦، ٣٥٧ رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية اللغة العربية بالقاهرة.

(٢) المرجع نفسه: ٣٥٧.

(٣) الكشاف: ٣/٣٠٢.

ونلحظ أن الزمخشرى قد وسع دائرة الاستعارة اللفظية، التى يمكن أن تصير معنوية مفيدة بملاحظة التشبيه فيها، وأدخل فيها أشياء لم ينص الشيخ عبد القاهر عليها صراحة مثل استعارة المشى للزحف، واستعارة طلع النخلة لطلع شجرة الزقوم، وهذا يعطينا دليلا على أنها يمكن أن تتسع لكلمات جديدة، وآفاق عديدة.

* * *

الاستعارة غير المفيدة عند السكاكى والخطيب

بعد هذه الرحلة التى صحبنا فيها الاستعارة غير المفيدة من عهد «قدامة» التى أماط اللثام عنها، إلى عهد «السكاكى» الذى أسدل الستار عليها نجد أنها لم تحظ بدراسة متأنية عميقة، ونظرة شاملة إلا على يد الشيخ عبد القاهر الذى شعب القول فيها، وجعل منها موضوعا له خصائصه، وعناصره، بخلاف السكاكى الذى منيت على يديه بالجمود، ولم تتقدم قيد شعره، فقد استطاع أن يحولها إلى مجاز مرسل خال من الفائدة، ولعله نظر إلى أن الشيخ عبد القاهر جعلها فى إحدى نظراته التى قدمتها استعارة خالية من الفائدة، ولكنها على كل حال فيها نقل للكلمة من وضعها الأصلى إلى غيره، فهى جديرة فى نظر «السكاكى» بأن تكون مجازا؛ لما فيها من مجرد النقل، فاعتبرها مجازا لغويا خاليا من الفائدة، فقد قال:

«المجاز اللغوى الراجع إلى معنى الكلمة غير المفيدة، هو أن تكون الكلمة موضوعة لحقيقة من الحقائق مع قيد، فتستعملها لتلك الحقيقة لا مع ذلك القيد، بمعونة القرينة، مثل أن تستعمل المرسن، وأنه موضوع لمعنى الأنف مع قيد أن يكون أنف مرسون استعمال الأنف من غير زيادة قيد، بمعونة القرائن كقول العجاج:

... وفاحما ومرسنا مسرجا

يعنى أنفا يبرق كالسراج، أو مثل المشفر، وهو موضوع للشفة مع قيد أن تكون شفة بعير استعمال الشفة، فتقول فلان غليظ المشفر فى ضمن قرينة دالة على أن المراد هو الشفة لا غير...»(١).

ثم أضاف السكاكى قائلا:

---

(١) المفتاح: ١٧٢ مطبعة مصطفى البابى الحلبى ط الأولى ١٩٣٧م.

« ... سمى هذا القبيل مجازا لتعديه عن مكانه الأصلى، ... ولغويا لاختصاصه بمكانه الأصلى بحكم الوضع، وغير مفيد لقيامه مقام أحد المترادفين من نحو ليث، وأسد، وحبس، ومنع عند المصير إلى المراد منه... »[١] والمتأمل فى كلام « السكاكى » يجد أنه – رحمه الله –أخذ بعض كلمات الشيخ عبد القاهر حول الاستعارة غير المفيدة، وتصرف فيها بمهارة فائقة، ومنطق صائب، فجعل اختصاص العضو بما وضع له فى الأصل قيدا، فإذا أطلقت الكلمة من قيدها، أفادت معنى العضو مطلقا؛ ولذلك سمى هذا الصنيع الإطلاق بعد التقييد، أو الإطلاق، والتقييد[٢] وبذلك يكون « السكاكى » قد أسدل الستار على الاستعارة غير المفيدة، فتحولت على يديه إلى مجاز مرسل خال من الفائدة[٣] فكأنها بدأت بالشيخ عبد القاهر وانتهت به.

وكان جهد اللاحقين من علماء البلاغة هو شرح كلام الشيخ عبد القاهر، والسكاكى فى هذا المجاز، فقد شرح كلامهما الخطيب القزوينى، فذكر أن « السكاكى » قسم المجاز المرسل إلى خال عن الفائدة، ومفيد، وجعل الخالى عن الفائدة ما استعمل فى أعم مما هو موضوع له، نحو قولنا فلان غليظ المشافر، إذا قامت قرينة على أن المراد هو الشفة لا غير[٤].

وأضاف أن الشيخ عبد القاهر « جعل الخالى عن الفائدة ما استعمل فى شيء بقيد مع كونه موضوعا لذلك الشيء بقيد آخر من غير قصد التشبيه، ومثله ببعض ما مثله الشيخ صاحب المفتاح ونحوه مصرحا بأن الشفة والأنف موضوعان للعضوين المخصوصين من الإنسان، فإن قصد التشبيه، كان اللفظ استعارة... »[٥].

ونلحظ هنا أن الخطيب القزوينى نظرا، لأنه كان معنيا فى الدرجة الأولى بتلخيص ما فى كتاب (مفتاح العلوم) من مباحث بلاغية قدم كلام « السكاكى » على كلام « عبد القاهر » فذكر أنه مثل لهذا المجاز ببعض ما مثل به صاحب المفتاح.

---

(١) المرجع السابق والموضع.

(٢) ينظر – مثلا – المطول، لسعد الدين التفتازانى: ٣٥٧ مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠هـ وبغية الإيضاح: ٣/١٠٣.

(٣) وينظر المفتاح أيضا: ١٩٦.

(٤) بغية الإيضاح: ٣/١٠٢.

(٥) المرجع نفسه والموضع.

والواقع أن «السكاكى» هو الذى مثل ببعض ما مثّله الشيخ عبد القاهر، فهو المتقدم، والفضل للمتقدم -كما يقولون-.

وإذا كان «السكاكى» قد جعل هذا المجاز مرسلا غير مفيد، واعتبره الشيخ عبد القاهر فى بعض نظراته صفرا من الفائدة، فإن «العصام» - رحمه الله - حكم على الاستعارة غير المفيدة بأنها كذب صراح، وإفك محض، حين قال: «ولا يخفى أنك إذا قلت رأيت مشفر زيد، وقصدت الاستعارة، وليس مشفره غليظا، فهو حكم كاذب»(١).

وإنما كانت حينئذ محض الكذب، لأن الاستعارة تتوقف على التشبيه ابتداء، فإذا لم يكن ثمة غلظ فى شفة «زيد» لم يكن ما يصلح لأن يكون وجه شبه(٢) ويبدو مما قاله «العصام» أنه يرى أن تلك الاستعارة إذا لم يقصد منها التشبيه تكون خالية من الفائدة - أية فائدة - عديمة الجدوى، لا تستحق أن تحتسب فى عداد الاستعارات، أو تسلك فى سلكها كما ذكر الشيخ عبد القاهر الجرجانى فى إحدى نظراته إليها.

* * *

(١) الأطول: ٢/١١٨، ١١٩ طبعة الآستانة ١٢٨٤هـ.

(٢) ينظر حاشية الانبابى على الرسالة البيانية، للصبان: ١/١١٣، المطبعة الأميرية، ط الأولى ١٣٥١هـ.

الفصل الثانى

الاستعارة بين أسماء الذوات

الاستعارة بين أسماء الذوات

رأينا – فيما مضى –أن الشيخ عبد القاهر الجرجانى أجرى هذه الاستعارات بين أسماء الذوات، مثل استعارة الطلا، وهو ولد الظبى لولد الإنسان، وأجراها كذلك بين أسماء الأعضاء، مثل استعارة الشفة وهى موضوعة للإنسان للفرس، وترك الباب مفتوحا أمام استعارة غيرهما عندما قال: « .... وماشاكل ذلك من فروق »[1].

ولذلك وجدنا الزمخشرى قد وسع دائرة هذه الاستعارة، وأجراها بين أشياء لم يتطرق إليها الشيخ عبد القاهر صراحة، مثل استعارة المشى للزحف، واستعارة طلع النخلة لطلع شجرة الزقوم.

وقد عثرت فى كتاب (لسان العرب) على استعارات من هذا النوع، بعضها ورد ذكره عند الشيخ عبد القاهر، وبعضها لم يرد ذكره، ومنها ما هو من قبيل استعارة اسم ذات لذات أخرى، أو استعارة اسم عضو لعضو آخر، وغير ذلك وقد قست النظير على النظير، والمجهول على المعلوم، وأرجو أن أكون قد وفقت فى فهم الاستعارات التى لم يأت لها ذكر فى كتب البلاغة المشهورة من قبل.

فمن استعارة اسم ذات لذات أخرى، استعارة الأطلاء، وهى أولاد الظباء لفسلان[2] النخل، وهى استعارة بين حيوانات، وأشجار، والمستعار منه أولاد الظباء أعنى الأطلاء، والمستعار له، صغار النخل، جاء فى لسان العرب:

« ... واستعار بعض الرجاز الأطلاء لفسيل النخل فقال:

دُهْمًا كأن الليل فى زُهائها   لا ترهبُ الذئبَ على أطْلائها[3]

يقول إن أولادها إنما هى فسيل، فهى لا ترهب الذئب لذلك؛ فإن الذئاب

---

(١) أسرار البلاغة: ٢١.

(٢) الفسيلة: الصغيرة من النخل، والجمع فسائل وفسيل، والفسلان: جمع الجمع. لسان العرب: ٥/٣٤١٤ (فسل).

(٣) زُهاؤها: شخوصها، وأطلاؤها: أولادها يعنى فسلانها.

ينظر لسان العرب: ٢/١٤٤٤ (دهم).

لا تأكل الفسيل»[١] واضح أن الراجز ينظر إلى هذه النخل وصغارها نظرة إعجاب ورضا، وغبطة وسرور؛ لحسن منظرها، ونضارة خضرتها، فأضفى عليها صفات الظباء في حسنها ورقتها، وبهائها ورونقها، فاستعار الأطلاء لفسائلها[٢] وكلماته شاهدة على ذلك؛ فقد وصفها بأنها دهم أى خضراء، وحديقة دهماء مدهامة أى خضراء تضرب إلى السواد، وفى التنزيل العزيز ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٤] أى سوداوان من شدة الخضرة من الرى[٣] فهى ولا ريب استعارة مفيدة لملاحظة مشابهة بين المستعار منه، والمستعار له، وليست مجرد نقل اسم مكان اسم آخر.

وكأن هذا الرجّاز يشير من طرف خفى إلى أنه يعيش فى أرض مَذْأَبَة غير آمنة، ولا مطمئنة، تعدو الذئاب فيها على الناس، والحيوانات، فهو يغبط هذه النخيل على ما تتمتع به من أمن واطمئنان على نفسها وأولادها.

ومما هو بسبيل من ذلك استعارة الهَجْمَة وهى «القطعة الضخمة من الإبل، وقيل هى ما بين الثلاثين إلى المائة....»[٤] – للكثير من النخيل فى عظيم نفعها وكثرة أحمالها، وهى كسابقتها طرفاها حيوانات، وأشجار، المستعار منه الهجمة من الإبل، والمستعار له، الكثير من النخل جاء فى لسان العرب:

«.. واستعار بعض الشعراء الهجمة للنخل محاجيا بذلك فقال:

إلى الله أشكو هجمة عربية أضرَّ بها مرُّ السنين الغوابر

فأضحت روايا تحمل الطين بعدما تكون ثمالَ المقترين المفاقر[٥]

---

(١) لسان العرب: ٤/ ٢٧٠٠ (طلى).

(٢) حكى صاحب اللسان عن بعض اللغويين أن الطلا هو الصغير من كل شىء، وعلى ذلك يكون إطلاقه على الصغير من كل شىء حقيقة عندهم: ٤/ ٢٧٠٠ (طلى).

(٣) لسان العرب: ٢/ ١٤٤٤ (دهم).

(٤) المصدر نفسه: ٦/ ٢٦٢٤ (هجم).

(٥) الروايا – جمع راوية البعير. لسان العرب: ٣/ ١٧٨٥ (روى) والثمال – بكسر الثاء – الغياث. نفسه: ١/ ٥٠٦ (ثمل).

والمقترين: المضيق عليهم فى الرزق.

ينظر لسان العرب: ٥/ ٣٥٢٥ (قتر).

والمفاقر: وجوه الفقر لا واحد لها، وأغنى الله مفاقره أى وجوه فقره.

لسان العرب: ٥/ ٣٤٤٥ (فقر).

ويبدو أن هذا الشاعر كان لا يعرف عدد تلك الإبل والنخيل على وجه الدقة والتحديد يؤكد ذلك أن الهجمة عددها غير معين، وقد أورد فيه صاحب اللسان عدة أقوال(١).

ويظهر من كلمات الشاعر أنه يذكر فضل هذه النخيل فى سالف عهدها، وأنها كانت معطاء، تحمل الكثير من البسر والرطب، ولكن مر السنين أضر بها، وجعلها عديمة النفع، إما لأنها أصبحت لا تثمر لقدم سنها، أو، لأنها قلعت من أماكنها، وقطعت سوقها، ووضعت فى بعض الأماكن، أو فى سُقُف بعض البيوت تحمل الطين، فأضحت تشبه الإبل التى تحمل الطين بعد أن كانت تحمل ما طاب من الطعام والشراب، وغيرهما، وقد كانت هذه النخيل فى عهدها الغابر تغيث بثمارها الفقراء، والمحتاجين تطعمهم، وتسد خلتهم، ولسان حال ذلك الشاعر يقول ما قاله أمير الشعراء بعده بسنين عددا:

أهذا هو النَّخْلُ مَلْكُ الرياض ... أميرُ الحقول عروسُ الْعِزَبْ
طعامُ الفقير وحلوى الغنىّ ... وزادُ المسافر والمغتربْ
وأنتن فى البيد شاة الْمُعيل ... جناها بجانب أخرى حَلَبْ(٢)

وعلى ذلك تكون استعارة الهجمة من الإبل للكثير من النخل استعارة مفيدة؛ لأنها مبنية على التشبيه، وملاحظة الصفات المشتركة بين الإبل والنخيل.

ومن هذا القبيل استعارة اسم ولد الأتان(٣) لابن الإنسان، فطرفاها حيوان وإنسان، الحيوان مستعار منه، والإنسان مستعار له، جاء فى لسان العرب «التولب ولد الأتان من الوحش».

... ويقال للأتان أم تولب، وقد يستعار للإنسان قال أوس بن حجر يصف صبيا:

---

(١) ينظر لسان العرب: ٦ / ٢٦٢٤ (هجم).

(٢) ديوان أحمد شوقى: ٤ / ٦٤ من قصيدة النخيل ما بين المنتزه وأبى قير.

(٣) الأتان: الحمارة والجمع آتُن، وأُتُن، وأُتْنٌ، وفى حديث ابن عباس - رضى الله عنهما - جئت على حمار أتان، الحمار يقع على الذكر والأنثى، والأتان والحمارة الأنثى خاصة. لسان العرب: ١ / ٢١ (أتن).

وذاتُ هِدْمٍ عارٍ نواشرها   تصمت بالماء تولبا جَدِعًا(١)

وإذا كانت أم هذا الطفل تلبس ثوبا خلقا مرقعا، وابنها سيء الغذاء، لا تجد أمه أمامها ما تسد به رمقه إلا الماء تسكنه به، فهما في غاية المسكنة، والفقر المدقع، وقد استعار الشاعر التولب، وهو ولد الحمارة، لابن هذه المرأة، ليبرز مدى هزاله، وضعفه، وسوء حاله، كل ذلك يوحي بأنها استعارة مفيدة؛ لأنها تعتمد على التشبيه، وادعاء اتصافه بصفات التولب الذى ساء غذاؤه، ونضب رواؤه، وشحب لونه، وضعف عظمه، ومناسبة القصيدة التى منها هذا البيت ترشح تلك المعانى، وتساندها؛ فهو من قصيدة يرثى بها الشاعر فضالة بن كلدة، ومطلعها من المطالع الرائعة فقد بدأها بقوله:

أيتها النفس أجملى جزعا   إن الذى تحذرين قد وقعا
إن الذى جمع السماحة والنجـ   ـدة والحزم والقوى جمعا
الألمعى الذى يظن بك الظـ   ـن كأن قد رأى وقد سمعا

إلى أن قال:

ليبكك الشَّرْبُ والمدامة والْفِتْـ   ـيانُ طرا وطامع طمعا
وذات هدم.................   ....(٢)

فهذه المرأة المسكينة تبكى هذا المرثى؛ لأنه كان ملجأ لها، وغوثا لأمثالها من الضعفاء والمحاويج، وما قلته حول هذا البيت يعتبر غيضا من فيض، وقليلا من كثير مما ذكره شيخ البلاغة العربية عبد القاهر الجرجانى حول هذا البيت فقد قال:

« ... فأجرى التولب على ولد المرأة، وهو لولد الحمار فى الأصل، وذلك لأنه يصف حال ضر وبؤس، ويذكر امرأة بائسة فقيرة، والعادة فى مثل ذلك الصفة بأوصاف البهائم، ليكون أبلغ فى سوء الحالة، وشدة الاختلال، ومثله سواء قول الآخر:

وذكرت أهلى بالعرا   ء وحاجة الشعث التوالب

---

(١) لسان العرب: ١/ ٤٣٨ (تلب).
وقد ذكرت معانى كلماته فى موضع سابق أثناء تناول هذه الاستعارة عند «قدامة».
(٢) ديوان أوس بن حجر: ٥٣ - ٥٥ تحقيق وشرح د. محمد نجم، ط ثالثة دار صادر، بيروت ١٩٧٩م.

كأنه قال الشعث التى لو رأيتها حسبتها توالب، لما بها من الغبرة وبذاذة الهيئة»[1].

وقد أولى العلماء ضبط كلمة «جدعا» اهتمامهم، وعنايتهم، فقد قال الشيخ عبد القاهر عقب كلامه السالف ذكره «والجدع فى البيت بالدال غير معجمة حكى شيخنا رحمه الله قال: أنشد المفضل «تصمت بالماء تولبا جذعا» بالذال المعجمة فأنكره الأصمعى وقال: إنما هو (تصمت بالماء تولبا جدعا) وهو السيىء الغذاء، قال فجعل المفضل يصيح، فقال الأصمعى: لو نفخت فى الشبور، ما نفعك تكلم بكلام الحكل[2] وأصب»[3].

وهذا يدل على مدى حرص هؤلاء العلماء على التحفى باللغة العربية، والمحافظة عليها وعلى ألفاظها خالية من التصحيف والتحريف؛ لأنها وعاء القرآن الكريم وحاملة سنة رسول الله ﷺ.

ومن استعارة ذات لذات استعارة الحفان، وهو ولد النعام لصغار الإبل، وتلك الاستعارة طرفاها طائر وحيوان، المستعار منه الطائر، والمستعار له صغار الإبل جاء فى لسان العرب:

---

(١) أسرار البلاغة: ٢٧.

(٢) فى لسان العرب: الحُكْلُ بالضم العُجْم من الطيور والبهائم، وكلام الحكل كلام لا يفهم... ٢/ ٩٥١ (حكل).

(٣) أسرار البلاغة: ٢٧ وقد أورد ابن جنى قصة الخلاف بين المفضل والأصمعى حول ضبط كلمة (جدعا) برواية لا تخرجها عن مضمونها الذى ذكره الشيخ عبد القاهر فقال: «وقال الرياشى حدثنى الأصمعى قال ناظرنى المفضل عند عيسى بن جعفر فأنشد بيت أوس:

وذات هدم عار نواشرها   تصمت بالماء تولبا جذعا

فقلت هذا تصحيف لا يوصف التولب بالإجذاع، وإنما هو (جدعا) وإنما هو السيىء الغذاء قال فجعل المفضل يشغب عليه فقلت تكلم كلام النمل وأصب، لو نفخت فى شبور يهودى ما نفعك شيئًا».

الخصائص، لابن جنى: ٣/ ٣٠٦ تحقيق محمد على النجار دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

وحكى صاحب لسان العرب هذه القصة التى وقعت بين المفضل والأصمعى وفيها زيادة على ما تقدم أنهما تحاكما لغلام من بنى أسد حافظ للشعر «فصدّق الأصمعى وصوّب قوله فقال له المفضل وما الجدع؟ قال السيىء الغذاء»، ١/ ٥٦٨ (جدع).

«... والْحَفَّان ولد النعام، وأنشد لأسامة الهذلي:

وإلا النَّعـــــامَ وحَفَّانَـــــهُ وطُغْيا مـــع الَّلهقِ الناشِطِ[1]

.... قال ابن برى واستعارة أبو النجم لصغار الإبل في قوله:

والحشو من حفّانها كالحنظل[2]

فشبهها لما رويت من الماء بالحنظل في بريقه ونضارته..»[3].

ولا ندرى إن كان أبو النجم يمدح صغار الإبل أم يذمها، وقد ترك الشيخ عبد القاهر هذا الشاهد دون أن يتلمس له وجها من المدح أو الذم حتى يمكن معرفة إفادة هذه الاستعارة من عدمها، بل أبقاه شاهدا على أن الاستعارة فيه لفظية غير مفيدة فقال:

«... وقال آخر: والحشو من حفانها كالحنظل فأجرى الحفان على صغار الإبل، وهو موضوع لصغار النعام»[4] وكلمة (كالحنظل) التي شبه بها صغار الإبل في البريق والنضارة تشعر بمدح صغار الإبل، وعليه تكون الاستعارة مفيدة، لكن ذلك يعارضه أن الشيخ عبد القاهر أبقى هذه الاستعارة شاهدا على أنها استعارة غير مفيدة، وقد تأملت هذا الشاهد مليا، وبحثت في مظان وجود هذه المادة في لسان العرب لعلي أجد سرا في إبقائها لفظية عند الشيخ ضربة لازب، فلم أهتد إلى شيء، ولعله -والله أعلم- أبقاها كذلك، لأنه لا يتأتى فيها المدح؛ لأن صغار الإبل إذا شبهت بالنعام، كان مسخا لها؛ لأن النعام أقمأ منها جسما، وأصغر هيكلا، ولا يتأتى الذم أيضاً؛ لأن تشبيهها بالحنظل في البريق والنضارة يتعارض معه.

---

(١) الطُّغيا: الصغير من بقر الوحش. وبعضهم يفتح الطاء.
لسان العرب: ٢/٩٣٢ (حفف).
والَّلهِق: الأبيض الشديد البياض.
نفسه: ٥/٤٠٨٧ (لهق).
والناشط الثور الوحشي الذى يخرج من بلد إلى بلد نفسه: ٦/٤٨٢٨ (نشط).
(٢) حشو الإبل وحاشيتها: صغارها، وكذلك حواشيها، واحدتها حاشية.
نفسه: ٢/٨٩١ (حشا).
والحنظل: الشجر المر.. واحدته حنظلة.
نفسه: ٢/١٠٢٥ (حنظ).
(٣) لسان العرب: ٢/٩٣٢ (حفف). (٤) أسرار البلاغة: ٢١.

والمخرج من ذلك - فيما أحسب - وأرجو ألا أكون مخطئا - أن هذا الشاهد ليس فيه استعارة، وإنما هو من قبيل الحقيقة، فقد جاء في لسان العرب:

«والحفّانُ فراخ النعام... وربما سموا صغار الإبل حفانا للذكر والأنثى جميعا، وأنشد ابن برى:

والحشو من حفانها كالحنظل(١)

وقوله أيضًا «... وقيل الحفان صغار النعام والإبل، والحفان من الإبل أيضًا ما دون الحقاق..»(٢).

ويكون الشيخ عبد القاهر قد ذكرها من الاستعارة تبعا لقول بعض اللغويين، دون أن يقلب النظر فيها على وجوهه المختلفة.

ومن استعارة ذات لذات استعارة اسم بيض الضبة لاسم بيض الطير فطرفا هذه الاستعارة بيض وبيض، المستعار منه بيض الضبة، والمستعار له بيض الطير جاء في لسان العرب:

«المكْنُ والمكِنُ بيض الضبة والجرادة ونحوهما، قال أبو الهندى واسمه عبد المؤمن بن عبد القدوس:

ومكن الضباب طعام العُريب ... ولا تشتهيه نفوس العجم

... وقوله ﷺ أقروا الطير على مكناتها(٣) ومكناتها بالضم قيل يعنى بيضها على أنه مستعار لها من الضبة؛ لأن المكن ليس للطير... قال أبو عبيد سألت عدة من الأعراب عن مكناتها فقالوا لا نعرف للطير مكنات، وإنما هى وكنات، وإنما المكنات بيض الضباب، قال أبو عبيد وجائز فى كلام العرب أن يستعار مكن الضباب، فيجعل للطير تشبيها بذلك، كما قالوا مشافر الحبش، وإنما المشافر للإبل..»(٤) فالمكن

---

(١) لسان العرب: ٢/ ٩٣٤ (حفن).

(٢) المصدر نفسه: ٢/ ٩٣٢ (حفف).

والحقاق من الإبل جمع حِقٍّ وَحِقَّة، وهو الذى دخل فى السنة الرابعة، وعند ذلك يتمكن من ركوبه. نفسه ٢: ٩٤٣ (حقق).

(٣) ينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٤/ ٣٥٠.

تحقيق طاهر الزاوى وآخر، المكتبة العلمية - بيروت.

(٤) لسان العرب: ٦/ ٤٢٤٩ (مكن).

مستعار من الضباب للطير، وظاهر الأمر ينبىء بأنها استعارة لفظية غير مفيدة، وضع فيها اسم بيض مكان آخر، ولكن واقع الأمر وحقيقته - كما يبدو - أنها استعارة مفيدة؛ لأن بيض الضباب شهيّ عند العرب كما يدل عليه قول شاعرهم الآنف الذكر، فهو أثير لديهم، مفضل عندهم على بيض الطير، ويؤكد ذلك ما جاء «في حديث أبي سعيد لقد كنا على عهد رسول الله ﷺ يهدى لأحدنا الضبة المكون أحب إليه من أن يهدى إليه دجاجة سمينة»(١).

واضح من قول الشاعر ثم هذا الحديث أن العرب تحب بيض الضباب، وتشتهيه، على حين تعافه نفوس العجم وتجتويه، وعلى ذلك تكون استعارة اسم بيض الضباب لبيض الطير استعارة مفيدة، لما فيها من إشعار بمدح بيض الضباب، وكلام أبي عبيد الذى قدمت ذكره صريح فى ذلك حيث جعل مكن الضباب مستعارا للطير عندهم على سبيل التشبيه، كما نظّره باستعارة مشافر الإبل لشفاه الحبش، فكلامه جلى فى أنها استعارة مفيدة.

وقد يجمل هنا أن نعرج على معنى قول الرسول ﷺ فى الحديث المذكور آنفا (أقروا الطير على مكناتها) وقد أورد صاحب لسان العرب فى معناه عدة أقوال أولاها بالقبول ما رواه الأزهرى عن يونس قال: «قال لنا الشافعى فى تفسير هذا الحديث قال كان الرجل فى الجاهلية إذا أراد الحاجة أتى الطير ساقطا أو فى وكره فنفّره، فإن أخذ ذات اليمين مضى لحاجته، وإن أخذ ذات الشمال، رجع، فنهى رسول الله ﷺ عن ذلك، قال الأزهرى والقول فى معنى الحديث ما قاله الشافعى وهو الصحيح»(٢).

فالحديث يأمر المسلمين ألا يتخلقوا بأخلاق الجاهلية، ويطلب منهم أن يقروا الطيور فى أماكنها، ويتركوها فى مواضعها، ولا يزجروها لتطير يمنة أو يسرة، فيتفاءلوا بها، أو يتشاءموا منها، لأنها تصدهم عن مصالحهم، وليس لها تأثير فى جلب نفع، أو دفع ضر.

* * *

---

(١) ينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٤ / ٣٥١.
(٢) لسان العرب: ٦ / ٤٢٥٠ (مكن).

الفصل الثالث

الاستعارة بين أسماء الأعضاء وما يماثلها

الاستعارة بين أسماء الأعضاء وما يماثلها

كانت استعارة أسماء الأعضاء بعضها مكان بعض من أبرز مظاهر الاستعارة غير المفيدة التي عرض لها الشيخ عبد القاهر الجرجاني[1] وهي في الوقت نفسه تعتبر مظهرا من مظاهر ثراء اللغة العربية، وسعة أفقها، واستيعابها لحياة الناس، وما خلق الله في السموات والأرض، فقد وضع العرب للشيء الواحد أسامي كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان مراعاة للفروق والدقائق في المعاني المدلول[2] عليها كوضع البرثن للأسد، والحافر للدواب من الخيل، والبغال، والحمير، والمشفر للبعير، والجحفلة للفرس، وغير ذلك.

وتكون استعارة هذه الأعضاء بعضها مكان بعض من قبيل الاستعارة غير المفيدة، إن وضع اللفظ مكان الآخر، دون ملاحظة التشبيه على ما سلف بيانه، أما إن روعي فيها شبه بين المستعار منه، والمستعار له، فهي استعارة مفيدة، فمن ذلك استعارة برثن الأسد، وهو مخلبه لأصابع الإنسان، فالمستعار منه برثن الأسد، والمستعار له أصابع الإنسان جاء في لسان العرب: «البرثن مخلب الأسد... والبراثن للسباع كلها، وهي من السباع والطير بمنزلة الأصابع من الإنسان، كما قال ساعدة بن جؤية يذكر النحل ومشتار العسل:

حتى أشب لها وطال أبابها   ذو رجلة شثن البراثن جحنب[3]

والجحنب القصير، ليس يهجوه، وإنما أراد أنه مجتمع الخلق...»[4] ففي قول الشاعر (شثن البراثن) استعيرت البراثن لأصابع الرجل الذي يشتار العسل، فهو متين الأصابع قويها، مجتمع الخلق، كأن فيه قوة الأسد، فاستعارة البراثن لأصابع هذا الرجل

---

(١) ينظر أسرار البلاغة: ٢١.

(٢) المرجع نفسه: ٢١ وما بعدها.

(٣) في لسان العرب: أسد شثن البراثن -خشنها، وفي صفته ﷺ شثن الكفين والقدمين أي أنهما تميلان إلى الغلظ والقصر ورجل شثن الأصابع أي غليظها خشنها. ٤: ٢١٩٥ (شثن).

(٤) لسان العرب: ١/ ٢٤٣ (برث).

اعتمدت على التشبيه، فهى استعارة مفيدة، وإن بدت فى أول الأمر غير مفيدة، وضع فيها لفظ مكان لفظ آخر فحسب، لكن المقصود منها إبراز أصابع هذا الرجل فى معرض مخالب الأسد، وقوتها؛ ولذلك عدت استعارة مفيدة.

وفى عكس ذلك نجد أظافر الإنسان، وهى أقل قوة، وحدة من مخلب الأسد، وبرثنه، قد استعيرت لذلك المخلب فى قول زهير بن أبى سلمى:

لدى أسد شاكى السلاح مقذف له لبد أظفاره لم تقلم[1]

فالمستعار منه أظفار الإنسان، والمستعار له برثن الأسد، أو مخلبه، وهذا يعتبر إضعافا لتلك الاستعارة؛ لأن فيها استعارة الأقل قوة للأقوى جاء فى لسان العرب عند الكلام عن استعارة اسم مكن الضباب لبيض الطير:

« ... وجائز فى كلام العرب أن يستعار مكن الضباب، فيجعل للطير تشبيها بذلك، كما قالوا مشافر الحبش، وإنما المشافر للإبل، وكقول زهير يصف الأسد:

لدى أسد شاكى السلاح...... .... البيت

وإنما له المخالب »[2].

فكما يستعار مكن الضباب لبيض الطير، ومشافر الإبل لشفاه الحبش تستعار أظافر الإنسان لمخلب الأسد، وإن كان المستعار منه فى الاستعارة الأخيرة أقل من المستعار له فى وجه الشبه.

واستعارة الأسد للممدوح فى بيت (زهير) مشهورة متداولة فى كثير من كتب البلاغة قديمها، وحديثها - فمثلا - ساقه الخطيب القزوينى فى باب الاستعارة شاهدا على اجتماع التجريد، والترشيح فى البيت فقال:

« وقد يجتمع التجريد والترشيح كما فى قول زهير:

لدى أسد شاكى السلاح مقذف له لبد أظفاره لم تقلم[3]

---

(١) شاكى السلاح أى تام السلاح. ومقذف: أى يقذف به كثيرا إلى الوقائع واللبد جمع لبدة، وهى ما تلبد من شعره على منكبيه ينظر شرح المعلقات السبع، للزوزنى: ٩٨، ٩٩ المكتبة التجارية الكبرى ١٩٦١م.

(٢) لسان العرب: ٤٢٤٩/٦ (مكن). (٣) بغية الإيضاح: ١٤٢/٣.

ولكنه لم يعين موضع التجريد، والترشيح فى البيت، وقد بين ذلك الشيخ عبد المتعال الصعيدى فقال: والاستعارة فى قوله «أسد» و«شاكى السلاح» تجريد، ومقذف تجريد إن كان بمعنى مقذف فى الحروب، وإلا فليس بتجريد، ولا ترشيح، وما بعده إلى آخر البيت ترشيح»[(١)].

فقوله «وما بعده إلى آخر البيت ترشيح» يدل على أنه اعتبر قول زهير: (أظفاره لم تقلم) ترشيحا لاستعارة «أسد» مع أن الأظفار -كما أوردت عن لسان العرب- مستعارة للأسد؛ لأن له المخالب، فهى من ملائمات المستعار له، وهو الرجل الشجاع، فتكون تجريدا، لا ترشيحا، وليس الشيخ الصعيدى - رحمه الله - أوحديا فى اعتبار (أظفاره) ترشيحا بل قال ذلك كثير[(٢)].

وقد أشار الإمام فخر الدين الرازى إلى أن (أظفاره) فى البيت تجريد، لأنها لو كانت ترشيحا، لقال (زهير) لدى أسد وافى المخالب، أو دامى البراثن[(٣)].

وتنبه «العصام» إلى أن تقليم أظفاره أشبه بالتجريد، لا بالترشيح، فقال: «وفى كون عدم التقليم ترشيحا نظر؛ لأن الأسد بعيد عن الوصف بعدم تقليم الظفر، بل هو بالتجريد أشبه؛ لأنه إنما يوصف بعدم تقليم الظفر ما من شأنه التقليم»[(٤)].

فالذى يوصف بعدم تقليم الأظفار الإنسان؛ لأنه الذى يقلم أظفاره، فيكون هذا الوصف ملائما للمستعار له، فهو تجريد.

ومن استعارة الأعضاء بعضها مكان بعض استعارة حافر الدابة لقدم الإنسان، فالاستعارة من حيوان لإنسان المستعار منه الحافر، والمستعار له قدم الإنسان، جاء فى لسان العرب:

... والحافر من الدواب يكون للخيل والبغال، والحمير اسم كالكاهل والغارب،

---

(١) المرجع نفسه هامش: ٣/١٤٢.

(٢) ينظر - مثلا - الإفصاح عما تضمنه الإيضاح من مباحث البيان، للدكتور أحمد محمد الحجار: ١٨٩ دار الاتحاد العربى للطباعة: ١٩٧٣م.

والبيان بين عبد القاهر والسكاكى، للدكتور على البدرى: ١٩٥ ط أولى ١٩٧٧م مطبعة السعادة -القاهرة.

(٣) ينظر نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز: ٩٢ مطبعة الأداب ١٣١٧هـ.

(٤) الأطول: ٢/١٤٤.

والجمع حوافر... ويقولون للقدم حافرا إذا أرادوا تقبيحها، وقد استعاره الشاعر فى القدم قال جبيها الأسد يصف ضيفا طارقا أسرع إليه:

فأبصر نارى وهى شقراء أوقدت بليل فلاحت للعيـــون النواظر[1]

فمــا رقـد الولدان حتى رأيته على البكـر يمريه بســاق وحافــر

ومعنى يمريه يستخرج ما عنده من الجرى»[2].

فقوله (ويقولون للقدم حافرا إذا أرادوا تقبيحها) يدل على أن الاستعارة فى البيت مفيدة؛ لأنها جاءت لغرض الذم لقدم ذلك الطارق فهى قائمة على أساس التشبيه.

وقد تناول الشيخ عبد القاهر استعارة الحافر للقدم فى البيت الذى تقدم ذكره، واعتبر مفيدة أيضًا فقال: «.... وأما قول مزرّد[3].

فما رقد الولدان........... .... البيت

فقد قالوا إنه أراد أن يقول بساق، وقدم، فلما لم تطاوعه القافية، وضع الحافر موضع القدم، وهو وإن كان قد قال بعد هذا البيت ما يدل على قصده أن يحسن القول فى الضيف، وتباعده أن يكون قصد الزراية عليه، أو يحول حول الهزء به، والاحتقار له، وذلك قوله:

فقلت له أهلا وسهلا ومرحبا بهــذا المحيا مــن محــى وزائـــر

فليس بالبعيد أن يكون فيه شوب مما مضَى، وأن يكون الذى أفضى به إلى ذكر الحافر قصده أن يصفه بسوء الحال فى مسيره، وتقاذف نواحى الأرض به، وأن يبالغ فى ذكره بشدة الحرص على تحريك بكره، واستفراغ مجهوده فى نفسه»[4].

ويضيف الشيخ عبد القاهر قائلا: «ويؤنس بذلك أن تنظر إلى قوله قبل:

---

(١) معنى شقراء: ذهب دخانها وذلك أشد لضوئها.

(٢) لسان العرب: ٢/ ٩٢٥ (حفر).

(٣) جاء فى هامش (أسرار البلاغة) تحقيق هـ ريتر أن البيت ليس لمزرّد إنما لجبيهاء الأشجعى، كما صرح به فى جمهرة اللغة، واسمه يزيد بن خيثمة شاعر بدوى فى الدولة الأموية: ٣٥.
وفى لسان العرب (ومزرّد بن ضرار أخو الشماخ الشاعر)، ٢/ ١٨٢٤ (زرد).

(٤) أسرار البلاغة: ٢٥، ٢٦.

وأشعث مسترخى العلابى طوحت به الأرض من باد عريض وحاضر[1]

فأبصر نارى وهى شقراء أوقدت بعلياء نشز للعيون النواظر[2]

وبعده (فما رقد الولدان) فإذا جعله أشعث مسترخى العلابى، فقد قربت المسافة بينه وبين أن يجعل قدمه حافرا ليعطيه من الصلابة، وشدة الوقع على جنب البكر حظا وافرا»[3].

وهكذا استطاع الشيخ بأسلوبه الفذ، وبيانه الخلاب، وعرضه البديع أن يرتفع بهذه الاستعارة من حضيض اللفظية المتهافتة إلى يفاع المعنوية المفيدة، على الرغم من أن القرائن التى تكتنفها، وتحيط بها تشدها إلى تلك اللفظية، فالشاعر لا يريد أن يذم ضيفه الطارق المنتاب عندما جعل قدمه حافرا، وإنما يريد أن يقول إنه أضحى مكدودا من وعثاء السفر، ومكابدة مشقته وشدته، فاستفرغ جهده فى حث بكره على سرعة المسير، ونخسه بقدم صلبة قوية الوقع، كأنها الحافر الصلب الشديد.

وكما استعير حافر الدابة لقدم الإنسان إذا أريد تقبيحها، استعير خف البعير لقدم الإنسان ذما لها جاء فى لسان العرب:

«الخف خف البعير، وهو مجمع فرسن البعير، والناقة تقول العرب هذا خف البعير، وهذه فرسنه... وفى حديث المغيرة غليظة الخف استعار خف البعير لقدم الإنسان مجازا»[4].

فالاستعارة هنا أيضا بين حيوان وإنسان، المستعار منه خف الجمل، والمستعار له قدم المرأة، وكلمات الحديث تنبىء أن هذه المرأة المتحدث عنها غليظة القدم، فاستعار لها خف البعير، يقصد من ذلك ذمها بغلظ قدمها، وخشونة ملمسها، وإذا كانت خشونة القدم، وغلظها عيبا، ولو كان فى الرجال على حد قول المتنبى يذم كافورا:

---

(١) العلابى: جمع علباء وهى عصبة صفراء فى صفحة العنق هامش (أسرار البلاغة) ٢٦.

(٢) النشز: المكان المرتفع. ينظر لسان العرب: ٦/ ٤٤٢٥ (نشز وقد اختلفت رواية الشيخ لهذا البيت عن الرواية التى جاءت فى لسان العرب فى بعض الكلمات، وقد أوردتها فى مطلع الحديث عن هذه الاستعارة.

(٣) أسرار البلاغة: ٢٦.

(٤) لسان العرب: ٢/ ١٢١٣ (خفف) والحديث فى كتاب النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٢/ ٥٥.

وتعجبنى رجلاك فى النعل إننى   أراك ذا نعـــل إذا كنت حـــافيـــا

فإنه يكون فى المرأة أكثر عيبا، وأدعى إلى النفور منها، ومادامت هذه الاستعارة ترمى إلى عيب تلك القدم، وإلحاق النقص بها، والزراية عليها، فإنها تعتبر فى عداد الاستعارة المفيدة، وتحتسب من صميمها وخالصها، وإن كانت بين أعضاء من جنسين مختلفين، ورحم الله عبد القاهر الجرجانى شيخ البلاغة العربية، وإمامها، فهو الذى علمنا كيف نميز بين الاستعارتين المفيدة، وغير المفيدة.

وإذا كان حافر الدواب، وخف البعير قد استعيرا لقدم الإنسان - كما سبق - فإن الظلف، وهو للشاة، والبقرة، والظبى، قد استعير للإنسان كذلك لقصد الذم والعيب جاء فى لسان العرب:

«الظَّلف والظِّلْفُ ظفر كل ما اجتر، وهو ظلف البقرة، والشاة، والظبى، وما أشبهها، والجمع أظلاف ابن السكيت يقال رجل الإنسان، وقدمه، وحافر الفرس وخف البعير، والنعامة، وظلف البقرة، والشاة، واستعاره الأخطل فى الإنسان فقال:

إلى ملك أظلافه لم تشقق

قال ابن برى استعير للإنسان، قال عقفان بن قيس بن عاصم:

سأمنعها أو سوف أجعل أمرها   إلى ملك أظلافه لـــم تشقق[١]

سواء عليكم شؤمها وهجانها   وإن كان فيها واضح اللون يبرق

الشؤم السود من الإبل، الهجان بيضها»[٢].

والذى يهمنا فى المقام الأول هنا أن الأظلاف استعيرت للإنسان، وهى مشعرة بالذم، فتكون الاستعارة مفيدة، لملاحظة شبه بين المستعار منه، والمستعار له، وقد سبق أن أشرت إلى أن (أبا هلال العسكرى) عاب هذه الاستعارة وجعل قبحها متناهيا،

---

(١) سبق ذكر مناسبة هذا الشاهد عند الكلام على تلك الاستعارة عند الآمدى. ونلحظ أن صاحب لسان العرب نسب البيت الذى فيه الاستعارة فى صدر الكلام إلى الأخطل، وفى عجزه إلى عقفان بن قيس، وواضح أنه ينقل فى أول كلامه عن (ابن السكيت) وفى آخره عن ابن برى، ولعله لم يفطن لهذا التضارب. والبيت لعقفان بن قيس، وقد ذكرت ذلك فيما سبق، وينظر (أسرار البلاغة) تحقيق هـ ريتر: ٣٧.

(٢) لسان العرب: ٣/٢٧٥١، ٢٧٥٢ (ظلف).

كأنه يرى أنها متأصلة فى اللفظية عريقة فى عدم الفائدة، لا يرجى أن يتحسس لها وجه من الإفادة، أو يتلمس لها طريقا من الصحة والصواب، ولكن الشيخ عبد القاهر عندما تناولها بعد ذلك بقلمه الممتع، وبيانه المقنع، جعل منها استعارة مفيدة، وأزال عن وجهها هذا القبح، وتلك الدمامة[(١)].

وإذا كان (أبو هلال العسكرى) وعبد القاهر الجرجانى، قد اختلفا فى فهم استعارة واحدة فجعلها أحدهما محض القبح، واعتبرها الآخر مفيدة لا قبح فيها، فإن هذا يؤكد أن هذه الاستعارة لا تختلف فى شكلها، وصورتها خصوصا إذا كانت مقتطعة من سياقها مبتورة عن مناسبتها، ولكنها تختلف فى مضمونها وفحواها، ولذلك تتباين الأفهام فى توجيهها، وتختلف العقول فى الإحاطة بها.

ويستعار للإنسان كذلك مشفر البعير مكان شفته، إذا كانت غليظة، فتكون الاستعارة بين حيوان وإنسان، المستعار منه عضو الحيوان، والمستعار له عضو الإنسان، جاء فى لسان العرب:

« ... والمشفر للبعير كالشفة للإنسان، وقد يقال للإنسان مشافر على الاستعارة... قال الفرزدق:

فلو كنت ضبيا عرفت قرابتى ولكن زنجيا عظيم المشافر[(٢)]

... المشفر للبعير كالشفة للإسنان، والجحفلة للفرس[(٣)] فاستعارة مشافر الإبل للإنسان فى بيت الفرزدق مراد بها ذمه، وتقبيح صورته، لأن الشاعر يهجو من قيل فيه هذا البيت، وبناء عليه تكون تلك الاستعارة مفيدة، لأنها قائمة على التشبيه، ومعتمدة عليه.

ومما هو بسبب من ذلك، ويحسن ذكره هنا أن عظم شفة الإنسان وغلظها،

---

(١) سبق كلام كل منهما حول الاستعارة فى البيت بشىء من البسط عند بيان موقفهما من الاستعارة غير المفيدة.

(٢) ذكر هذا البيت فى أثناء الحديث عن هذه الاستعارة عند الشيخ عبد القاهر الجرجانى، وذكرت هناك أن الخطيب القزوينى أورده فى الإيضاح برفع كلمة (زنجى) خلافا لرواية الشيخ عبد القاهر له بنصبها، وخلافا لرواية لسان العرب المذكورة هنا أيضا، وبينت وجه رفع تلك الكلمة ونصبها.

(٣) لسان العرب: ٤ / ٢٢٨٨ (شفر).

يعتبر عيبا فيه، ولكن عظم مشفر البعير وطوله يعتبر صفة مدح له، وقد ظفرت بهذه الملحوظة في لسان العرب، فقد جاء فيه أن المشفر إذا كان مسترخيا متدليا كان ذلك مما يمدح به البعير، فإذا استعير المشفر المتهدل للإنسان، فإن ذلك يكون عيبا ظاهرا من باب أولى يقول في هذا المعنى:

«... وتهدلت الثمار، وأغصان الشجرة أي تدلت، فهي متهدلة، وفي حديث قسّ وروضة قد تهدلت أغصانها أي تدلت واسترخت؛ لثقلها بالثمر، وفي حديث الأحنف من ثمار متهدلة، وهدل الشيء يهدله هدلا، أرسله إلى أسفل، وأرخاه، والهدل استرخاء المشفر الأسفل هدل هدلا، ومشفر هادل وأهدل، وشفة هدلاء منقلبة عن الذقن، وهدل يهدل هدلا فهو هدل طال مشفره، وبعير هدل منه، وبعير أهدل، وذلك مما يمدح به...»[1] ولم يذكر في لسان العرب لم كان هذا مدحا للبعير، والذي يخطر على البال أن ذلك كان مدحا له؛ لأنه يساعد على تناول الطعام، وقطف أوراق الشجر خصوصا في بلاد العرب التي يشح فيها علف الحيوان، ويندر، فإذا ما استعير هذا التهدل، وذلك التدلي لشفة الإنسان، كان عيبا مفرطا، ولذلك جاء في لسان العرب عقب الكلام الآنف الذكر:

«وقد تهدلت شفته أي استرخت، وإنما يقال رجل أهدل، وامرأة هدلاء مستعار من البعير، وفي حديث ابن عباس أعطهم صدقتك، وإن أتاك أهدل الشفتين[2] الأهدل المسترخي الشفة العليا الغليظها، أي وإن كان الآخذ أسود حبشيا، أو زنجيا، والضمير في أعطهم للولاة، وأولي الأمر»[3].

فإذا كانت استعارة المشافر، وهي غير متدلية، تعيب الإنسان، وتشينه فإن استعارتها له وهي متهدلة أكثر عيبا، وأشد قبحا.

ويستعار للإنسان من الحيوان أيضًا خرطومه، فيكون المستعار منه خرطوم الحيوان، والمستعار له أنف الإنسان جاء في لسان العرب:

«الخرطوم الأنف... أبو زيد الخرطوم والخطم الأنف، وقوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُ

(١) لسان العرب: ٦/٤٦٣٥ (هدل).
(٢) الحديث في كتاب النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٥/٢٥١.
(٣) لسان العرب: ٦/ ٤٦٣٥ (هدل).

عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ [القلم: ١٦] فسره ثعلب فقال يعنى على الوجه قال ابن سيده وعندى أنه الأنف، واستعاره للإنسان؛ لأن فى الممكن أن يقبحه يوم القيامة فيجعله كخرطوم السبع »(١).

ففى معنى الخرطوم عدة آراء، ومعظم العلماء على أنه الأنف، وفى مقدمتهم ابن سيده، واختاره صاحب اللسان فبدأ به كلامه، وهذا هو الذى يتسق مع رأى أغلب العلماء.

وقد ذكر الإمام القرطبى فى تفسيره أن هذه الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة ثم قال: « ولا نعلم أن الله تعالى بلغ من ذكر عيوب أحد ما بلغه منه، فألحقه به عارا لا يفارقه فى الدنيا والآخرة كالوسم على الخرطوم »(٢).

فإذا كانت الآية نزلت فى عيب هذا العتل الزنيم لتلحق به عارا وشنارا، فإن تلك الاستعارة تكون عريقة فى الإفادة، لا يتطرق إليها شائبة من اللفظية، أو عدم الإفادة، فهى مؤسسة على التشبيه، قائمة عليه ولعل الذكر الحكيم قد آثر السمة على الخرطوم، المراد به الأنف؛ لأن المتكبرين من العرب كانوا يشمخون بأنوفهم علوا واستكبارا، فأراد الله عز وجل أن يلحق بهذا الحلاف المهين (الوليد بن المغيرة) إهانة بالغة، وذلا مقيما فى الدنيا، فقد روى أنه خطم على أنفه بالسيف يوم بدر، فلم يزل مخطوما إلى أن مات(٣) وفى الآخرة جزاؤه عذاب أليم يصلاه فى سقر ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ ﴾ [المدثر: ٢٧، ٢٨] ومثل ذلك يستعار الخطم، وهو الأنف، أو الأنف ومقدم الفم يستعار للإنسان، فالاستعارة من حيوان لإنسان كسابقاتها جاء فى لسان العرب:

« ... والخطم من كل دابة مقدم أنفها وفمها... أبو عمرو الشيبانى الأنوف يقال لها المخاطم، واحدها مخطم بكسر الطاء، وفى حديث كعب يبعث الله من بقيع الغرقد سبعين ألفا هم خيار من ينحت عن خطمه المدر(٤) أى تنشق عن وجهه

---

(١) لسان العرب: ٢ / ١١٣٦ (خرطم).
(٢) تفسير القرطبى: ٦٧١٥، ٦٧١٦ ط الشعب. (٣) المرجع نفسه: ٦٧١٥.
(٤) الحديث فى كتاب النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٢ / ٥٠.

الأرض، وأصل الخطم فى السباع مقاديم أنوفها وأفواهها فاستعارها للناس»[1] فالخطم، أو المخطم أو المخاطم مستعارة للناس من الحيوانات المشار إليها، وهذه الاستعارة وإن كان فيها استعارة عضو من الحيوان لواحد من الناس؛ أو استعارة أعضاء الحيوانات لكثير من الناس لا يراد بها إلحاق العيب، أو النقص بالمستعار له، بل المراد بها - والله أعلم - ملاحظة شبه مّا بين طرفى هذه الاستعارة، فهى استعارة مفيدة، جارية على نهج التشبيه، وسائرة على دربه، وهى فى حديث البقيع الذى أورده صاحب اللسان - واضحة الدلالة على هذا الشبه، المشترك بين طرفيها، فهؤلاء الصحابة الأخيار، ومن تبعهم بإحسان، الذين ضم بقيع الغرقد أعظمهم، يبعثون يوم القيامة، ويخرجون من أجداثهم، وقد عفرت الأرض أنوفهم، وأفواههم، ووضعت بصماتها على عرانينهم، فكستها قتامة رقيقة أكسبتها شبها من أنوف هذه الحيوانات، ومقاديم أفواهها، فهى ولا شك استعارة مفيدة، روعى فيها شبه بين المستعار منه، والمستعار له.

وإذا كنا قد رأينا فى كثير من الاستعارات التى تقدمت أن أعضاء الحيوانات قد استعيرت للإنسان، فإن استعارة هذه الأعضاء قد توجد بين حيوان وحيوان، ومن ذلك استعارة الظلف من البقرة ونحوها للخيل جاء فى لسان العرب:

« ... واستعاره - أى الظلف - عمرو بن معد يكرب للأفراس فقال: وخيل تطاكم باظلافها.

ويقال ظُلُوفٌ ظُلّف أى شداد، وهو توكيد لها»[2] فاستعارة الأظلاف من البقر ونحوه للخيل تشعر بشدة وقع حوافر الخيل على من تطؤهم، وتدوسهم تحت سنابكها، ويعزز ذلك المعنى، ويعضده أن الأظلاف مشققة حادة، وربما غاصت فى أجسام من تدوسهم، فهى أشد إيلاما من حافر الخيل، من أجل ذلك كانت هذه استعارة مفيدة، لملاحظة مشابهة بين المستعار منه، والمستعار له.

ومن استعارة عضو مكان عضو يناظره استعارة الجحفلة، وهى ما تقابل شفة الإنسان من الخيل والبغال والحمير لمشافر الإبل، فالمستعار منه ذوات الحافر من الدواب، والمستعار له الإبل، جاء فى لسان العرب:

---

(١) لسان العرب: ٢/١٢٠٣ (خطم). (٢) لسان العرب: ٣/٢٧٥٢ (ظلف).

« .... وجحفلة الدابة ما تتناول به العلف، وقيل الجحفلة من الخيل والحمر والبغال... بمنزلة الشفة من الإنسان، والمشفر للبعير، واستعاره بعضهم لذوات الخف قال:

جاب لها لقمان فى قلاتها(١)

ماء نقوعا لصدى هاماتها

تلهمه لهمـــا بجحفـــلاتها(٢)

وقد أورد صاحب اللسان هذه الأبيات فى موضع آخر من لسانه، وزاد عليها رابعا، وصرح بأن الجحافل استعيرت للإبل، وهى لذوات الحوافر فقال: «واستعار بعض الرجاز (الدرء) لسيلان الماء من أفواه الإبل فى أجوافها؛ لأن الماء يسيل هناك غريبا أيضًا إذ أجواف الإبل ليست من منابع الماء، ولا من مناقعه فقال:

تلهمه لهما بجحفلاتها

يسيل دُرْءا بين جانحاتها

فاستعار للإبل جحافل، وإنما هى لذوات الحوافر»(٣).

ففى هذه الأبيات استعارتان **أولاهما** استعارة الجحفلات من ذوات الحوافر لمشافر الإبل وهذه الاستعارة - فيما يبدو لى - غير مفيدة ألجأ إليها الوزن والقافية، فوضع فيها لفظ مكان لفظ فقط، دون مراعاة شبه بين المستعار منه، والمستعار له، فلا يتراءى فيها إفادة مدح، أو ذم حتى يحكم عليها بأنها مفيدة، أما إنها لا يبدو فيها ذم، فلأن كلمات الأبيات تنادى بأن الإبل أكثر التهاما للماء (تلهمه لهما) كما قال، ويتدفق مندفعا فى أجوافها كما فى البيت الأخير، واستعارة (جحفلاتها) للإبل لو كانت مفيدة، لأشعرت بأن جرعها للماء مثل شرب ذوات الحوافر، وكلمات الأبيات ما عداها تلفظه، وتعانده، فالشاعر- كما يبدو - كان يريد أن يصف الإبل بأنها تجرع الماء بكثرة، فيندفع إلى أجوافها، ولما استعصت عليه كلمة (مشافرها) وضع مكانها (جحفلاتها) فطاش سهمه، ونبت مضاربه، وقد جاء فى لسان العرب عقب هذه الأبيات فى أحد المواضع « ... وأنشد ابن برى...

---

(١) فى لسان العرب: القَلْتُ: النقرة فى الجبل تمسك الماء، وكذلك كل نقرة فى أرض، أو بدن، لعله يريد أجوافها. ٥/٣٧١٥ (قلت).

(٢) لسان العرب: ١/٥٥٢ (جحف). (٣) المصدر نفسه: ٢/١٣٤٧ (درأ).

تسمع للماء كصوت المسحل بين وريديها وبين الجحفل[١]

فجعل للإبل جحافل، وهى لذوات الحوافر»[٢] وقد ذكر الشيخ عبد القاهر هذا البيت ضمن أمثلة الاستعارة غير المفيدة فقال:

تسمع للماء .... البيت

فجعل للإبل جحافل، وهى لذوات الحوافر»[٣]، وأبقى الاستعارة فيه غير مفيدة، ولم يحاول أن يتأول لها وجها من الإفادة والصواب، كما صنع بكثير من الأمثلة التى ساقها لتلك الاستعارة فى (أسرار البلاغة) وربما اتخذ منها هذا الموقف، لأنه وجد فى صدر البيت ما يدل على أن الماء يدخل فى أجواف الإبل مندفعا يسمع خريره، والإبل أولى بذلك من ذوات الحوافر، فكانت استعارة (الجحفل) قلقة فى مكانها غير ملائمة لسياقها.

والثانية استعارة (درءا) فى البيت الأخير من الأبيات المجتمعة التى تقدم ذكرها قريبا، وهو الاندفاع «لسيلان الماء من أفواه الإبل إلى أجوافها؛ لأن الماء إنما يسيل هنالك غريبا أيضاً إذ أجواف الإبل ليست من منابع الماء، ولا من مناقعه»[٤].

وهى استعارة مفيدة من أول أمرها، فلا حاجة إلى بسط القول فيها، وحسبها هذه الإشارة الدالة.

وإذا كانت الجحافل، أو الجحفلة قد استعيرت من ذوات الحوافر إلى الإبل ذوات الخف والمشافر، استعارة بين حيوان وحيوان فإن العضو المناظر لهما، وهو الشفة من الإنسان قد استعير للفرس مكان جحفلته جاء فى لسان العرب « ... والشفتان من الإنسان طبقا الفم الواحدة شفة... وقد تستعار للفرس قال أبو دؤاد:

فبتنا جلوسا على مهرنا ننزع من شفتيه الصُّفارا

---

(١) لسان العرب: ١/٥٥٢ المسحل: الحمار الوحشى، وسحيله أشد نهيقه. لسان العرب: ٢/١٩٥٨ (سحل).

(٢) لسان العرب: ١/٥٥٢.

(٣) عبارة (فجعل للإبل جحافل وهى لذوات الحوافر) ليست موجودة فى أسرار البلاغة تحقيق رشيد رضا، وموجودة فيه تحقيق هـ ريتر: ٣٠.

(٤) لسان العرب: ٢/١٣٤٧ (درأ).

الصفار يبيس البهمى، وله شوك يعلق بجحافل الخيل»[١] فالشفتان في البيت مستعارتان للمهر، وهو ولد الفرس وقد[٢] أورد الشيخ عبد القاهر هذا البيت ضمن أمثلة الاستعارة غير المفيدة، فقال: « .... وقال آخر.

فبتنا جلوســا لدى مهرنا .... البيت

فاستعمل الشفة في الفرس، وهي موضوعة للإنسان....»[٣].

وقد أبقاها في هذا الشاهد غير مفيدة، ولم يحاول أن يتأول لها وجها من وجوه التشبيه حتى يجعلها مفيدة، أسوة بما عمل في أخوات لها، ونظائر، وقد حاولت أن أصل إلى سر إبقائه لها غير مفيدة، فلم أوفق إلى شيء، بل على العكس من ذلك وجدت أن هذه الاستعارة توحي بمدح هذا المهر، وتومىء إلى وصفه بالرقة والرشاقة، فهو ذو جحفلة صغيرة، كأنها شفة طفل صغير، وقد أنزله صاحبه منزلة ابنه الصغير، فأولاه عنايته، وسهر على راحته، والاهتمام بأمره، كأنه وليده الأثير إلى نفسه، وعلى ذلك تكون استعارة مفيدة، لوحظ فيها شبه بين المستعار منه، والمستعار له.

ومن استعارة عضو من حيوان لحيوان استعارة فرسن البعير لظلف الشاة، جاء في لسان العرب:

«والفرسن بالنون للبعير كالحافر للدابة قال ابن سيده الفرسن طرف خف البعير أنثى حكاه سيبويه في الثلاثي قال والجمع فراسن... وفي الحديث لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو فرسن شاة... وقد يستعار للشاة فيقال فرسن شاة والذى للشاة هو الظلف»[٤] فقد تضمن كلام لسان العرب في معنى الفرسن قولين **أحدهما** ما ذكره في صدر كلامه وعجزه، ومضمونه أن الفرسن هو خف البعير كالحافر للدابة، والظلف للشاة، **والثاني** ما نقله عن ابن سيده وهو عنده لا يشمل الخف كله، بل طرفه على حدته، وهو مؤنث، لكن الخف مذكر كما جاء في لسان العرب في موضع آخر « تقول العرب هذا خف البعير، وهذه فرسنه»[٥].

(١) لسان العرب: ٤/٢٢٩٣ (شفه). (٢) ينظر المصدر نفسه ٦/٤٢٨٧ (مهر).
(٣) أسرار البلاغة: ٢١، ونلحظ أن البيت جاء في (أسرار البلاغة) برواية (لدى مهرنا) بدلا منّ رواية (على مهرنا) التي أوردها صاحب لسان العرب، وقد ذكر محقق (أسرار البلاغة) هـ ريتر أن الشيخ نقل البيت عن جمهرة اللغة، وهو فيها غير معزو إلى قائله. هـ ريتر: ٣٠.
(٤) لسان العرب: ٥/٣٣٨١ (فرسن). (٥) لسان العرب: ٢/١٢١٣ (خفف).

والحديث النبوى الشريف الذى أورده صاحب اللسان، واستعيرت فيه فرسن البعير لظلف الشاة جعلنى أتوقف أمام هذه الاستعارة أتساءل هل تكون هذه الاستعارة مفيدة، أو غير مفيدة؟ واستبعدت أن تكون غير مفيدة؛ لأن رسول الله ﷺ أفصح العرب فكلامه منزه عن عدم الإفادة، مبرأ من الركاكة، والضحالة، وإذا كانت مفيدة فما وجه إفادتها؟

ويحسن قبل الإجابة عن هذا التساؤل أن نتعرف إلى المعنى المقصود، والغرض المنشود من هذا الحديث، وهو كما قال بعض الثقات من شراح الحديث «المبالغة فى إهداء الشىء اليسير وقبوله لا إلى حقيقة الفرسن، لأنه لم تجر العادة بإهدائه أى لا تمنع جارة من الهدية لجارتها الموجود عندها لاستقلاله، بل ينبغى أن تجود لها بما تيسر وإن كان قليلا، فهو خير من العدم، وذكر الفرسن على سبيل المبالغة»(١) فالغرض من قوله ﷺ: (ولو فرسن شاة) عدم استقلال الشىء المهدى، واحتقاره، ولو كان شيئا يسيرا، لا يؤبه له، فهو خير من العدم، ويترجم هذا المعنى ما جاء فى الموطأ أن مسكينا استطعم عائشة أم المؤمنين، وبين يديها عنب فقالت لإنسان خذ حبة فأعطه إياها، فجعل ينظر إليها ويعجب، فقالت أتعجب؟ كم ترى فى هذه الحبة من مثقال ذرة»(٢).

وقد قرأت فيما لا أذكر من المراجع أن غرضها - رضى الله عنها - كان تعليم المسلمين، وإلا فإنها كانت غاية فى الكرم والعطاء.

فإذا كان ذلك هو المعنى الذى ترمى إليه هذه الاستعارة فإنه -كما يبدو لى - وأرجو ألا أكون مخطئا - كان يتحقق لو عبر بالظلف على سبيل الحقيقة وقيل - مثلا - ولو ظلف شاة بدلا من (ولو فرسن شاة) وفاء بحق المبالغة المتوخاة؛ لأن ظلف الشاة كما هو مشاهد أصغر بكثير من فرسن البعير، أو خفه، ولا يكاد يبلغ معشار حجمه.

وهنا نصل إلى الإجابة عن التساؤل السابق ما وجه إفادة تلك الاستعارة؟ فأقول إن صاحب لسان العرب قد أورد فى معنى الفرسن قولين كما قدمت.

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى: ٥/ ٢٣٤ - ٢٣٥ الطبعة الأولى ١٩٨٦م دار الريان-للتراث - القاهرة.

(٢) نقلا عن تفسير القرطبى: ٧٢٤٢.

أحدهما: أنه الخف كله.

والثاني: أنه طرف ذلك الخف، وهو عظم ضئيل لا يحفل به، ولا يعبأ بقيمته.

ويبدو لى، وهو اجتهاد منى يمكن أن أكون مخطئا فيه، أو مصيبا أن الذى يتلاءم مع المبالغة التى سيقت من أجلها هذه الاستعارة أن يحمل معنى الفرسن على طرف الخف وحده كما قال ابن سيده، وقد يؤكد هذا الفهم، ويدعمه أن العرب كما جاء فى لسان العرب تذكر الخف، وتؤنث الفرسن[1] فهما شيئان، لا شىء واحد، وبذلك تكون الاستعارة مفيدة، ومتناسقة مع المبالغة المنوطه بها، والمبتغاة منها؛ لأن الفرسن حينئذ يكون أصغر من ظلف الشاة، وأقل قيمة وقدرا منه.

ولا ضير فى أن تبنى استعارة على قول بعض اللغويين دون إجماع منهم، وقد ظهرت لى هذه الحقيقة خلال قراءتى لكتاب لسان العرب، وأقرب مثال يذكر فى هذا المقام أن الشيخ عبد القاهر نفسه جعل (الطلا) مستعارا من ولد الظبى، لابن الإنسان[2] فى قول الأعرابى(كيف الطلا وأمه؟) مع أن بعض اللغويين قد صرح بأن (الطلا) هو الصغير من كل شىء[3].

وقد يستعار عضو من الإنسان لإنسان آخر، أو بعبارة أدق من المرأة للرجل، فتستعار عجيزة المرأة، أو ردفها لعجز الرجل، ومؤخره جاء فى لسان العرب: «وعجيزة المرأة عجزها، ولا يقال للرجل إلا على التشبيه، والعجز لهما جميعا.... وعجز الرجل مؤخره، وجمعه أعجاز، ويصلح للرجل والمرأة، وأما العجيزة فعجيزه المرأة خاصة وفى حديث البراء رضى الله عنه أنه رفع عجيزته فى السجود[4] قال ابن الأثير العجيزة العجز، وهى للمرأة خاصة فاستعارها للرجل»[5].

فالعجيزة أصل فى المرأة، خاصة بها، وإذا استعملت فى الرجل، كانت استعارة مفيدة، لأنها قائمة على التشبيه، وإعطاء عجز الرجل شبها من عجيزة المرأة، وضخامتها، وقد أشار إلى ذلك لسان العرب فى الكلام المتقدم، فقال: «ولا يقال

(١) سبق إيراد كلامه فى مطلع الكلام حول هذه الاستعارة.
(٢) ينظر أسرار البلاغة: ٢٧، ٢٨.
(٣) ينظر لسان العرب: ٤ / ٢٧٠٠ (طلى).
(٤) الحديث فى كتاب النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٣/١٨٦.
(٥) لسان العرب: ٣/٢٨١٨ (عجز).

للرجل إلا على التشبيه» ويؤخذ من ثنايا هذا الكلام أن العرب تمتدح المرأة بكبر عجيزتها؟ ولذلك قال قائلهم:

أبت الروادف والثدى لقمصها   مسّ البطون وأن تمس ظهورا

وإذا الرياح مع العشـى تناوحت   نبهن حاسدة وهجن غيورا[١]

فمدحها بكبر عجيزتها، وضمور خصرها على حد قول الآخر:

هيفاء مقبلة عجـزاء مدبـرة   تَمّت فليس من خلقها أوَدُ[٢]

فهى امرأة كاملة الخلقة، ضامرة البطن والخصر، إذا نظر إليها وهى مقبلة رئى جسمها ممشوق القد، مفتول القوام، وإذا نظر إليها وهى مدبرة بدت ممتلئة الجسم، عظيمة الردف.

وأما الرجل، فيمدحونه بخفة الجسم، ولذلك كانت استعارة العجيزة له فيها ضرب من النقص والعيب، ونوع من عدم الكمال، ولذلك قال طرفه بن العبد مفتخرا بنفسه:

أنا الرجل الضرب الذى تعرفونه   خشاش من كرأس الحية المتوقد[٣]

يقول إن جسمه خفيف اللحم «والعرب تتمدح بخفة اللحم؛ لأن كثرته داعية إلى الكسل والثقل، وهما يمنعان من الإسراع فى دفع الملمات، وكشف المهمات»[٤].

وقد تستعار أجزاء، أو شبهها من النخلة، لما يشبهها من بعض الأشجار، فاستعيرت الكباسة من النخلة لكباسة شجرة الفوفل جاء فى لسان العرب: «والكباسة بالكسر العذق التام بشماريخه، وبسره، وهو من التمر بمنزلة العنقود من العنب، واستعار أبو حنيفة الكبائس لشجرة الفوفل، فقال تحمل كبائس فيها الفوفل مثل التمر. غيره والكبيس ضرب من التمر، وفى الحديث أن رجلا جاء بكبائس من هذه النخل»[٥].

---

(١) ينظر مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف، للشيخ محمد عليان المرزوقى صـ٥١ مطبوع فى آخر الكشاف الجزء الرابع. دار المعرفة – بيروت.

(٢) الأود: العوج. ينظر لسان العرب: ١/١٦٨ (أود).

(٣) معلقة طرفة فى شرح المعلقات السبع، للزوزنى: ٧٨.

(٤) المرجع نفسه والموضع.

(٥) لسان العرب: ٥/٣٨١٢ (كبس).

فاستعارة كباسة النخلة لما يشبهها من شجرة الفوفل يشعر أن كباسة النخلة وبسرها أو رطبها أفضل فى النوع والقيمة الغذائية من مثيلتها فى شجرة الفوفل، وقد بحثت عن معلومات حول هذا الفوفل الذى لا نعرف اسمه ولا رسمه فى بلادنا- فى مبلغ علمى – فوجدت فى لسان العرب أن أبا حنيفة قال: «الفوفل ثمر نخلة، وهو صلب كأنه عود خشب، وقال مرة شجرة الفوفل نخلة مثل نخلة النارجيل[1] تحمل كبائس فيها الفوفل مثل التمر»[2].

ويبدو من كلام لسان العرب حول هذه الاستعارة أن ثمر شجرة الفوفل أقل قيمة وقدرا من ثمار النخيل المعروفة، وإذا كان الأمر كذلك، فإنها تكون استعارة مفيدة؛ لأن فيها إلحاق ناقص بكامل، وإن بدت فى أول الأمر أنها نقل لفظ مكان لفظ.

* * *

(١) النارجيل: جوز الهند واحدته نارجيلة، قال أبو حنيفة أخبرنى الخبير أن شجرته مثل النخلة سواء إلا أنها لا تكون غلباء تميد بمرتقيها حتى تدنيه من الأرض لينا قال ويكون فى القنو الكريم منه ثلاثون نارجيلة. لسان العرب: ٦/٤٣٩٢ (نرجل).

(٢) لسان العرب: ٥/٣٤٨٧ (فوفل).

الفصل الرابع

استعارة أسماء بعض الأعمال مكان بعض

استعارة أسماء بعض الأعمال مكان بعض

رأينا - فيما مضى من هذا البحث - أن من غناء اللغة العربية، ورحابة تعبيراتها واتساع دائرتها تسمية العضو الواحد بأسماء متعددة على حسب أجناس الحيوانات، فالعضو الذى تطأ به الحيوانات الأرض يسمى فى البعير خفا، وفى البقر والغنم والظباء ظلفا، وغير ذلك كما سلف ذكره، وأضيف هنا أن من مظاهر تلك الرحابة، والسعة تسمية العمل الواحد بأسماء مختلفة تبعا لاختلاف أنواع المخلوقات، فاتصال الذكر بالأنثى إن كان فى الإنسان له أسماء معروفه منها النكاح[1]، أو كنايات معلومة منها كما جاء فى القرآن الكريم المسّ كما فى قوله تعالى: ﴿ **لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ...** ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، أو الملامسة كما فى قوله تعالى: ﴿ **أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ** ﴾ [النساء: ٤٣ والمائدة: ٦]، وإن كان فى الطيور، أو الغنم سمى رصعا[2]، واتصال الحمار بالأتان يسمى (بوكا)[3] وغير ذلك.

فإذا نقل اسم هذا العمل، أو الفعل من نوعه المعروف به إلى نوع آخر، فإن ذلك النقل يكون استعارة لفظية غير مفيدة، إن وضع لفظ مكان آخر فقط، أو استعارة مفيدة إن روعى فيها شبه بين المستعار منه، والمستعار له، قياسا على ما أسلفت ذكره من استعارات، - فمثلا -قد يستعار رصع الطائر أنثاه للإنسان جاء فى لسان العرب:

«ورصع الطائر الأنثى يرصعها رصعا سفدها، وكذلك الكبش، واستعارته الخنساء فى الإنسان، فقالت حين أراد أخوها معاوية أن يزوجها «دريد بن الصمة»:

معاذ الله يرصعنى حبركى قصير الشبر من جشم بن بكر

وقد تراصعت الطير والغنم والعصافير»[4].

---

(١) ينظر لسان العرب: ٦/٤٥٣٧ (نكح).
(٢) ينظر لسان العرب: ٤/١٦٥٦ (رصع).
(٣) نفسه: ١/ ٣٨٩ (بوك).
(٤) نفسه: ٣/١٦٥٦ (رصع).

والحبركى كما فى لسان العرب الطويل الظهر، القصير الرجلين، أو الضعيف الرجلين الذى يكاد يكون مقعدا[١].

ويبدو أن استعارة «الرصع» للإنسان فى بيت الخنساء من قبيل الاستعارة المفيدة؛ لأنها تذم «دريدا» ولا ترضاه بعلاً لها؛ لأنه شيخ كبير، ضعيف البنية، سقيم الجسم، تكاد رجلاه لا تستطيعان حمله، فما أحراه بأن يلحق بالطير والعصافير فى ضعفهما، وخراعة جسمهما.

وكان «دريد» وهو فارس «جشم» قد فتن بها، وأراد خطبتها، فتقدم لأبيها، فرحب به، وذهب أبوها إليها ليأخذ رأيها، فرفضت الزواج منه، وأقامت رأيها على أنها شابة فى مقتبل العمر، وهو شيخ أضنته السنون، وقد غضب «دريد» لرفضها وهجاها بشعر منه:

وقاك الله يا ابنة آل عمرو من الفتيان أمثالى ونفسى

فلا تلدى ولا ينكحك مثلى إذا ما ليلة طرقت بنحس[٢]

ومن هذا النوع أيضًا استعارة اسم اتصال الحمار بأنثاه، وبوكه إياها لهذا الفعل من الإنسان جاء فى لسان العرب:

«والبوك سفاد الحمار، وباك الحمار الأتان يبوكها بوكا، كامها، ونزا عليها، وقد يستعمل فى المرأة قال ابن برى وقد يستعار للآدمى، وأنشد أبو عمرو:

فباكها موثق النياط ليس كبوك بعلها الواطواط[٣]

وفى الحديث[٤] أنه رفع لعمر بن عبدالعزيز أن رجلا قال لآخر، وذكر امرأة أجنبية إنك تبوكها، فجلده عمر، وجعله قذفا، وأصل البوك فى ضراب البهائم، وخاصة الحمير[٥]...».

(١) نفسه: ٢/ ٧٥٢ (حبرك).

(٢) ينظر الخنساء شاعرة بنى سليم، للدكتور محمد جابر عبد العال: ٥٩ وما بعدها، سلسلة أعلام العرب إصدار وزارة الثقافة والإرشاد القومى ١٩٦٣م.

(٣) موثق: محكم النياط: عرق يتعلق به القلب الواطواط: الضعيف الجبان تشبيها بطائر الخفاش ينظر لسان العرب (وثق) (نيط) (وطط).

(٤) يبدو أنه يقصد من الحديث معناه اللغوى. (٥) لسان العرب: ١/ ٣٨٩ (بوك).

ويبدو أن تلك الاستعارة ليست مجرد وضع لفظ مكان لفظ حتى تكون استعارة لفظية غير مفيدة، وإنما هى مفيدة، قوامها التشبيه، وكلمات البيت ناطقة بذلك، فالرجل الذى استعير له الفعل (فباكها) موثق النياط، ذو قلب شديد، ولعله - والله أعلم - كان بعلا ثانيا تزوجها بعد الأول، الذى كان ضعيفا، وطواطا، خائر الجسم جبانا رعديدا.

وهنا يبرز تساؤل مؤداه إذا كان الفعل (فباكها فى صدر الشطر الأول من البيت مستعارا كما ذكر، فإن (كبوك) استعمل مع الزوج الأول الذى وصف بأنه وطواط، فكيف يطلق البوك على الفعل الضعيف أيضا؟ والخطب فى ذلك هين، فإن (كبوك) فى الشطر الثانى يمكن أن يكون من قبيل المشاكلة للفعل (فباكها) فى الشطر الأول، وتبقى تلك الاستعارة مفيدة، لا غبار عليها.

وقد لحظت أن لسان العرب بين «الرصع» و«البوك» فى الاستعارتين السابقتين بالسفاد، فقال فى الأول «ورصع الطائر أنثاه يرصعها رصعا سفدها» وقال فى الثانية «البوك سفاد الحمار» يضاف إلى ذلك أن البلاغيين يمثلون لوجه الشبه المتعدد العقلى بحدة النظر، وكمال الحذر، وإخفاء السفاد فى تشبيه طائر بالغراب[1] أفيعنى هذا أنه يستعمل السفاد فى قرب الذكر من الأنثى فى جميع المخلوقات أو أنه خاص ببعضها دون بعض؟

وللإجابة عن هذا التساؤل، قد تتبعت هذه المادة فى لسان العرب فوجدته يقول فى مطلعها: «السفاد نزو الذكر على الأنثى»[2].

ثم نقل عن بعض اللغويين أنه يستعمل فى بعض أنواع المخلوقات دون بعض فقال: « ... الأصمعى يقال للسباع كلها سفد، وسفد أنثاه، وللتيس، والثور، والبعير، والطير مثله»[3].

فعلى ما قاله الأصمعى يكون السفاد خاصا ببعض المخلوقات دون بعض، وقد وجدت الزمخشرى يذكر أنه يستعمل فى الطير دون التعرض للأنواع الأخرى، ويظهر من صنيعهما أن السفاد يستعمل على وجه الحقيقة فى بعض المخلوقات دون بعض،

---

(١) ينظر المنهاج الواضح للأستاذ حامد عونى: ٤٧، وبغية الإيضاح: ٣ / ٣٥.
(٢) لسان العرب: ٣ / ٢٠٢٣ (سفد). (٣) المصدر نفسه والموضع.

ومفهوم هذا أنه إذا استعمل فى غير الأنواع المنصوص عليها يكون استعارة، ولكن ابن منظور والزمخشرى لم يذكرا أن السفاد استعير لشىء من الأحياء، لكن صاحب لسان العرب ذكر أن بعض الشعراء استعار «السفاد» للزند فقال:

«واستعاره – أى السفاد –أمية بن أبى الصلت للزند فقال:

والأرض صَيَّرها الإلهُ طروقةً   للماء حتى كل زند مُسفِدُ(١)

فالاستعارة فى البيت بين حيوان، وخشب، أو نحوه، والمستعار منه قرب ذكران بعض الحيوانات لإناثها، والمستعار له دخول خشبة الزند العليا فى السفلى، لأن «الزند، والزندة خشبتان يستقدح بهما، فالسفلى زندة، والأعلى زند... والزندة العود الأسفل الذى فيه الفرضة(٢) وهى الأنثى»(٣).

وهذه الاستعارة تبدو مفيدة، لملاحظة التشبيه فيها، وفيها جدة وطرافة، لأنها أحيت الجماد، وحركت الساكن، فهى خاصية غريبة، لا يتأتى مثلها إلا للشعراء الأفذاذ الذين أوتوا حظا وافرا من فن القول، وصياغة البيان؛ لأن الشاعر استطاع بحذق ومهارة أن يجمع بين المتباعدين، ويقرن بين الضدين، فالمستعار منه لا يخطر بالبال عند ذكر المستعار له، فأحدهما من وادى الحيوانات، والآخر من وادى الخشب، وشتان ما بينهما، وما أشبه هذه الاستعارة بتلك التى جاءت فى قول الشاعر:

وإذا احتبى قربوسه بعنانه   علك الشكيم إلى انصراف الزائر(٤)

ومن قبيل استعارة «الرصع» و«البوك» من الحيوان أو الطير للإنسان استعارة العسب وهو ضراب الفحل للإنسان جاء فى لسان العرب العسب طرق الفحل أى ضرابه يقال عسب الفحل الناقة يعسبها ويقال إنه لشديد العسب وقد يستعار للناس قال زهير فى عبد له يدعى يسارا أسره قوم فهجاهم:

---

(١) لسان العرب: ٣/٢٠٢٣ (سفد).

(٢) الفرضة: الفرجة أو الثلمة فى الشىء، ولهذا يسمى الأعلى (أبا) والأسفل (أما) يقول ذو الرمة:

وسقط كعين الديك عاورت صاحبى   أباها وهيأنا لموقعها وكرا

(٣) لسان العرب: ٢/١٨٧١ (زند).

(٤) ينظر بغية الإيضاح: ٣/١٢٩.

ولـــولا عسبـــه لـــرددتموه وشر منيحه أيـــر معـــار[1]

قوله (عسب الفحل الناقة) يدل على أن المقصود من الفحل ذكر الإبل، وقد استعار (زهير) عسبه للإنسان- أى عبده - يقول لهؤلاء الذين أسروا عبده لولا قوة عسبه، وشدة ضرابه، لأطلقتم سراحه، وفككتم أسره، ويقصد رميهم، أو رمى نسائهم به، وهو هجاء مقذع، ما كان ينبغى أن يتورط فى مثله (زهير) الشاعر المتزن الرزين الذى مدحه بعد ذلك عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وأثنى على شعره، ولكنها الجاهلية تأبى إلا أن تظهر فى بعض شعره مثل قوله :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم[2]

فإنه يدعو إلى الظلم ابتداء حتى يخشى الناس هذا الظالم فلا يظلمونه، وهو منطق عدوانى بغيض جدير بالمقت والازدراء.

وعلى كل فإن استعارة « العسب » للإنسان استعارة مفيدة؛ لأنها عقدت شبها بين المستعار منه، وهو فحل الإبل، والمستعار له، وهو فرد من الناس، فكأنها أعطت هذا الإنسان قوة فحل الإبل، وشدته.

* * *

---

(١) لسان العرب : ٤ / ٢٩٣٥ (عسب).

(٢) ينظر معلقة زهير فى شرح المعلقات السبع، للزوزنى : ١٠٤ والرواية المشهورة للبيت (يظلم) بدل (يهدم).

الفصل الخامس

استعارة أسماء بعض الأصوات
مكان بعض

استعارة أسماء بعض الأصوات مكان بعض

طوفنا – فيما مضى – حول الاستعارة بين الذوات، وبين الأعضاء وبين الأعمال، ونتطرق هنا– بعون من الله – إلى استعارة بعض الأصوات مكان بعض، فقد عثرت فى لسان العرب على عدد من تلك الأصوات استعير بعضها مكان بعض، فقد يستعار صوت الحيوان للإنسان، أو صوت الحيوان للحيوان، أو صوت الإنسان للإنسان، وغير ذلك، فإذا أريد تقبيح صوت الإنسان، وتشويهه يستعار له صوت الحمار أو البغل، ونحو ذلك جاء فى لسان العرب:

«الشحيج والشحاج بالضم صوت البغل، وبعض أصوات الحمار، وقال ابن سيده هو صوت البغل، والحمار، والغراب إذا أسَنّ، وربما استعير للإنسان... وفى حديث ابن عمر – رضى الله عنهما – أنه دخل المسجد فرأي قاصا صياحا فقال اخفض من صوتك ألم تعلم أن الله يبغض كل شحاج[1] الشحاج رفع الصوت وهو بالبغل والحمار أخص كأنه تعريض بقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ** ﴾ [لقمان: ١٩] وهو الشحاج والشحيج والنهاق، والنهيق»[2].

فاستعارة الشحاج وهو صوت البغل، أو البغل، والحمار، والغراب كما ذكر للإنسان، وهى من الأصوات التى تكره، وتستقبح استعارة تعمد الذم، وإلحاق القدح، والنقص بصوت الإنسان الذى يستعار له هذه الأصوات المنكرة المذممة التى تعافها الأذن وتمجها النفس فهى استعارة مفيدة وإن كان فيها استعارة صوت معين لصوت آخر، لأنه قد لوحظ فيها شبه بين طرفي الاستعارة وكفي صوت الحمار ذما قول لقمان لابنه كما حكى القرآن الكريم ﴿ **إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ** ﴾ وأنكر الأصوات «أوحشها من قولك شيء نكر إذا أنكرته النفوس واستوحشت منه ونفرت والحمار مثل فى الذم البليغ والشتيمة وكذلك نهاقه»[3].

---

(١) الحديث فى كتاب النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٢/٤٤٨.

(٢) لسان العرب: ٤/٢٢٠٤، ٢٢٠٥ (شحج).

(٣) الكشاف: ٣/٢١٤.

وقد يستعار صوت حيوان لحيوان آخر كاستعارة البغام وهو صوت الظبى للناقة، جاء فى لسان العرب:

« والبلدة بلدة النحر، وهى ثغرة النحر وما حولها وقيل هو الصدر من الخف والحافر قال ذو الرمة:

أنيخت فألقت بلدة فوق بلدة   قليل بها الأصوت إلا بغامها(١)

يقول بركت الناقة وألقت صدرها على الأرض وأراد بالبلدة الأولى ما يقع على الأرض من صدرها وبالثانية الفلاة التى أناخ ناقته فيها... والبغام صوت الناقة، وأصله للظبى فاستعاره للناقة »(٢).

فالبلدة فى بيت ذى الرمة لها معنيان الفلاة، وما يقع على الأرض من صدر الناقة، والبغام وهو فى الأصل صوت الظبى مستعار فى البيت لصوت الناقة، ولا شك أن صوت الظبى رقيق رخيم، وصوت الناقة غليظ، فيكون الشاعر قد استعار الصوت الجميل لما هو دونه، فهى استعارة مفيدة؛ لأن فيها إلحاق ناقص بكامل، فالتشبيه مراعى فيها، ولعل الشاعر لم يسمع فى الصحراء إلا صوت الناقة فاستأنس به، وركن إليه فاستعذبه، وطرب له، فجعله بغاما.

وفى البيت كما لا يخفى جناس تام بين بلدة، وبلدة، فقد اتحد لفظهما، واختلف معناهما، وهو محسن بديعي يكسب الكلام جمالا، وبهاء، ويضفى عليه حلاوة، وطلاوة كقوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ**﴾ [الروم: ٥٥] ومن هذا النوع استعارة نعاب الغراب لصوت الديك، وصوت المؤذن، وصوت الرجل فى الفتن جاء فى لسان العرب:

نعب الغراب وغيره.... صاح، وصوت، وهو صوته، وقيل مدّ عنقه، وحرك رأسه فى صياحه... وربما قالوا نعب الديك على الاستعارة قال الشاعر:

وقهوة صهباء باكرتها   بجهمة والديك لم ينعب(٣)

---

(١) بغام الظبية صوتها، وبغمت بغاما وبغوما صاحت إلى ولدها بارخم ما يكون من صوتها. ينظر لسان العرب: ١/ ٣٢٠ (بغم).

(٢) لسان العرب: ١/ ٣٤١ (بلد).

(٣) الجَهْمَةُ: أول مآخير الليل قريب من وقت السحر. ينظر لسان العرب: ١/ ٧٤٠ (جهم).

ونعب المؤذن كذلك وأنعب الرجل إذا نعر فى الفتن[1] .....»

فالنعاب صوت الغراب، ويقال نعيبا، ونعابا أيضًا[2] وهو صوت مكروه مستقبح، وذكر صاحب لسان العرب فى كلامه الذى سلف ذكره أنه ربما يستعار للديك، وصوت الديك ليس بغيضا، ولا مكروها، ولا ثقيلا على النفس، بل هو صوت مألوف قريب من النفس، ولا أدل على ذلك من أن رسول الله - ﷺ - كان يقوم إلى صلاة الفجر إذا سمع صوته، فقد سئلت السيدة عائشة - رضى الله عنها - عن أى العمل كان أحب إلى النبى - ﷺ -؟ فقالت: الدائم ثم سئلت متى كان يقوم؟ قالت يقوم إذا سمع الصارخ[3].

والصارخ هو الديك، وإنما كان يصرخ فى حدود الثلث الأخير ووقت السحر[4] فكيف يكون هذا الصوت العذب الجميل الذى كان رسول الله - ﷺ - يقوم إلى الصلاة فى جنح الليل إذا سمعه؟ كيف يكون مكروها كصوت الغراب؟ حتى يستعار له نعيبه، ويظهر أن صوته لا يكون مذموما إلا إذا كان سببا فى فراق المتحابين والسمار، وقد لمس صاحب لسان العرب هذا المعنى فى موضع آخر فقال:

«العرب تقول أثقل من الزواقى، وهى الديكة تزقو وقت السحر فتفرق بين المتحابين، لأنهم كانوا يسمرون، فإذا صاحت الديكة، تفرقوا، وفى حديث هشام أنت أثقل من الزواقى هى الديكة، واحدها زاق يريد أنها إذا زقت سحرا تفرق السمار والأحباب»[5].

فصوت الديك عندما يكون ثقيلا على قلب من يسمعه يصك سمعه، وينغص عليه أمره، فالسمار، والمتحابون يودون أن يطول الليل، ولا يسفر الصبح، فهو عندهم فى منزلة نعيب الغراب، وفحيح الأفاعى والحيات، والبيت الذى ساقه لسان العرب شاهدا على استعارة النعاب للديك دليل على صدق ذلك الاستنتاج، فقائله سكير

---

(١) لسان العرب: ٦/٤٤٦٩، ٤٤٧٠ (نعب).
(٢) نفس المصدر والموضع.
(٣) ينظر عمدة القارى شرح صحيح البخارى، للإمام العينى: ٦/١٨٩ ط أولى ١٩٧٢م مطبعة مصطفى الحلبى وأولاده.
(٤) المرجع نفسه والموضع.
(٥) لسان العرب: ٣/١٨٤٦ (زقا).

يعاقر الخمر سحرا، ولا يود أن يصحو من سكره، أو يفيق من نشوته، ولا يطيق سماع صوت الديك الذى يشعره بفلق الصبح، وضيائه، ويقطع عليه لذته وهناءه.

ومن الغريب حقا أن يقول لسان العرب عقب كلامه فى استعارة النعاب للديك: «ونعب المؤذن كذلك» ولعله يريد أن النعاب مستعار لصوت المؤذن، كما كان مستعارا لصوت الديك وهذا هو المتبادر من عطفه عليه، فإن صح هذا ، فإننا نتساءل كيف يكون الأذان، وهو شعار الإسلام للإعلان بدخول وقت الصلاة يشبه صوت الغراب؟

يبدو- والله أعلم - أن هذه الاستعارة إنما هى من منظور العصاة الذين يتسترون بظلام الليل، ولا يريدون للصبح أن ينبلج ضوءه، وتهزم جيوشه فلول الظلام، فهى استعارة مفيدة.

بقى من الاستعارات التى أشار إليها صاحب لسان العرب فى كلامه الآنف الذكر قوله «وانعب الرجل إذا نعر فى الفتن» فقد استعير نعاب الغراب لصياح الرجل فى الفتن؛ لأنه صوت شرير، مسعر حرب، يرفع عقيرته فى إثارة الشرور، والتداعى إلى العصبيات الذميمة، فلا عجب أن يكون صوته كصوت الغراب، ولذلك تعتبر هذه الاستعارة مفيدة؛ لملاحظة شبه بين المستعار منه، والمستعار له.

* * *

الباب الثالث

الاستعارة المفيدة

- الاستعارة التصريحية
- الاستعارة المكنية

الباب الثالث

الاستعارة المفيدة

تقـديـم:

الاستعارة المعنوية، أو المفيدة هى التى تتبادر إلى الذهن عند الإطلاق، ويقابلها الاستعارة غير المفيدة، أو اللفظية وهى - أعنى المفيدة ضرب من المجاز اللغوى، أو - إن شئنا الدقة - قلنا إنها قمته، وذروة سنامه، وزبدة عطائه، وقد أشاد بذكرها أرباب البيان، وأبانوا فضلها، ورفعوا قدرها، وأثنوا على أثرها الفاعل فى جمال الأسلوب، وبديع نسجه، وحسن صياغته.

فهذا هو الجاحظ يجلى قدرها، ويبرز سحر بيانها، وفخامة منزلتها فيقول: إنها تجعل «... الأجسام الخرس الصامتة ناطقة من جهة الدلالة، ومعربة من جهة صحة الشهادة على أن الذى فيها من التدبير والحكمة مخبر لمن استخبره، وناطق لمن استنطقه، كما خبر الهزال، وكسوف اللون عن سوء الحال، وكما ينطق السمن، وحسن النضرة عن حسن الحال، وقد قال الشاعر وهو نصيب:

فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

وقال آخر:

متى تك فى عدو أو صديق تخبرك العيون عن القلوب»[1]

وامتدحها أيضاً وأثنى عليها الشيخ عبد القاهر الجرجانى فقد قال ضمن كلام له حولها «اعلم أن الاستعارة فى الحقيقة هى هذا الضرب دون الأول[2] وهى أمد ميدانا، وأشد افتتانا، وأكثر جريانا، وأعجب حسنا وإحسانا، وأوسع سعة، وأبعد غورا، وأذهب نجدا فى الصناعة، وغورا من أن تجمع شعبها وشعوبها، فتحصر فنونها

---

(١) الحيوان: ١ / ٣٤ تحقيق عبدالسلام هارون ط ثانية ١٩٦٥م.

(٢) يقصد من الضرب الأول الاستعارة اللفظية، أو غير المفيدة.

وضروبها، نعم، وأسحر سحرا، وأملأ بكل ما يملأ صدرا، ويمتع عقلا ويؤنس نفسا، ويوفر أنسا، وأهدى إلى أن تهدى إليك أبدا عذارى قد تخير لها الجمال، وعنى بها الكمال....»[1].

وهذا الثناء والإطراء يشمل الاستعارة المفيدة بشتى صورها، وما ينضوى تحت لوائها من فنون وضروب.

* * *

---

(١) أسرار البلاغة: ٤٢ تعليق الشيخ محمود شاكر.

الفصل الأول

الاستعارة التصريحية

١ - الاستعارة الأصلية.

٢ - حول مواقع الأصلية من الإعراب.

٣ - الاستعارة التبعية.

٤ - الاستعارة التمثيلية.

الاستعارة التصريحية

الاستعارة التصريحية هى ما صرح فيها بلفظ المشبه بـه، وقـد أبـان الشيخ عبد القاهر الجرجانى مدلولها، ووضح مضمونها وهو بصدد تقسيم الاستعارة بوجه عام إلى تصريحية ومكنية فقال: «الاستعارة أن تريد تشبيه الشىء بالشىء فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره، وتجىء إلى اسم المشبه به فتعيره المشبه، وتجريه عليه تريد أن تقول رأيت رجلا هو كالأسد فى شجاعته وقوة بطشه سواء، فتدع ذلك وتقول رأيت أسدا...»(١) فالمشبه فى هذه الاستعارة محذوف، ومطوى، والمشبه به، أو المستعار منه هو المذكور على سبيل العارية للمشبه لأجل المبالغة فى التشبيه.

وعلى هذا السنن الواضح، والطريق الملحوب فى بيان مدلولها، سار علماء البلاغة عند تناولهم لتعريفها، وتحديد المراد بها، فقد عرفها السكاكى بقوله: « ... أن يكون الطرف المذكور من طرفى التشبيه هو المشبه به»(٢).

وعرفها بهاء الدين السبكى بقوله «أن يذكر المشبه به مرادا به المشبه»(٣).

وقال الدسوقى « .. إن المراد بالاستعارة فى كلام المصنف – أى الخطيب القزوينى – الاستعارة التصريحية، وهى التى يذكر فيها المشبه به دون المشبه»(٤).

وتكون هذه الاستعارة أصلية، وتبعية كما سيأتى بيانه – إن شاء الله –.

* * *

(١) دلائل الإعجاز: ٦٧، تعليق الشيخ محمود شاكر.
(٢) المفتاح: ١٧٦.
(٣) عروس الأفراح: ٤/ ٤٦، شروح التلخيص.
(٤) حاشية الدسوقى على مختصر السعد: ٤/ ٤٥ شروح التلخيص.

الاستعارة الأصلية

الاستعارة الأصلية هي التي صرح فيها بلفظ المشبه به، وهو المستعار منه، ويكون اسم جنس يصدق على كثير، سواء أكان من أسماء الذوات كأسد، وبحر، وسيف، أو اسم معنى كالنطق، والقتل... وقد عرفها السكاكي بقوله: «هي أن يكون المستعار اسم جنس كرجل، وأسد، وكقيام، وقعود»(١).

وسميت أصلية نسبة إلى الأصل أي الاستقلال، وعدم التبعية لغيرها؛ لكون التشبيه داخلا في المستعار دخولا أوليا(٢).

أو سميت بهذا الاسم نسبة إلى الأصل بمعنى الكثير الغالب، لأن الموجود من أفرادها في الكلام أكثر من أفراد التبعية.

قال الدسوقي - رحمه الله - في حاشيته على مختصر السعد «قوله فأصلية أي فتلك الاستعارة أصلية نسبة للأصل بمعنى الكثير الغالب... ويحتمل أن أصلية نسبة للأصل بمعنى ما كان مستقلا، وليس مبنيا على غيره، ولا شك أن هذه الاستعارة تعتبر أولا من غير توقف على تقدم أخرى تنبني عليها، بخلاف التبعية، أو بمعنى ما انبنى عليه غيره، ولا شك أنها أصل للتبعية، لبنائها عليها»(٣).

وقد تناول صاحب لسان العرب الاستعارة الأصلية على صور متعددة:

إحداها: أن يصرح بلفظ الاستعارة، أو ما اشتق منه، دون أن يصرح أو يشير إلى أنها أصلية، ومن هذا الضرب ما ذكره حول قول أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - تصف رسول الله ﷺ بأنه دخل تبرق أكاليل وجهه(٤) والأكاليل جمع إكليل،

---

(١) المفتاح: ١٧٩.

(٢) ينظر درر العبارات وغرر الإشارات في تحقيق معاني الاستعارات للشيخ أحمد الحموي: ٨، تحقيق الدكتور إبراهيم عبد الحميد التلب.

(٣) حاشية الدسوقي: ٤/ ١١٠، شروح التلخيص.

(٤) لسان العرب: ٥/ ٣٩٢٠ (كلل).

وينظر كتاب النهاية في غريب الحديث والأثر: ٤/ ١٩٧.

وقد بين صاحب اللسان معناه عندما قال: «... والإكليل شبه عصابة مزينة بالجواهر، والجمع أكاليل على القياس، ويسمى التاج إكليلا، وكلله أى ألبسه الإكليل»(١).

هذا معناه الحقيقى، ويتابع صاحب اللسان كلامه حول استعارة الأكاليل لوجه رسول الله ﷺ فيقول: «وفى حديث عائشة - رضى الله عنها - دخل رسول الله ﷺ تبرق أكاليل وجهه... قال - أى أبو عبيد -... فجعلت لوجهه الكريم ﷺ أكاليل على جهة الاستعارة قال - أى أبو عبيد - وقيل أرادت نواحى وجهه، وما أحاط به إلى الجبين من التكلل وهو الإحاطة، ولأن الإكليل يجعل كالحلقة، ويوضع هنالك على أعلى الرأس»(٢).

فما حكاه صاحب اللسان فى بيان تلك الاستعارة يتضمن وجهين:

أحدهما: أنها جعلت الأكاليل تكسو وجهه كله، فوجهه زاهر مضىء مشرق، وقد أشرب بياضه بحمرة، ويمكن أن يؤيد هذا الوجه بما جاء فى صفته ﷺ أنه كان أزهر، ولم يكن بالأبيض الأمهق وهو الشديد البياض الذى لا يخالط بياضه شىء من الحمرة كلون الجص(٣) أى الجير(٤).

الثانى: وهو احتمال ضعيف كما تنبىء صيغة الفعل (قيل) الذى صدر به هذا القول أن عائشة - رضى الله عنها - استعارت الأكاليل لنواحى وجهه وأطرافه؛ لأن الإكليل يشبه الحلقة التى تحيط بوجهه الكريم.

وقد يكون من إتمام الفائدة هنا أن أشير إلى ما ذكره صاحب اللسان فى موضع آخر من أن الأكاليل تيجان ملوك العجم، والعمائم تيجان العرب، فالعمائم عند العرب بمنزلة التيجان للملوك(٥).

ومن هذا الضرب ما ذكره من استعارة (السّن) وهى واحدة الأسنان لعمر الإنسان، وقد صرح فى بيانها بالفعل (استعير) بالبناء للمجهول فقد قال: «السن واحدة الأسنان...»(٦) وهذا - كما هو ظاهر من كلامه - على سبيل الحقيقة، ثم

---

(١) المصدر نفسه، والموضع. (٢) المصدر نفسه.
(٣) ينظر لسان العرب: ٦/٤٢٨٨ (مهق) والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ٢/٣٢١.
(٤) المعجم الوجيز (جصص). (٥) لسان العرب: ١/٤٥٤، ٤٥٥ (توج).
(٦) المصدر نفسه: ٣/٢١٢١ (سنن).

أخذ يلقى الضوء على تلك الاستعارة فقال: «... وقد يعبر بالسن عن العمر... وفى حديث عثمان وجاوزت أسنان أهل بيتى أى أعمارهم يقال فلان سنّ فلان إذا كان مثله فى السن... وسنّ الجارحة مؤنثة ثم استعيرت للعمر، استدلالا بها على طوله وقصره، وبقيت على التأنيث...»(١).

فالسنّ مستعارة للعمر، وهى مؤنثة، وبقيت على تأنيثها ولعل فى تأنيث العمر وهو مذكر إيماء وإشعارا بالمستعار منه – أعنى السن الجارحة –.

قال الزمخشرى – رحمه الله –: «ومن المجاز كبرت سنه، وهو حديث السنّ، وكبير السن، وقد أسنّ(٢) ولا يخفى أن المستعار منه وهو (السنّ) محسوس، والمستعار له وهو العمر معقول.

ومن هذا القبيل الذى صرح فيه بالفعل (استعير) ما ذكره من استعارة (الذوائب) جمع ذؤابة وهى الشعر المضفور من شعر الرأس، للعز، والشرف. قال صاحب لسان العرب:

«وفى حديث دغفل وأبى بكر إنك لست من ذوائب قريش هى جمع ذؤابة، وهى الشعر المضفور من شعر الرأس، وذؤابة الجبل أعلاه، ثم استعير للعز، والشرف، والمرتبة أى لست من أشرافهم، وذوى أقدارهم»(٣).

وهذه استعارة منفية، بالفعل (ليس) والنفى فرع الإثبات، فلا تتصور فى النفى إلا بعد تصور استعارة الذؤابة للرفعة، والعز، والشرف فى الإثبات.

وهذه الاستعارة كسابقتها من استعارة المحسوس للمعقول. وما قاله ابن منظور فى تلك الاستعارة، ونقلته عنه آنفا، هو نص كلام ابن الأثير حولها(٤) دون زيادة أو نقصان.

ومن هذا النمط الذى صرح فيه بالفعل (استعار) وهو بصدد تناول استعارة (المنجل) الذى يحصد به، وتشذب أعواد الشجر، لأسنان الإبل الحادة القاطعة فقد

---

(١) المصدر نفسه: ٣/٢١٢٢، ٢١٢٣ (سنن) والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ٢/٤١٢.
(٢) أساس البلاغة (سنن).
(٣) لسان العرب: ٣/١٤٨٠ (ذأب).
(٤) النهاية فى غريب الحديث والأثر: ٢/١٥١ (ذأب).

قال: «والمنجل ما يحصد به... والمنجل الذى يقضب به العود من الشجر، فينجل به أى يرمى به... واستعاره بعض الشعراء لأسنان الإبل فقال:

إذا لم يكن إلا القتاد تنزعت　　مناجلها أصل القتاد المكالب»[١]

فتلك الاستعارة تصور أن أسنان الإبل حادة تأتى على شجر القتاد من أصله على الرغم من أنه شجر شاك صلب، وفى المثل العربى من دون ذلك خرط القتاد[٢] يضرب للشىء لا ينال إلا بمشقة عظيمة. وغنى عن البيان أن المستعار منه، والمستعار له فى هذه الاستعارة محسوسان.

وكلمة (المكالب) فى قول الشاعر المتقدم تحتاج إلى أن يكشف الغطاء عن معناها، وقد نقبت عنه فى لسان العرب، فوجدت ابن منظور - رحمه الله - قد ذكر أن معنى كلاليب الشجر شوكه فقال: «وكلاليب البازى مخالبه، كل ذلك على التشبيه بمخالب الكلاب، والسباع، وكلاليب الشجر شوكه كذلك، وكالبت الإبل رعت كلاليب الشجر...»[٣].

ومن هذا الفن الذى صرح فيه بالفعل (استعير) بالبناء للمفعول ما ذكره من استعارة عذرة الناس، ونحوها للعيوب، والمساوىء والمقابح فقد قال: «والعُر، والعُرة ذرق الطير، والعرة أيضًا عذرة الناس والبعر... وفى الحديث: إياكم ومشارة الناس؛ فإنها تظهر العرة، وهى القذر، وعذرة الناس، فاستعير للمساوىء والمثالب»[٤].

فكلمة (العرة) فى الحديث.. (فإنها تظهر العّرة) مفعول به، وقد استعيرت لمثالب الناس؛ لأن العيّاب الذى يسبّ الناس، ويشتمهم يقابل بمثل ما اجترح، واقترف، فتظهر المعايب، وتتجلى المساوىء، وواضح أن تلك الاستعارة من قبيل استعارة المحسوس للمعقول.

ومن تلك الصور التى صرح فيها بالفعل (استعير) ما ذكره من استعارة

---

(١) لسان العرب: ٦/٤٣٥٥ (نجل).
(٢) المصدر نفسه: ٥/٣٥٢٥ (قتد).
(٣) لسان العرب: ٥/٣٩١٢ (كلب).
(٤) المصدر نفسه: ٤/٢٨٧٥ (عرر).
وينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٣/٢٠٥.

(الغوغاء) وهو الجراد، لأراذل الناس، ورعاعهم، فقد قال: «... وفي حديث عمر قال له ابن عوف يحضرك غوغاء الناس. أصل الغوغاء الجراد حين يخف للطيران ثم استعير للسّفلة من الناس، والمتسرعين إلى الشر، ويجوز أن يكون الغوغاء الصوت، والجلبة لكثرة لغطهم وصياحهم»(١).

فالاستعارة في كلمة (غوغاء) وهي فاعل الفعل (يحضر) وقد وجهها صاحب لسان العرب تبعا لابن الأثير(٢) توجيهين:

أحدهما: استعارة (الغوغاء) أي الجراد عندما يبدأ في الطيران دون نظام، أو ترتيب، في عجلة، وسرعة، لهؤلاء الناس الذين يسرعون إلى الشر، ويبادرون إليه، دون عقل يردهم، أو حلم يكبح جماحهم، ويكفكف من سورتهم.

الثاني: أن يكون مستعارا من ناحية ضوضائه، وجلبته، لكثرة صخب هؤلاء الناس الرذلاء وضجيجهم، وهي على كلا التوجيهين استعارة محسوس لمحسوس. وفيها تنفير، وذم لهذه الصفات المشينة المعيبة.

ومن الاستعارات التي صرح فيها بالفعل (استعير) ما ذكره من استعارة (الترهات) وهي الطرق الصغار غير الجادة، للباطل، وطرقه الكثيرة الملتوية، فقد قال: «التُّرَّهات، والتُّرُّهات - بفتح الراء المشددة وضمها - الأباطيل، واحدتها ترهة... وهي في الأصل الطرق الصغار المتشعبة عن الطريق الأعظم، الجوهري: الترهات الطرق الصغار غير الجادة.. فارسي معرب، وأنشد ابن بري:

ذاك الذي وأبيك يعرف مالك ... والحق يدفع ترهات الباطل

واستعير في الباطل فقيل الترهات البسابس، والترهات الصحاصح وهو من أسماء الباطل»(٣).

ويلاحظ أن كلمة (ترهات) في ختام كلامه حول تلك الاستعارة وصفت مرة بالبسابس، وأخرى بالصحاصح مما يجعل النفس تتطلع وتطمح إلى معرفة معناهما، وقد وجدت صاحب اللسان - رحمه الله - قد بيّن معنى (البسابس) في موضع آخر

(١) لسان العرب: ٥/٣٣١٧ (غوغ).
(٢) ينظر النهاية في غريب الحديث والأثر: ٣/٢٠٥.
(٣) لسان العرب: ١/٤٣١ (تره).

حين قال: «والبَسْبَسَة السّعاية بين الناس.. والبسابس الكذب... والترهات البسابس هى الباطل..»[1].

وكذلك بين معنى الصحاصح فى موضع لاحق فقال «والترهات الصحاصح هى الباطل...»[2].

فقد بين معنى كل منهما بلفظ الباطل، وعلى ذلك تكون كل منهما صفة كاشفة، ومنها قول معاوية:

تطاول ليلى واعترتنى وساوسى لآت أتى بالترهات البسابس[3]

وهى استعارة محسوس لمعقول، استعيرت الترهات للباطل، لأن الباطل فيه التواء، ويسلك طرقا معوجة، أما الحق، فهو واضح أبلج.

ومن هذا النموذج الذى صرح فيه بالفعل (استعير) ما ذكره من استعارة (النُّعَرَة) وهو ذباب أزرق يدخل أنف البعير، أو الحمر، أو الخيل، للكبر، والأنفة قال صاحب اللسان:

«والنعرة ذباب أزرق يدخل فى أنوف الحمير والخيل والجمع نُعر... وقولهم إن فى رأسه نعرة أى كبرا... ويقال لأطيرن نعرتك أى كبرك وجهلك من رأسك، والأصل فيه أن الحمار إذا نعر ركب رأسه فيقال لكل من ركب رأسه فيه نعرة... وفى حديث عمر رضى الله عنه لا أقلع عنه حتى أطير نعرته، وروى حتى أنزع النعرة التى فى أنفه...»[4].

فاستعمال (النعرة) فى الذباب الأزرق الذى يدخل أنوف الحيوانات التى ذكرها حقيقة لغوية، وتستعار للكبر، والأنفة فقد قال: ««... قال ابن الأثير هو الذباب الأزرق ووصفه وقال يتولع بالبعير، ويدخل فى أنفه، فيركب رأسه، سميت بذلك لنعيرها، وهو صوتها قال – أى ابن الأثير – ثم استعير للنخوة والأنفة، والكبر أى حتى أزيل نخوته، وأخرج جهله من رأسه...»[5].

وفى هذه الاستعارة، وهى من قبيل استعارة المحسوس للمعقول ذم للكبر،

---

(١) المصدر نفسه: ١/ ٢٨٢ (بسبس). (٢) المصدر نفسه: ٤/ ٢٤٠٢ (صحح).
(٣) أساس البلاغة للزمخشرى (تره). (٤) لسان العرب: ٦/ ٤٤٧٢ (نعر).
(٥) لسان العرب: ٦/ ٤٤٧٢ (نعر)، والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ٥/ ٨٠.

والتعالى على الناس، وفيها إيحاء بأن المتكبر يمتلىء رأسه بالطنين الأجوف، والأصوات الفارغة من المضمون التى تشمئز منها النفوس، وتعافها الطباع السليمة، والأذواق الرفيعة.

ومن الاستعارة التى صرح فيها بالفعل (استعار) ما ذكره من استعارة (الْمَسَك[١]) وهى الأسورة[٢] من الخلاخيل أو من الذبل[٣] أو من القرون، أو العاج للماء الذى تدخل فيه الأتن أرجلها فيحيط بها فقد قال: «والمسك الذبل، والمسك الأسورة والخلاخيل من الذبل والقرون، والعاج واحدته مَسَكة... وفى حديث بدر قال ابن عوف ومعه أمية بن خلف فأحاط بنا الأنصار حتى جعلونا فى مثل المسكة أى جعلونا فى حلقة كالسوار، وأحدقوا بنا..»[٤].

فقوله (حتى جعلونا فى مثل المسكة) تشبيه صريح أداته (مثل) وقد أبانه، وأوضحه.

ثم ذكر الاستعارة عقب ذلك التشبيه فقال: «... واستعارة أبو وجزة فجعل ما تدخل فيه الأتن أرجلها من الماء مَسَكا فقال:

حتى سلكن الشوى منهن فى مسك ... من نسل جوابة الآفاق مهداج»[٥]

والشوى الجلد[٦] والمراد به جلد الأرجل.

فالمستعار منه (مسك) وهو محسوس، والمستعار له الماء وهو محسوس أيضاً.

ومن المواضع التى صرح فيها بالفعل (استعار) ما ذكره من استعارة (المصطار) وهو الحامض من الخمر، للبن الطيب الذى لم يتغير طعمه، فقد قال: «المصطار، والمصطارة الحامض من الخمر قال عدى بن الرقاع:

مصطارة ذهبت فى الخمر نشوتها ... كأن شاربها مما به لمم

---

(١) المسك جمع مسكة وهى السوار يقال فى يدها مسكة أى سوار.

(٢) جمع سوار.

(٣) هو ظهر السلحفاة يجعل منه الأمشاط ونحو ذلك.
لسان العرب: ٣/١٤٨٩ (ذبل).

(٤) لسان العرب: ٦/٤٢٠٣ (مسك).

(٥) المصدر السابق نفسه، وينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر: ٤/٣٣١ (مسك).

(٦) لسان العرب: ٤/٢٣٦٨ (شوا).

أى كان شاربها مما به ذو لمم... قال ابن الرقاع أيضاً فاستعاره - أى المصطار - للبن:

نقرى الضيوف إذا ما أزمة أزمت مصطار ماشية لم يعد أن عصرا!

قال أبو حنيفة جعل اللبن بمنزلة الخمر فسماه مصطارا، يقول إذا أجدب الناس سقيناهم اللبن الصريف، وهو أحلى اللبن وأطيبه، كما نسقى المصطار»[1].

ويبدو أن قرينة تلك الاستعارة هى إضافة المصطار للماشية؛ لأن الذى يضاف للماشية هو اللبن، وليس الخمر، وقوله (لم يعد أن عصرا) ترشيح للاستعارة؛ لأنه ملائم للمستعار منه - وهو المصطار.

ومن البين أن المستعار منه والمستعار له فى هذه الاستعارة محسوسان، لأنهما من المذوقات، والغرض من الاستعارة - كما يزعم الشاعر - مدح اللبن وجعله بمنزلة الخمر فى مذاقه، وطعمه.

ومن هذا اللون الذى صرح فيه بالفعل (استعير) ما ذكره من استعارة (الطبع) - بفتح الطاء والباء - وهو الدنس الذى يغشى السيف، للعيوب، والأخلاق السيئة، والآثام. فقد قال: «والطبْع الختم، وهو التأثير فى الطين ونحوه... الطبع بالسكون الختم، وبالتحريك الدنس، وأصله من الوسخ والدنس، يغشيان السيف ثم استعير فيما يشبه ذلك من الأوزار، والآثام، وغيرهما من المقابح»[2].

فالطبع - بسكون الباء - وهو الختم الذى يؤثر فى المختوم تأثيرا حسيا من قبيل الحقيقة كالختم على الطين والشمع - مثلا - والطبع - بالتحريك - ما يعلو السيف، ويغشاه كالصدأ من قبيل الحقيقة أيضاً، ويستعار لما يلطخ صاحبه من المقابح والعيوب والآثام.

وقد مثل الزمخشرى - رحمه - الله - لاستعارة الطَّبع للعيوب فقال: وإن فلانا لطمع طبع، دنس الأخلاق، ورب طمع يهدى إلى طبع وقال المغيرة ابن حبناء:

وأمك حين تنسب أم صدق ولكــن ابنها طَبِعٌ سخيف[3]

(١) لسان العرب: ٦/٤٢١٧ (مصطر).

(٢) لسان العرب: ٤/٢٦٣٥ (طبع).

(٣) أساس البلاغة (طبع).

ومن الصور التي صرح فيها بلفظ (الاستعارة) ما ذكره من استعارة (الطعم) وهو ما يحب ويشتهى فى الشيء المأكول، لمن له قيمة، ومنزلة بين الناس، وعدمه لمن لا اعتداد به، ولا وزن له، فقد قال صاحب اللسان: «والطَّعْم الأكل، والطُّعم ما أكل، وروى الباهلى عن الأصمعى الطُّعم الطعام، والطَّعم الشهوة، وهو الذوق، والطعم ما يشتهى، يقال ليس له طعم، وما فلان بذى طعم إذا كان غثا، وفى حديث بدر ما قتلنا أحدا به طعم، ما قتلنا إلا عجائز صلعا. هذه استعارة أى قتلنا من لا اعتداد به، ولا معرفة له، ولا قدر»[1].

فالمستعار منه كما هو جلى الطعم وهو من المذوقات التى تدرك باللسان محسوس، والمستعار له، وهو القدر، والمنزلة معقول.

وقد حكى صاحب اللسان عن بعضهم ما يجلى هذا المعنى، ويبرزه فى قول الشاعر:

ألا ما لنفس لا تموت فينقضي شقاها ولا تحيا حياة لها طعم

فقال إن معناه لها -أى هذه النفس- حلاوة، ومنزلة من القلب[2].

وذكر صاحب اللسان أيضًا أن الطعم يستعار للعقل والحزم[3].

وهى من استعارة المحسوس للمعقول كذلك، وفى هذا تعزيز للقول بأن اللفظة الواحدة تثمر عدة استعارات، وتخرج الصدفة الواحدة عدة من الدرر[4].

ومن هذا النوع الذى صرح فيه بالفعل (استعار) ما ذكره من استعارة دمع العين، للدسم الذى يسيل من الجفنة المترعة بالطعام فقد قال: «الدمع ماء العين والجمع أدمع ودموع، والقطرة منه دمعة... وعين دموع كثيرة الدمعة، أو سريعتها، واستعار لبيد الدمع فى الجفنة يكثر دسمها، ويسيل فقال:

ولكن ما لى غاله كل جفنة إذا حان ورد أسبلت بدموع

يقال جفنة دامعة، وقد دمعت...»[5].

---

(١) لسان العرب: ٤ / ٢٦٧٤ (طعم).
وينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر: ٣ / ١٢٥.
(٢) لسان العرب: ٤ / ٢٦٧٤ (طعم). (٣) المصدر نفسه. والموضع.
(٤) ينظر أسرار البلاغة: ٤٢، ٤٣. (٥) لسان العرب: ٢ / ١٤٢٢ (دمع).

الاستعارة فى قوله (أسبلت بدموع) يقال أسبلت العين أى سال دمعها[١].

فلفظة (دموع) المجرورة فى عجز البيت مستعارة للدسم، والودك الذى يسيل من الجفنة الممتلئة بالطعام، من استعارة المحسوس للمحسوس.

وكلمة (جفنة) فى البيت معناها الرجل الكريم المضياف، ويبدو مما ذكره صاحب اللسان أنها مجاز مرسل من إطلاق المسبب على السبب، يقول فى ذلك: «والجفنة الرجل الكريم، وفى الحديث أنه قيل له أنت كذا، وأنت كذا، وأنت الجفنة الغراء كانت العرب تدعو السيد المطعام جفنة؛ لأنه يضعها، ويطعم الناس فيها؛ فسمى باسمها، والغراء البيضاء أى أنها مملوءة بالشحم والدهن»[٢] والجفنة فى الأصل أكبر ما يكون من القصاع[٣].

ومن هذا الضرب الذى صرح فيه بالفعل (استعار) ما ذكره من استعارة الرفاهية، وهى لين العيش، وطيبه، للنخل النابتة فى مكان به ماء كثير دائم فقد قال: «الرفاهة والرفاهية.. رغد الخصب، ولين العيش... وأرفههم الله، ورفههم، ورفهنا نرفه رَفْها وَرِفْها ورفوها... واستعار لبيد الرفه فى نخل نابتة على الماء فقال:

يشربن رفهاِ عراكًا غير صادرة   فكلها كارع فى الماء مغتمر[٤]

فهذه النخل تكرع من الماء الذى يجاورها، ويلاصقها، فهى فى رفاهية، وعيش هنيء، والذي يتراءى لى أنها من استعارة المعقول -أعنى الرفاهية، والتنعم للمحسوس، وهو وجود النخل على شاطىء الجدول، أو الغدير، أو ما شاكل ذلك، وكانت هذه صورة نادرة فى بلاد العرب، فغبطها الشاعر على ما هى فيه من نعيم، ورفاهة.

---

(١) ينظر المعجم الوجيز (سبل).

(٢) لسان العرب: ١/ ٦٤٥ (جفن).

(٣) المصدر نفسه ١/ ٦٤٤ (جفن).

(٤) لسان العرب: ٣/ ١٦٩٨ (رفه).

والضمير فى يشربن للنخل، ورفها-كلما شاءت.

وكارع -مقيم منغمس فى الماء، ومغتمر - قد غمره الماء.

وغير صادرة -أى تشرب، ولا تصدر كما تصدر الإبل.

ينظر شرح ديوان لبيد بن ربيعة: ٦٠ حققه، وقدم له الدكتور إحسان عباس - ط وزارة الإرشاد والأنباء بالكويت سنة ١٩٦٢م.

ويبدو أن هذه النخيل كانت كثيرة، فاعتبرها الشاعر (عراكا) أى مزدحمة على الماء كما تزدحم الإبل، إذا وردت الماء، وقد قال صاحب اللسان فى موضع آخر «والعراك ازدحام الإبل على الماء»[١].

ومن هذه الطريقة التى صرح فيها بالفعل (استعير) ما ذكره من استعارة الخسف، وهو حبس الدابة دون علف، للذل والهوان فقد قال: «والخسف والخسف الإذلال قال قيس بن الخطيم:

ولم أر كامرىء يدنو لخسف   له فى الأرض سير وانتواء[٢]

... ويقال سامه الخسف، وسامه خَسفا وخُسفا أيضًا بالضم أى أولاه ذلا... وفى حديث على من ترك الجهاد ألبسه الله الذلة وسيم الخسف، والخسف النقصان والهوان، وأصله أن تحبس الدابة على غير علف، ثم استعير فوضع موضع الهوان»[٣].

وقد جاءت هذه الاستعارة فى قول عمرو بن كلثوم فى معلقته:

إذا ما الملك سام الناس خسفا   أبينا أن نقر الظلم فينا

يقول: إذا ألحق هذا الملك الذل بالناس، منعناه من إقرار الذل فينا، ولم ننقد له كسائر الناس؛ لشجاعتنا على جميع من سوانا[٤].

ومن هذا النهج الذى صرح فيه بالفعل (استعير) ما ذكره من استعارة الساعة وهى الجزء القليل من الوقت لاسم يوم القيامة فقد قال: «الساعة جزء من أجزاء الليل والنهار والجمع ساعات وساع قال القطامى:

وكنا كالحريق لدى كفاح   فيخبو ساعة ويهب ساعا

... والليل والنهار معا أربع وعشرون ساعة والساعة فى الأصل تطلق بمعنيين:
أحدهما: أن تكون عبارة عن جزء من أربعة وعشرين جزءا هى مجموع اليوم والليلة.
والثانى: أن تكون عبارة عن جزء قليل من النهار أو الليل يقال جلست عندك ساعة من النهار أى وقتا قليلا منه، ثم استعير لاسم يوم القيامة»[٥] فالساعة بمعنى الوقت

(١) لسان العرب: ٤ / ٢٩١١ (عرك).
(٢) نوى الشىء وانتواه - قصده - ينظر لسان العرب: ٦ /٤٥٨٨ (نوى).
(٣) المصدر نفسه ٢ /١١٥٨ (خسف) - والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ٢ /٣١.
(٤) ينظر شواهد الكشاف: ١٢٨.   (٥) لسان العرب: ٣ / ٢١٥١.

القليل مستعار ليوم القيامة لأنها تقوم في لمحة خاطفة كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ... ﴾ [النحل: ٧٧].

ومن أجل ذلك تابع صاحب لسان العرب كلامه قائلا: «... قال الزجاج معنى الساعة في كل القرآن الوقت الذي تقوم فيه القيامة، يريد أنها ساعة خفيفة يحدث فيها أمر عظيم فلقلة الوقت الذي تقوم فيه سماها ساعة»(١).

ومن هذا الضرب ما ذكره من استعارة الموت للفقر والذل والسؤال والهرم والمعصية فقد قال: «وقد يستعار الموت للأحوال الشاقة كالفقر والذل والسؤال والهرم والمعصية ومنه الحديث أول من مات إبليس لأنه أول من عصى، وفي حديث موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام قيل له إن هامان قد مات فلقيه، فسأل ربه فقال له أما تعلم أن من أفقرته فقد أمته»(٢).

فقد صرح بالفعل (يستعار) فالموت مستعار منه وهذه الأشياء مستعار لها. ومما هو بسبيل من ذلك وأذكره هنا ليكون الكلام حول استعارة الموت متجاورا ما ذكره من استعارة الموت لأشياء غير التي سبق ذكرها هنا، وسمى الاستعارة فيها مثلا ما ذكره في قوله: «... والموت السكون وكل ما سكن فقد مات وهو على المثل وماتت النار موتا برد رمادها فلم يبق من الجمر شيء، وماتت الريح ركدت وسكنت، ومات الماء بهذا المكان إذا نشفته الأرض وكل ذلك على المثل»(٣).

والموتان من الأرض ما لم يستخرج، ولا اعتمر على المثل، وأرض ميتة وموات من ذلك»(٤).

ثانيتها: أن يعبر عن الاستعارة الأصلية بلفظ التشبيه، أو ما اشتق منه، ولعله راعى في ذلك أصل الاستعارة الذي بنيت عليه، وهو التشبيه.

وأستهل هذا النمط بما أشار إليه من استعارة (الكافور) وهو وعاء طلع النخل،

---

(١) المصدر نفسه والموضع.
(٢) لسان العرب: ٦/ ٤٢٩٥، ٤٢٩٦ (موت).
وينظر النهاية في غريب الحديث والأثر: ٤/ ٣٦٩.
(٣) المصدر نفسه والموضع.
(٤) نفسه.

وأكمام العنب والفواكه، لكنانة النبى ﷺ، وهى جعبة السهام المتخذة من جلود، أو خشب[١] فقد قال:

«والكافور كم العنب قبل أن ينور... وجمع الكافور كوافير... والكافور الطلع. التهذيب كافور الطلعة وعاؤها الذى ينشق عنها؛ سمى كافورا لأنه قد كفرها أى غطاها، وقول العجاج:

* كالكرم إذ نادى من الكافور *

كافور الكرم الورق المغطى لما فى جوفه من العنقود شبهه بكافور الطلع؛ لأنه ينفرج عما فيه أيضا، وفى الحديث أنه كان اسم كنانة النبى ﷺ الكافور تشبيها بغلاف الطلع، وأكمام الفواكه؛ لأنها تسترها وهى فيها كالسهام فى الكنانة»[٢].

فالكافور وهو وعاء طلع النخل مستعار منه، وهو اسم جنس يصدق على كثير، قد استعير لكنانة النبى ﷺ التى كان يضع فيها السهام. وتوحى هذه الاستعارة بأن كنانته ﷺ فياضة معطاء، واعدة، تمتلىء بسهام لا تكاد تنفد، فهى عامرة لا ينضب لها معين، ولا ينقطع لها مدد؛ لأن هذا الكافور يصير طلعه فى المستقبل عذقا كبيرا يمتلىء بالبسر، والرطب.

ولعله من أجل ذلك سميت مصر كنانة الله فى أرضه لأن جنودها فى رباط دائم إلى يوم القيامة.

ويلاحظ أن صاحب اللسان جعل فى وسط كلامه كافور الطلع مستعارا منه، فهو حقيقة، والمستعار له الكنانة، وأكمام الفواكه. وفى آخر كلامه جعل المستعار منه شيئين كافور الطلع، وأكمام الفواكه والمستعار له الكنانة وحدها فالاستعارة فيها.

فنجده قد عبر عن تلك الاستعارة بقوله (... شبهه بكافور الطلع..) وقوله (.. تشبيها بغلاف الطلع..) (والكافور) استعارة، وليس تشبيها، وقد سماها تشبيها باعتبار الأصل.

ومن هذا الضرب الذى عبر فيه بالفعل (شبه) بالبناء للمجهول عن الاستعارة الأصلية ما ذكره من استعارة (الجعفر) وهو النهر للناقة الغزيرة اللبن فقد قال:

---

(١) ينظر لسان العرب: ٥/٣٩٤٣ (كنن).

(٢) لسان العرب: ٥/٣٩٠٠ - ٣٩٠١ (كفر).

«الجعفر النهر عامة... وقيل: الجعفر النهر الملآن، وبه شبهت الناقة الغزيرة قال الأزهرى أنشدنى المفضل:

من للجعافر يا قومى فقد صُريت   وقد يساق لذات الصَّرية الْحَلَبُ

... وبه سمى الرجل»(١).

ومعنى (صريت الناقة) حبس اللبن فى ضرعها، فهى مصرّاة قد تحفل اللبن، وتجمع فى ضرعها، وصَرَى الماء جمعه.

وهذه صورة من صور الغش والتدليس، وهى ترك الناقة، أو غيرها دون حلب أياما حتى يعظم ضرعها، فيرغب فيها من يود شراءها وفى الحديث (التصرية خلابة»(٢).

فالمستعار منه الجعافر، والمستعار له النوق، وهى استعار أصلية، أشار إليها صاحب لسان العرب بقوله: (شبهت الناقة...) وليس فى الكلام تشبيه اصطلاحى، إنما هى استعارة أصلها التشبيه.

ومن هذا اللون الذى أشار فيه إلى الاستعارة الأصلية بالفعل (شبه) ما ذكره من استعارة (الْجَلْس) وهى الصخرة العظيمة للناقة الشديدة، فقد قال:

«والْجَلْسُ الصخرة العظيمة الشديدة... وناقة جلس شديدة مشرفة شبهت بالصخرة، والجمع أجلاس، قال ابن مقبل:

فأجمع أجلاسا شدادا يسوقها   إلىّ إذا راح الرعاء رعائيا

والكثير جلاس، وجمل (جَلْس) كذلك، والجمع جلاس»(٣).

فالمستعار منه (الجلس) وهى الصخرة، وقد عبر عنها بالفعل (شبه) فى قوله (شبهت) بالصخرة، يقصد من ذلك التشبيه الذى بنيت عليه الاستعارة.

والاستعارة فى كلمة (أجلاسا) وهى مفعول به، والقرينة كما يبدو (يسوقها..) لأن الصخرات لا تسوقها الرعاء.

---

(١) لسان العرب: ١/٦٣٦ (جعفر).

(٢) ينظر المصدر نفسه: ٤/٢٤٤١ (صرى) - وأساس البلاغة، للزمخشرى (صرى) - والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ٣/ ٢٧.

(٣) لسان العرب: ١/ ٦٥٨ (جلس).

ومن ذلك أيضًا ما ذكره من استعارة (الغربال) للدف الذى يضرب به، فقد قال «غربل الشىء نخله، والغربال ما غربل به معروف، غربلت الدقيق وغيره.. وفى الحديث أعلنوا النكاح واضربوا عليه بالغربال عَنى بالغربال الدف، شبه الغربال به فى استدارته»(١).

فالغربال مستعار للدف؛ لأن كلا منهما مستدير، وقد عبر عن هذه الاستعارة الأصلية بقوله (شبه الغربال إلخ) والحديث وما بعده منقول عن ابن الأثير(٢).

ويبدو أن قرينة تلك الاستعارة هى (واضربوا عليه) لأن الضرب على النكاح، وإشهاره لا يكون بالغربال، وإنما يكون بالدف.

ومن الأصلية التى ألمع إليها (بالتشبيه) ما ذكره من استعارة (الرؤد) وهو الغصن اللدن الرخص، للفتاة الحسنة الممشوقة القوام فقد قال:

«غصن رءود، وهو أرطب ما يكون وأرخصه... وتراؤده كقولك تواعُدُه تميّله، وتميّحه يمينا وشمالا، والرأدَةُ بالهمزة، والرؤدة، والرءودة، على وزن فَعُولة كله الشابة الحسنة السريعة الشباب، مع حسن غذاء، وهى الرُّؤْدُ أيضًا... وامرأة رادة فى معنى رؤد، والجارية الممشوقة قد ترأد في مشيها، ويقال للغصن الذى نبت من سنته أرطب ما يكون وأرخصه رؤد الواحدة رؤدة وسميت الجارية رُؤْدا تشبيها به»(٣).

(فالرؤد) ونحوه مما ذكره مستعار لهذه الفتاة، وهو اسم جنس يصدق على كثير، فهى استعارة أصلية، ألمع إليها صاحب اللسان بقوله (وسميت الجارية رؤدا تشبيها به) وليس فى كلامه تشبيه، بل استعارة أصلها تشبيه.

ويلاحظ أن كلامه ليس فيه مثال لاستعارة (الرّؤد) لتلك الشابة وقد ظفرت بمثال قد أورده الزمخشرى، وهو بصدد الكلام عن هذا الرؤد فيما أنشده الأصمعى:

تساهم ثوباها ففى الدرع رأدة وفى المرط لفّاوان ردفهما ثقل(٤)

فقوله (فى الدرع رأدة) – فيما يظهر من سياقه –معناه فى الدرع فتاة حسنة.

---

(١) المصدر نفسه: ٥/٣٢٣١ (غربل).
(٢) ينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر: ٣/٣٥٢.
(٣) لسان العرب: ٣/ ١٥٣٢ (رأد). (٤) أساس البلاغة (رأد).

تشبه الغصن الناعم، والقرينة (فى الدرع) لأن الغصن لا يكون فى الدرع، وهو القميص[1] وإنما يكون فيه هذه الحسناء.

ومعنى قول الشاعر (تساهم ثوباها) إما أن يكون من المسهم وهو البرد المخطط وإما أن تكون غيرت لونهما من قولهم ساهم الوجه أى متغيره[2].

ومن هذا الضرب ما ذكره من استعارة (الجفاء) وهو الزبد الذى ينفيه السيل، للمتسرعين من الناس فقد قال:

« وجفأ الوادى غثاءه، يجفأ جفأ رمى بالزبد والقذى، وكذلك جفأت القدرُ رمت بزبدها عند الغليان، واسم الزبد الجُفاء، وفى حديث البراء رضى الله عنه يوم حنين انطلق جفاءٌ من الناس إلى هذا الحىّ من هوازن أراد سَرَعان الناس وأوائلهم شبههم بجفاء السيل »[3].

وقد كرر صاحب اللسان هذا الحديث، وما فيه من استعارة فى موضع آخر فقال: « .. وفى حديث حنين خرج جفاء من الناس قال ابن الأثير هكذا جاء فى رواية قالوا ومعناه سرعان الناس، وأوائلهم تشبيها بجفاء السيل، وهو ما يقذفه من الزبد، والوسخ، ونحوهما »[4].

وسياق الحديث ينبىء أن هؤلاء الناس أشرار من حثالة الناس وسقاطهم، يشبهون الأقذاء، والأوساخ التى يجرفها السيل من الوادى وينقيه منها، قال تعالى: ﴿ .. فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً .. ﴾ [الرعد: ١٧] أن يجفؤه السيل ويرمى به[5].

ويبدو أن قوله فى الحديث « .. من الناس » تجريد للاستعارة؛ لأنه ملائم للمستعار له، وهم رعاع الناس وأراذلهم.

ومن ذلك ما أشار إليه من استعارة (الجعس) و(الجعسوس) وهو العذرة، للئيم

---

(١) فى لسان العرب ودرع المرأة قميصها: ٢ / ١٣٦١ (درع).
(٢) ينظر لسان العرب: ٣ / ٢١٣٥، ٢١٣٦ (سهم).
(٣) لسان العرب: ١ / ٦٣٩ (جفأ).
(٤) المصدر نفسه: ١ / ٦٤٦ (جفن) والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ١ / ٢٧٧.
(٥) ينظر الكشاف: ٢ / ٢٨٥.

الردىء من الرجال فى خلقه، وخلقه فقد قال: الجَعْسُ العذرة... الجُعسوس اللئيم الخلقة والخلق... وكأنه اشتق من الجعس صفة على فعلول، فشبه الساقط المهين من الرجال بالخُرْءِ ونَتْنه.... وفى حديث عثمان رضى الله عنه لما أنفذه النبى ﷺ إلى مكة نزل على أبى سفيان فقال له أهل مكة ما أتاك به ابن عمك؟ قال سألنى أن أخلى مكة لجعاسيس يثرب، الجعاسيس اللئام فى الخلْق والخلق الواحد جُعسوس بالضم ومنه الحديث أتخوفنا بجعاسيس يثرب»(١).

فالاستعارة فى كلمة (جعاسيس) المجرورة باللام مرة، وبالباء أخرى، استعار أبو سفيان وكان لا يزال مشركا عذرات الناس، لأهل يثرب من الصحابة الأجلاء رضوان الله عليهم، ذما لهم، واستخفافا بهم، ولعل قرينة هذه الاستعارة هى إضافة (جعاسيس) ليثرب، وقد عبر عنها صاحب اللسان بقوله: (فشبه الساقط المهين من الرجال بالخرء ونتنه...) وليس فى الكلام تشبيه اصطلاحى، وإنما فيه استعارة أصلية.

وقد نقل مضمونها من قول ابن الأثير «فى حديث عثمان رضى الله عنه لما أنفذه النبى ﷺ إلى مكة نزل على أبى سفيان فقال له أهل مكة ما أتاك به ابن عمك؟ فقال سألنى أن أخلى مكة لجعاسيس يثرب الجعاسيس اللئام فى الخلق والخلق الواحد جعسوس بالضم، ومنه الحديث الآخر أتخوفنا بجعاسيس يثرب»(٢).

ومن ذلك استعارة (المفاليق) وهم المفلسون من المال، للجهلة الخاوين من العلم، فقد قال: «والفيلق الجيش، والجمع الفيالق... وفى حديث الشعبى وسئل عن مسألة فقال ما يقول فيها هؤلاء المفاليق؟ هم الذين لا مال لهم، الواحد مفلاق كالمفاليس، شبه إفلاسهم من العلم، وعدمه عندهم بالمفاليس من المال»(٣).

فمن معانى المفاليق على الحقيقة المفلسون المعدمون من المال، وقد استعار (الشعبى) هؤلاء المفاليق، للصفر من العلم، الخالين من المعرفة، وقد أشير إلى تلك الاستعارة الأصلية بالفعل (شبه) باعتبار الأصل.

---

(١) لسان العرب: ١/٦٣٤ (جعس) - وينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر: ١/٢٧٦.

(٢) النهاية فى غريب الحديث والأثر: ١/٢٧٦.

(٣) لسان العرب: ٥/٣٤٦٤ (فلق) - وينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر: ٣/٤٧٢.

ولفظ المفاليق وقع بدلا من اسم الإشارة هؤلاء، وهو فاعل ويفهم من سياقها أن قرينتها حالية، يدل عليها مقام الكلام.

ومن ذلك ما ذكره من استعارة (القتير) وهو رءوس مسامير الدروع للشيب فى البياض فقد قال: «والقتير الشيب وقيل هو أول ما يظهر منه، وفى الحديث أن رجلا سأله عن امرأة أراد نكاحها قال وبقدر أى النساء هى؟ قال قد رأت القتير. قال دعها، القتير المشيب، وأصل القتير رءوس مسامير حلق الدروع تلوح فيها، شبه بها الشيب إذا نقب فى سواد الشعر»(١).

الاستعارة كما لا يخفى فى كلمة (القتير) من قوله: (قد رأت القتير وهى مفعول به، وقد أشار إليها بالفعل (شبه) باعتبار أن أصلها التشبيه، وهى من استعارة المحسوس للمحسوس، ومعنى نقب فى سواد الشعر ظهر عليه(٢) ويبدو أن قرينتها حالية يدل عليها سياق الكلام.

ومن الأصلية التى سماها تشبيها ما ذكره من استعارة (اليعسوب) وهو أمير النحل، وذكرها، للرئيس والمتفرد من الناس فقد قال: «... واليعسوب أمير النحل وذكرها، ثم كثر ذلك حتى سمى كل رئيس يعسوبا... وفى حديث على يصف أبا بكر رضى الله عنهما كنت للدين يعسوبا أولا حين نفر الناس عنه، اليعسوب الرئيس والمقدم، وأصله فحل النحل... وفى حديث على رضى الله عنه أنه مر بعبد الرحمن ابن عتاب بن أسيد مقتولا يوم الجمل فقال لهفى عليك يعسوب قريش... يعسوب قريش سيدها شبهه فى قريش بالفحل فى النحل»(٣).

وقد لحظت أن كلمة (يعسوب) فى الكلام الذى نقلته آنفا وقعت مرة مشبها به، ومرة استعارة. ففى قول على يصف أبا بكر رضى الله عنهما فيما يبدو أنه رثاء له، وذكر لمآثره (كنت للدين يعسوبا) وقعت مشبها به، وذلك استعمال حقيقى؛ لأن ما حذفت فيه أداة التشبيه وكان المشبه به خبرا للمشبه، أو فى حكم الخبر فهو تشبيه(٤).

---

(١) لسان العرب: ٥/٣٥٢٦ (قتر). وينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر: ٤/١٢.
(٢) ينظر لسان العرب: ١/٤٩٢. (٣) المصدر نفسه: ٤/٢٩٣٦ (عسب).
(٤) ينظر الإيضاح، للخطيب القزوينى: ٧ مع (البغية).

أما فى قوله يتحسر على قتل صاحبه يوم الجمل (لهفى عليك يعسوب قريش) فهى استعارة، وظاهر أنها منادى حذفت منه أداة النداء تقديره يايعسوب قريش، وقد أشار إليها بقوله (شبهه. .) ويبدو أن قرينتها إضافة يعسوب[(١)] إلى قريش.

إذا كان اليعسوب قد استعير للرئيس والمقدم من الناس، فقد ذكر صاحب لسان العرب أن الجماجم وهى عظام الرءوس تستعار لرؤساء الناس، وساداتهم فقد قال: «الجم والجمم الكثير من كل شيء، ومال جم كثير. . . والجمجمة عظم الرأس المشتمل على الدماغ. وجماجم القوم ساداتهم سموا بذلك تشبيها بذلك وجماجم العرب رؤساؤهم»[(٢)].

وبناء على ما ذكره يمكن أن يقال – مثلا– حضر الحفل جماجم القوم أى ساداتهم، وقد أومأ إلى تلك الاستعارة بكلمة تشبيه فى قوله: (سموا بذلك تشبيها بذلك).

وفى هذا الصدد، وعلى تلك الوتيرة ما ذكره من استعارة (البدر) لسيد القوم فقد قال: «وبدر القوم سيدهم على التشبيه بالبدر قال ابن أحمر:

وقد نضرب البدر اللجوج بكفه عليه ونعطى رغبة المتودد»[(٣)]

ومن هذا القبيل ما ذكره من استعارة (الأقماع) التى تفرغ فيها السوائل، ولا يبقى فيها أثر منها، لآذان الناس الذين يسمعون المواعظ، ولا يعملون بها فقد قال: «والقِمَع، والقمع ما يوضع فى فم السقاء، والزق والوطب[(٤)] ثم يصب فيه الماء، والشراب، أو اللبن سمى بذلك لدخوله فى الإناء. . . والجمع أقماع. . . والأقماع الآذان والأسماع، وفى الحديث ويل لأقماع القول، ويل للمصرين، قوله ويل لأقماع القول يعنى الذين يسمعون القول، ولا يعملون به. . . شبه آذانهم وكثرة ما يدخلها من المواعظ وهم مصرون على ترك العمل بها بالأقماع التى تفرغ فيها الأشربة، ولا يبقى فيها شيء منها، فكأنه يمر عليها مجازا، كما يمر الشراب فى الأقماع اجتيازا»[(٥)].

---

(١) لعل من المفيد أن أشير إلى أن صاحب اللسان ذكر فى آخر مادة (عسب) أن اليعسوب اسم فرس سيدنا رسول الله ﷺ، واسم فرس الزبير بن العوام رضى الله عنه.

(٢) لسان العرب: ١/٦٨٩ (جمم). (٣) المصدر نفسه: ١/٢٢٩ (بدر).

(٤) الوطب سقاء اللبن خاصة وجمعه أوطب وأوطاب. ينظر لسان العرب: ٦/٤٨٦٥ (وطب).

(٥) المصدر نفسه: ٥/٣٧٤٠، ٣٧٤١ (قمع). وينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر: ٤/١٠٩.

فالأقماع فى الأصل ما توضع فى الآنية، لتجتازها السوائل، وتعبرها، وقد استعيرت للآذان، التى تمر بها المواعظ، والنصائح، ولا يفيد أَصْحَابُها شيئًا، فكأنها مجاز، ومعبر يدخل فيها الكلام ثم يخرج دون أن يجدى أو ينجع.

وهذه استعارة أصلية، جاءت مجرورة باللام (لأقماع القول) وقرينتها فيما يبدو إضافة (أقماع) لكلمة (القول) وقد أشار إليها بالفعل (شبه..) وقد أجرى هذه الاستعارة إجراء كاملا، ولم يبق إلا التصريح بلفظها.

وهذه صورة رائعة من البيان النبوى الشريف فيها ذم، وقدح لهؤلاء الناس الذين يستمعون أطيب القول، ولا يتبعون شيئًا منه، وفيها كذلك تنفير من هذه الصفة المرذولة، وزجر عنها.

ومن هذا الضرب ما ذكره من استعارة البيضة من الحديد، لاجتماع القوم، والتئام شملهم فقد قال: « والبيضة واحدة البيض من الحديد، وبيض الطائر جميعا، وبيضة الحديد معروفة، والجمع بيض، وفى التنزيل العزيز ﴿ **كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ** ﴾ [الصافات: ٤٩] ويجمع البيض على بيوض... »[١].

فالبيضة تطلق على بيضة الطير، وبيضة الحديد على سبيل الحقيقة، كما ينبىء بذلك كلامه المتقدم، ولكنه أضاف قائلا: « وبيضة القوم أصلهم، والبيضة أصل القوم ومجتمعهم، يقال أتاهم العدو فى بيضتهم، وقوله فى الحديث ولا تسلط عليهم عدوا من غيرهم فيستبيح بيضتهم يريد جماعتهم وأصلهم أى مجتمعهم، وموضع سلطانهم، ومستقر دعوتهم أراد عدوا يستأصلهم، ويهلكهم جميعهم... فكأنه شبه اجتماعهم، والتئامهم ببيضة الحديد، ومنه حديث الحديبية ثم جئت بهم لبيضتك تفضها[٢] أى أصلك وعشيرتك »[٣].

فالاستعارة الأصلية فى (بيضة) من قوله (أتاهم العدو فى بيضتهم) وقوله (فيستبيح بيضتهم) وقوله (ثم جئت بهم لبيضتك..) استعيرت بيضة الحديد للأصل والتجمع، والتئام الشمل، استعارة محسوس لمعقول.

---

(١) لسان العرب: ١/ ٣٩٨ (بيض).

(٢) فضها-أى خرقها – المعجم الوجيز (فضض).

(٣) لسان العرب: ١/ ٣٩٩ (بيض). وينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر: ١/ ١٧٢.

وقد أشار إلى هذه الاستعارة بالفعل (شبه) وذكر المستعار منه، أعنى بيضة الحديد، والمستعار له، وهو اجتماعهم فى قوله (شبه اجتماعهم، والتئامهم ببيضة الحديد) .

ومن ذلك ما ذكره من استعارة العنتر وهو الذباب للإنسان تصغيرا لشأنه فقد قال: «العنتر الشجاع، والعنترة الشجاعة فى الحرب.. وعنتر وعنترة اسمان منه... والعنتر، والعنترة كله الذباب، وفى حديث أبى بكر وأضيافه -رضى الله عنهم- قال لابنه عبد الرحمن يا عنتر هكذا جاء فى رواية، وهو الذباب شبهه به تصغيرا له وتحقيرا..»[١] .

وقد بدت لى ملاحظة من خلال كلام صاحب اللسان حول هذه الاستعارة، والتى قبلها أعنى استعارة بيضة الحديد لاجتماع القوم، وشدة تماسكهم مؤداها أن الكلمة إذا كان لها عدة معان حقيقية متساوية فى درجتها، تستعار من أحد هذه المعانى دون غيره على حسب الغرض المروم منها، ويحدد السياق المعنى المراد بها .

وقد تجلى ذلك فى استعارة بيضة الحديد، دون بيضة الطائر، لأن الغرض منها قوة ترابط القوم، واجتماع شملهم، وتآزرهم، وبيضة الطائر تؤدى عكس هذا المطلوب، وكذلك استعير (عنتر) بمعنى الذباب، دون الشجاعة، لأن الغرض منها هو التحقير، وتهوين أمر المستعار له .

ومن هذا اللون الذى سمى الاستعارة فيه تشبيها ما ذكره من استعارة الباقعة، وهو الطائر الحذر، للإنسان الشديد الحذر والاحتيال، فقد قال: «.. والباقعة عند العرب الطائر الحذر المحتال الذى يشرب الماء من البقاع، والبقاع مواضع يستنقع فيها الماء، ولا يرد المشارع، والمياه المحضورة خوفا من أن يحتال عليه فيصطاد، ثم شبه به كل حذر محتال»[٢] .

ولم يمثل صاحب اللسان فى كلامه المتقدم لاستعارة الباقعة للإنسان الحذر، وعمم فى كلامه حين قال: (.. ثم شبه به كل حذر محتال) وعلى ذلك يمكن حمل كلامه على التشبيه الاصطلاحى فيقال كما جاء فى بعض المراجع اللغوية وهو باقعة من

---

(١) لسان العرب: ٤ / ٣١٢٢ (عنتر). والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ٣ / ٣٠٧ .
(٢) لسان العرب: ١ / ٣٢٧ (بقع).

البواقع للكيس الداهية من الرجال[1] لأن المشبه والمشبه به مذكوران، ويمكن أن يقال على سبيل الاستعارة قاد المحاربين فى هذه المعركة باقعة فانتصروا على عدوهم ونحو ذلك.

ومن هذا النوع ما ذكره من استعارة (الغربان) أى سوادها، لخمر النساء، إذا كانت سوداء اللون واستعارة الغراب لسواد الشعر زمن الشباب، فقد قال: «والغراب الطائر الأسود والجمع أغربة وأغرب، وغربان، وغرب... ويقولون -أى العرب- طار غراب فلان إذا شاب رأسه... وفى حديث عائشة لما نزل قوله تعالى: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١] فأصبحن على رءوسهن الغربان، شبهت الخُمر بالغربان جمع غراب... وقوله:

زمان على غراب غداف فطيره الشيب عنى فطارا

إنما عنى به شدة سواد شعره زمان شبابه، وقوله فطيره الشيب لم يرد أن جوهر الشعر زال، لكنه أراد أن السواد أزاله الدهر، فبقى الشعر مبيضا»[2].

هذا الكلام يتضمن استعارتين:

إحداهما: استعارة (الغربان) للخمر السوداء التى وضعتها النساء على رءوسهن فى قول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها (فأصبحن على رءوسهن الغربان) أى الخمر، وقد أشار إليها صاحب اللسان بقوله: (شبهت الخمر بالغربان) فأطلق عليها التشبيه باعتبار الأصل.

الثانية: استعارة الغراب لسواد شعر الإنسان إبان شبابه فى قول الشاعر:

زمان على غراب غداف... (البيت)

وهذه الاستعارة مفهومة من تناوله لمعنى غراب غداف، والغداف هو الغراب[3] ولعله تأكيد بالمرادف.

ومن ذلك اللون ما ذكره من استعارة (النسر) للشيب فى البياض، وقد جاءت هذه الاستعارة مقترنة باستعارة (ابن دأية) أى الغراب للشباب فى السواد - أى سواد

(١) غراس الأساس (بقع).
(٢) لسان العرب: ٥/٣٣٢٩ (غرب). وينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر: ٣/٣٥٢.
(٣) ينظر لسان العرب: ٥/٣٢١٨ (غدف).

شعر الشباب – فى بيت من الشعر، فقد قال: «واللغز واللغز ما ألغز من كلام فشبه معناه[1] مثل قول الشاعر:

ولمــا رأيت النسر عــز ابن دأية وعشش فى وكريه جاشت له نفسى

أراد بالنسر الشيب شبهه به لبياضه، وشبه الشباب بابن دأية وهو الغراب الأسود؛ لأن شعر الشباب أسود»[2].

فاستعارة (النسر) للشيب أصلية، وقد ألمع إليها بقوله: (شبهه به لبياضه) أى شبه الشيب بالنسر فى البياض، وهو بذلك يشير إلى أطراف تلك الاستعارة، المستعار له الشيب، والمستعار منه النسر، والجامع البياض، وذكر أنها تشبيه باعتبار الأصل، واستعارة (ابن دأية) أى الغراب للشباب أصلية ولمع إليها بقوله: (وشبه الشباب بابن دأية، وهو الغراب الأسود...).

أى شبه الشباب – أى شعره – بالغراب.

وفى ذلك إشارة لأطراف هذه الاستعارة، فالمستعار له الشباب، والمستعار منه الغراب، والجامع السواد. وأطلق عليها الفعل (شبه) باعتبار الأصل.

وقد بين فى كلامه المتقدم أن (ابن دأية) هو الغراب الأسود، لكنه لم يبين لنا فى هذا الموضع معنى الدأية، ولم سمى الغراب بذلك؟

وقد بين ذلك فى موضعه من مواد اللسان، فذكر أن «الدأى جمع الدأية وهى فقار الكاهل فى مجتمع ما بين الكتفين من كاهل البعير خاصة»[3].

وبين فى موضع آخر سبب تسمية الغراب بابن دأية فقال «وابن دأية الغراب؛ سمى بذلك لأنه يقع على دأية البعير فينقرها، وقال الشاعر يصف الشيب:

ولمــا رأيت النســـر عـــز ابن دأية وعشش فى وكريه جاشت له نفسى»[4]

بقى فى الاستعارتين شىء لم يحم حوله صاحب اللسان، وهو ترشيح الاستعارتين وقد عرض له الزمخشرى، وهو بصدد بيان الترشيح فى قوله تعالى:

---

(١) اللغز الكلام الذى لبس معناه. ينظر لسان العرب: ٥/٤٠٤٧ (لغز).
(٢) المصدر نفسه والموضع. (٣) المصدر نفسه: ٢/١٣١٣ (دأى).
(٤) المصدر نفسه: ٢/١٣١٤ (دأى).

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ ..﴾ [البقرة: ١٦] فقال: (لما شبه الشيب بالنسر، والشعر الفاحم بالغراب أتبعه ذكر التعشيش والوكر)(١).

والمراد (بوكريه) الرأس واللحية، والتعشيش، والوكران يناسبان النسر، والغراب المستعار منهما فذكرهما ترشيح، وتقوية للاستعارة، لأن فيه مبالغة بتناسى الاستعارة(٢).

ومعنى البيت أن الشاعر لما رأى الشيب قد اشتعل فى رأسه ولحيته، ومحا الشعر الأسود، واحتل مكانه، حزن، واشمأزت نفسه، وضاق صدره، وشعر بالغثيان.

ومن هذا النمط الذى صرح فيه بالفعل (استعار) ما ذكره من استعارة (حموشة الساقين) أى دقتهما، لدقة البدن كله فقد قال: «والحُمشُ والْحُموُشة والحَمَاشة الدقة، ولِثَةٌ حمشة دقيقة حسنة، وهو حَمْش الساقين والذراعين بالتسكين... دقيقهما، وذراع حَمْشة... وكذلك الساق والقوائم... وقد حَمُشت ساقه.. إذا دقت، وكان عبد الله بن مسعود حَمْش الساقين»(٣).

فحماشة هذه الأعضاء التى ذكرها: الساقان، واللثة، والذراعان، والذراع، والقوائم هى دقتها ولم يذكر أن هذه الصفة حميدة حسنة إلا فى اللثة فى قوله (ولثة حمشة دقيقة حسنة أما الأعضاء الباقية، فقد صرح بأنها دقيقة هكذا غفلا دون مدح أو قدح.

ويبدو أنها صفة ذم فيما عدا اللثة، ويعزز ذلك سياق الحديث الذى جاء فى دقة ساقى عبدالله بن مسعود – رضى الله عنه– فقد وجدت فى مسند الإمام أحمد حديثا مرويا عن ابن مسعود أنه كان يجتنى سواكا من الأراك وكان دقيق الساقين فجعلت الريح تكفؤه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ مم تضحكون؟ قالوا يا نبى الله من دقة ساقيه فقال والذى نفسى بيده لهما أثقل فى الميزان من أحد(٤).

واضح من كلام صاحب اللسان أن وصف هذه الأعضاء التى ذكرها حقيقة لا مجاز فيه.

---

(١) الكشاف: ١/٣٧.

(٢) ينظر شواهد الكشاف: ٤٠، والإيضاح للخطيب القزوينى: ١٤١ (البغية).

(٣) لسان العرب: ٢/٩٩٥ (حمش).

(٤) مسند أحمد جـ٧ الحديث رقم ٣٩٩١.

ولذلك قال عقب كلامه المتقدم «وفى حديث الزنا فإذا رجل حمش الخلق، استعاره من الساق للبدن كله أى دقيق الخلقة»[1] والشيء الدقيق الذى لا غلظ له[2].

فصفة (حمش الخلق) مستعارة من حموشة الساق، أو الساقين، لحموشة الجسم كله، ودقته استعارة محسوس لمحسوس.

ثالثتها: أن يجمع فى التعبير عنها بين التشبيه، والاستعارة.

ومن ذلك ما ذكره من استعارة (الندبة) بالتحريك والفتح، وهى أثر الجرح الذى يبقى فى الجلد، لأثر ضرب موسى -عليه السلام - الحجر بعصاه، وأيضاً لأثر الهجاء فى أعراض المهجوين، فقد قال: «الندبة أثر الجرح إذا لم يرتفع عن الجلد، والجمع ندب، وأنداب وندوب..»[3] وهذا استعمال حقيقى للندبة.

ثم ذكر بعد ذلك استعارتها لأثر الضرب فى الحجر فقال: «وفى حديث موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام وإن بالحجر ندبا ستة، أو سبعة من ضربه إياه، **فشبه** أثر الضرب فى الحجر بأثر الجرح»[4].

فالاستعارة فى كلمة (ندبا) وهى اسم إن مؤخر، وظاهر أنها أصلية، وقد عبر عنها بالتشبيه فى قوله (فشبه أثر الضرب.. إلخ) وهى استعارة محسوس لمحسوس، ولعل فيها تلويحا إلى شدة موسى عليه السلام، وقوته، وقد أشار القرآن الكريم إلى قوته فى قوله تعالى: ﴿ ... **فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ** ﴾ [القصص: ١٥] أى ضربه بيده فأرداه قتيلا[5].

ثم أردف ذلك باستعارة (الندبة) لأثر الهجاء فى الأعراض وثلمها، فقال: «**واستعاره** بعض الشعراء للعرض فقال:

نبئت قافية قيلت تناشدها قوم سأترك فى أعراضهم ندبا

---

(١) لسان العرب: ٢/ ٩٩٦ (حمش) وينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١/ ٤٤١ (حمش).

(٢) لسان العرب: ٢/ ١٤٠٢ (دقق)

(٣) لسان العرب: ٦/ ٤٣٧٩ (ندب).

(٤) المصدر نفسه: ٦/ ٤٣٨٠.

(٥) ينظر - مثلا - التفسير الكبير للفخر الرازى ١٢/ ٢/ ٢٣٤.

أى أجرح أعراضهم بالهجاء فيغادر فيها ذلك الجرح ندبا»[١] أى إنه سيحدث في أعراضهم جرحا لا يندمل، وأثرا لا ينمحى، لتجرئهم على تناشد الشعر فيه، وذمه، وقد عبر عن الشعر بالقافية وهذا مجاز مرسل علاقته الجزئية وهو مجاز مشهور كما فى قول الشاعر:

أعلمه الرماية كل يـــوم   فلما اشتد ساعده رمانى
وكم علمته نظم القوافى   فلما قال قافية هجـــانى

وغير خاف أن الاستعارة الأخيرة فى كلمة (ندبا) فى عجز البيت، وهى مفعول به، وقد عبر عنها بالاستعارة فى قوله (واستعاره بعض الشعراء للعرض) والملحظ هنا أنه عبر عن استعارة واحدة مرة بالتشبيه، باعتبار الأصل، ومرة بالاستعارة، ونفيد من ذلك أن الكلمة الواحدة يمكن أن تستعار للذات، والجوهر، أى الشيء المحسوس، وتستعار مرة أخرى للعرض، أو للشيء المعقول، فهى معطاء ثرية.

ومن هذا النوع كذلك ما ذكره من استعارة الضحضاح، وهو القليل من الماء على وجه الأرض للقليل من النار يوم القيامة فقد قال: «والضحضح والضحضاح الماء القليل يكون فى الغدير وغيره، والضحل مثله... وماء ضحضاح أى قريب القعر، وفى حديث أبى المنهال فى النار أودية فى ضحضاح، شبه قلة النار بالضحضاح من الماء فاستعاره فيه، ومنه الحديث الذى يروى فى أبى طالب وجدته فى غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح، وفى رواية إنه فى ضحضاح من نار يغلى منها دماغه، والضحضاح فى الأصل ما رقّ من الماء على وجه الأرض ما يبلغ الكعبين، واستعاره للنار»[٢].

فجمع بين التشبيه والاستعارة، وهو يتناول هذه الاستعارة فى قوله: (شبه قلة النار بالضحضاح من الماء فاستعاره فيه) وظاهر أنها استعارة أصلية، وقد كرر فى عجز كلامه المذكور أن الضحضاح استعير للقليل من النار.

ويقابل الضحضاح الطمطام، وهو الماء الكثير، ويستعار للنار العميقة القعر، سحيقة الأعماق، وقد أورد صاحب اللسان هذه الاستعارة فى موضعها من لسانه

---

(١) لسان العرب ٦/ ٤٣٨٠ (ندب).
(٢) لسان العرب: ٤/ ٢٥٥٧ (ضحضح). والنهاية فى غريب الحديث الأثر:٣/ ٧٥.

فقال: «والطمطام النار الكبيرة... وفى الحديث أن النبى ﷺ - قيل له هل نفع أبا طالب قرابته منك؟ قال بلى وإنه لفى ضحضاح من نار، ولولاى، لكان فى الطمطام أى فى وسط النار، وطمطام البحر وسطه، استعاره ههنا لمعظم النار حيث استعار ليسيرها الضحضاح وهو الماء القليل الذى يبلغ الكعبين»(١).

وقد صرح بلفظ (استعار) وحده فى الأخيرة، ولكننى ذكرتهما متجاورتين هنا لما بينهما من شدة التآزر، والترابط، ووحدة الغرض، والهدف.

رابعتها: أن يعبر عن الاستعارة الأصلية (بالمثل) ومن ذلك ما ذكره من استعارة الصلعاء وهى التى ذهب مقدم شعر رأسها، للداهية الشديدة فقد قال: «الصلع ذهاب الشعر من مقدم الرأس إلى مؤخره، وكذلك إن ذهب وسطه.. وهو أصلع بيِّن الصلع.. والصلعاء الداهية الشديدة على المثل أى أنه لا متعلق منها، كما قيل لها مرمريس من المراسة أى الملاسة، يقال لقى منه الصلعاء»(٢).

واضح أن (الصلعاء) مستعار منه، وقد استعيرت للداهية الشديدة التى لا نجاة، ولا خلاص منها، وهذا مثل قولهم للداهية مرمريس أى أنها كالصخرة الملساء التى لا يمكن أن يتعلق بها من وقع فى ورطة لشدة مراستها، وملاستها، وقد عبر عنها صاحب اللسان بقوله: (والصلعاء الداهية الشديدة على المثل..).

ومن هذا الضرب ما ذكره من استعارة العقد، والعناج للعهد فقد قال: «العناج خيط أو سير يشد فى أسفل الدلو ثم يشد فى عروتها أو عرقوتها» وأضاف قائلا: «ثم قال الحطيئة يمدح قوما عقدوا لجارهم عهدا فوفوا به ولم يخفروه:

قوم إذا عقدوا عقدا لجارهم　　شدوا العناج وشدوا فوقه الكربا(٣)

وهذه أمثال ضربها لإيفائهم بالعهد... وقد عنج الدلو يعنجها عنجا عمل لها ذلك يقال: إنى لأرى لأمرك عناجا أى ملاكا مأخوذ من عناج الدلو وأنشد الليث:

وبعض القول ليس له عناج　　كسيل الماء ليس له إناء»(٤)

---

(١) لسان العرب: ٤/٢٧٠٦ (طمطم). والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ٣/١٣٩.
(٢) لسان العرب: ٤/٢٤٨٢ (صلع).
(٣) الكرب الحبل الذى يشد على الدلو ينظر لسان العرب: ٥/٣٨٤٦ (كرب).
(٤) لسان العرب: ٤/٣١٢٢ (عنج).

فالعناج المشدود، والحبل المعقود، وهما من الأشياء المحسوسة استعيرا للوفاء بالعهد.

وقد صرح بهذه الاستعارة صاحب الكشاف عند تفسير قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [المائدة: ١] فقال: «العقد العهد الموثق شبه بعقد الحبل ونحوه، قال الحطيئة:

قوم إذا عقدوا لجارهم (البيت)[١]

ومن هذا الضرب ما ذكره من استعارة الإبّالة وهى الحزمة من الحشيش والحطب للمصائب، والبلايا فقد قال: «والأبيل والأبيلة والإبالة الحزمة من الحشيش، والحطب التهذيب والإيبالة الحزمة من الحطب، ومثل يضرب ضغث على إيبالة أى زيادة على وقر، قال الأزهرى، وسمعت العرب تقول ضغث على إبالة غير ممدود ليس فيها ياء، وكذلك أورده الجوهرى أيضًا أى بلية على أخرى كانت قبلها»[٢].

فالإبالة شيء محسوس كما بين ووضح، والضغث، وهو من الكلمات القرآنية التى يألفها المسلم فى قوله تعالى: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ .. ﴾ [ص: ٤٤] – هو الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو غير ذلك[٣]. وذلك شيء محسوس أيضًا. استعير كل منهما للبليّة، أى نزلت به بلية، على أخرى نزلت قبلها وقد قيل المصائب لا تأتى فرادى. وقد سماهما صاحب اللسان اتباعا للغويين الذين نقل عنهم (مثلا).

ويمكن اعتبار ذلك من قبيل الاستعارة التمثيلية، استعيرت صورة وضع حزمة من الحشيش أو الريحان على حزمة أخرى من الحطب، لصورة بلية حلت ونزلت بساحة من نزلت به أخرى قبلها أدهى وأمر.

ومن ذلك النوع ما ذكره من استعارة الأعمى للكافر، والبصير للمؤمن، ونحو ذلك من الاستعارات فقد قال: «وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ... ﴾ [فاطر: ١٩ – ٢١] قال الزجاج هذا

---

(١) الكشاف: ١/ ٣٢٠.
(٢) لسان العرب: ١/ ١١ (أبل).
(٣) الكشاف: ٣/ ٣٣٠.

مثل ضربه الله للمؤمنين والكافرين والمعنى وما يستوى الأعمى عن الحق وهو الكافر، والبصير وهو المؤمن الذى يبصر رشده، ولا الظلمات ولا النور، الظلمات الضلالات، والنور الهدى، ولا الظل ولا الحرور أى لا يستوى أصحاب الحق الذين هم فى ظل من الحق، ولا أصحاب الباطل الذين هم فى حر دائم »(١).

فهذه استعارات أصلية وقد ارتضى صاحب اللسان ما ارتضاه الزجاج من أنها (مثل) أو إن شئنا التحديد أمثال للمؤمن والكافر.

ولعل صاحب الكشاف قد ارتضى هذه الوجهة، وأن ما فى هذه الاستعارات أمثال للمؤمن، والكافر فقد قال:

« [الأعمى والبصير] مثل للكافر، والمؤمن... والظلمات النور، والظل والحرور مثلا للحق والباطل، وما يؤديان إليه من الثواب والعقاب، والأحياء والأموات مثل للذين دخلوا فى الإسلام، والذين لم يدخلوا فيه، وأصروا على الكفر.. »(٢).

ومن هذا الضرب الذى أطلق فيه على الأصلية كلمة المثل ما ذكره من استعارة الجبهة لسيّد القوم فقال:

« وجبهة القوم سيدهم على المثل »(٣)

وكذلك إطلاق العرانين على سادة القوم فقد قال:

« وعرانين الناس وجوههم وعرانين القوم سادتهم وأشرافهم على المثل »(٤).

ومن هذا الضرب الذى اعتبر الاستعارة الأصلية فيه مثلا ما ذكره من استعارة (الذواق) وهو المأكول والمشروب، للعلم، والأدب، فقد قال:

« الذوق مصدر ذاق الشىء يذوقه ذوقا، وذواقا، ومذاقا، فالذواق والمذاق يكونان مصدرين، ويكونان طعما كما تقول ذواقه ومذاقه طيب، والمذاق طعم الشىء، والذواق هو المأكول والمشروب، فى الحديث لم يكن يذم ذواقا... وفى الحديث كانوا إذا خرجوا من عنده لا يتفرقون إلا عن ذواق، ضرب الذواق مثلا لما ينالون عنده من الخير أى لا يتفرقون إلا عن علم، وأدب يتعلمونه يقوم لأنفسهم وأرواحهم مقام الطعام والشراب لأجسادهم »(٥).

---

(١) لسان العرب: ٤/٣١١٦ (عمى).
(٢) الكشاف: ٣/٢٧٣.
(٣) لسان العرب: ١/٥٤٠ (جبه).
(٤) المصدر السابق: ٤/٢٩١٧ (عرن).
(٥) لسان العرب: ٣/١٥٢٦ (ذوق).

والذى يهمنا من كلام صاحب اللسان الآنف الذكر أن المذاق والذواق يكونان مصدرين للفعل (ذاق) كل منهما يدل على المعنى دون الذات - كما هو معلوم مشهور - ويكونان طعما للشيء كما فى قولنا ذواقه طيب، ومذاقه طيب، والذواق أيضًا يأتى بمعنى المأكول والمشروب، ومنه ما ذكر فى الحديث من أنه ﷺ لم يكن يذم ذواقا أى مأكولا أو مشروبا، وهذا على سبيل الحقيقة. وقد استعير بهذا المعنى المحسوس لما يفيد الإنسان ويغذى روحه من الأمور المعنوية كالعلم، والأدب.

وقد تجلى ذلك فى الحديث الذى ذكره فى عجز كلامه المتقدم، وقد أطلق على هذه الاستعارة كلمة (مثلا) أو على حد تعبيره(ضرب الذواق مثلا لما ينالون عنده).

وهى كما يبدو استعارة أصلية استعير فيها المحسوس للمعقول، وهو فى هذا ناقل عن ابن الأثير، وآخذ عنه، فقد قال ابن الأثير: «ومنه الحديث: كانوا إذا خرجوا من عنده - أي من عند رسول الله ﷺ - لا يتفرقون إلا عن ذواق ضرب الذواق مثلا لما ينالون عنده من الخير أى لا يتفرقون إلا عن علم وأدب يتعلمونه يقوم لأنفسهم وأرواحهم مقام الطعام والشراب لأجسامهم»[١].

خامستها: أن يجمع بين الاستعارة والمثل كما ذكر من استعارة (الورطة) وهى الهوة العميقة فى الأرض، للشدة، أو البلية فقد قال: «والورطة الوحل والردغة تقع فيها الغنم فلا تقدر على التخلص منها يقال تورطت الغنم إذا وقعت فى ورطة، ثم صار مثلا لكل شدة وقع فيها الإنسان»[٢].

فالورطة التى تقع فيها الغنم حقيقة، أما لو قيل وقع فلان فى ورطة أى فى شدة يعسر التخلص منها، فإنها استعارة أصلية -كما لا يخفى - وقد سماها مثلا.

وقد صرح فى الموضع نفسه بأنها استعارة أيضًا حين قال: « .. وقيل الورط أن يجعل الغنم فى وهدة من الأرض لتخفى على المصدّق أى الذى يأخذ الصدقة وهى الزكاة كما يفهم من السياق - مأخوذ من الورطة وهى الهوة العميقة فى الأرض، ثم استعير للناس إذا وقعوا فى بلية يعسر المخرج منها»[٣].

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر: ٢ / ١٧٢.
(٢) لسان العرب: ٦ / ٤٨١٣ (ورط).
(٣) المصدر نفسه والموضع.

فالورطة فى الأصل الهوة، أو الوهدة، توضع فيها الغنم، لإخفائها عن جامع الزكاة، هروبا، أو تهربا، شنشنة قديمة حديثة، وإن اختلفت السبل، والوسائل، وألوان الغش والخداع عند هؤلاء المتهربين.

وقد عبر عنها بأخرة بقوله (ثم استعير للناس) إلخ فعاقب بين الاستعارة والمثل، وهو يعرض لاستعارة واحدة.

ومن ذلك الضرب ما ذكره من استعارة (الربقة) وهى العروة التى توضع فى رقبة البهيمة، أو رجلها ابتغاء المحافظة عليها، لأوامر الإسلام، ونواهيه، وأحكامه، وحدودة فقد قال:

«وأخرج ربقة الإسلام من عنقه فارق الجماعة، ويروى عن حذيفة من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، الربقة فى الأصل عروة فى حبل يجعل فى عنق البهيمة، أو يدها تمسكها، فاستعارها للإسلام يعنى ما يشد به المسلم به نفسه من عرى الإسلام أى حدوده، وأحكامه، وأوامره ونواهيه»(١).

فالربقة، أو الربق فى الأصل العروة، أو الحبل، أو الحلقة تشد بها الغنم، أو البهائم عامة، والجمع أرباق، ورباق، وربق(٢).

وقد استعيرت (الربقة) لتعاليم الإسلام التى التزم بها المسلم، وهى من استعارة المحسوس للمعقول.

وقد ذكر صاحب اللسان فى الموضع نفسه أنه يقال فرج عنه ربقته أى كربته فقال: «وفى الصحاح الربق بالكسر حبل فيه عدة عرى تشد به البهم الواحدة من العرى ربقة، وفرج عنه ربقته أى كربته وكل ذلك على المثل»(٣).

فالربقة – كما قال – استعيرت للإسلام وتعاليمه كلها، التزمها المسلم، وعاهد الله على الوفاء بها، وعاش سعيدا فى رحابها.

وأشار إلى أنها استعيرت لعكس ذلك، استعيرت للكربة التى تكاد تخنق الإنسان، وتكتم أنفاسه، وتجعل صدره ضيقا حرجا، فيقال له إذا فرج الله غمه، وأزاح

---

(١) لسان العرب: ٣/ ١٥٧٠ (ربق). والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ٢/ ١٩٠.

(٢) ينظر لسان العرب: ٣/ ١٥٧٠ (ربق).

(٣) المصدر نفسه والموضع.

عنه همه فرج الله ربقتك أى كربتك. وقد عبر عن هذه الاستعارة مرة بالمثل فى قوله(وكل ذلك على المثل..) ومرة بقوله (فاستعارها للإسلام..).

وهذه أول مرة أجد فيها كلمة واحدة استعيرت للمعنى، وضده فاكتسبتا حسنا يروق ويعجب، ويطرب ويخلب وصدق من قال:

ضدان لما استجمعا حسنا والضد يظهر حسنه الضد

سادستها: أن يشير إلى الاستعارة الأصلية بالجمع بين التشبيه والمثل، وقد ذكر ذلك عند حديثه عن استعارة (الدّر) وهو اللبن الكثير للخير والعطاء على سبيل العموم فقد قال: « در اللبن والدمع ونحوهما يَدِر ويدُر درّا ودرورا وكذلك الناقة إذا حلبت فاقبل منها على الحالب شيء كثير قيل در، وقولهم لا در دره أى لا زكا عمله على المثل، قال أبو بكر وقال أهل اللغة فى قولهم لله دره الأصل فيه أن الرجل إذا كثر خيره وعطاؤه وإنالته الناس قيل لله دره أى عطاؤه وما يؤخذ منه فشبهوا عطاءه بدر الناقة ثم كثر استعمالهم حتى صاروا يقولونه لكل متعجب منه»(١).

فالدر وهو اللبن قد استعير للخير الكثير، والعطاء الوافر، وهذه كما يبدو استعارة أصلية، وقد أشار إليها بقوله (فشبهوا بدر الناقة) وقوله (... أى لا زكا عمله على المثل) فجمع فى التعبير عنها بين التشبيه والمثل، ويبدو أن هذه الاستعارة إذا قيلت لكل متعجب منه على وجه العموم تكون استعارة تمثيلية، استعيرت فيها صورة لصورة.

سابعتها: الا يصرح بشيء يومىء به إلى الاستعارة، ولكنها تفهم من خلال كلامه وبيانه، كما فهم من استعارة النيران للسيوف، فقد قال: « .. وقوله:

فإن تعافوا العدل والإيمانا فـإن فى أيماننـا نيرانـا

فإنه يعنى بالنيران سيوفا أى فإنا نضربكم بسيوفنا، فاكتفى بذكر السيوف عن ذكر الضرب بها»(٢).

وهذه استعارة مشتهرة، أوردها الخطيب القزوينى أثناء كلامه عن قرينة

---

(١) لسان العرب: ٢/ ١٣٥٦ (درر).
(٢) لسان العرب: ٤/ ٣١٩٢ (عيف).

الاستعارة حين قال: «وقرينة الاستعارة إما معنى وواحد كقولك رأيت أسـدا يرمـى، أو أكثر كقول بعض العرب:

فإن تعافوا.... البيت.

أي سيوفا تلمع كأنها شعل نيران... فقوله تعافوا باعتبار كل واحد من تعلقه بالعدل، وتعلقه بالإيمان قرينة لذلك؛ لدلالته على أن جوابه أنهم يحاربون ويقسرون على الطاعة بالسيف»[١].

وقد اكتفى صاحب اللسان بأن (نيرانا) يعنى بها السيوف، وصرح بأن الشاعر اكتفى بذكر السيوف عن الضرب بها، ولعله يقصد أنه اكتفى بالنيران المستعارة للسيوف، عن السيوف وإلا فإن المكتفى به هو كلمة (نيرانا) ولعل ذلك سهو فى التعبير.

* * *

---

(١) الإيضاح ١١٩، ١٢٠ مع (البغية).

حول مواقع الاستعارة الأصلية من الإعراب

قد يظن أو يتصور أن الاستعارة الأصلية تأتى فى أسماء الأجناس أينما وجدت فى الكلام، وفى أى موضع منه، والواقع خلاف ذلك؛ فقد حدد البلاغيون لها مواضع معينة باعتبار ملاءمتها للسياق، وإفادتها المعانى المنوطة بها وهى المبتدأ، والفاعل، والمفعول به، والمجرور بالحرف، والمجرور بالإضافة، وفى مقدمة من حددها الشيخ عبد القاهر الجرجانى، فقد ذكر وهو بصدد التفريق بين التشبيه المحذوف الوجه والأداة، والاستعارة الأصلية هذه المواضع فقال: « ... ويكون لها - أى للاستعارة- هذا الصنيع حيث يقع الاسم المستعار فاعلا، أو مفعولا، أو مجرورا بحرف الجر، أو مضافا إليه كقولك بدا لى أسد، وانبرى لى ليث، وبدا نور، وظهرت شمس ساطعة، وفاض لى بالمواهب بحر كقوله:

وفى الجيرة الغادين من بطن وجرة   غزال كحيل المقلتين ربيب(١)

والمفعول كما ذكرت من قولك رأيت أسدا، والمجرور نحو قولك لا عار إن فر من أسد يزأر، والمضاف إليه كقوله:

يا ابن الكواكب من أئمة هاشم   والرجح الأحساب والأحلام(٢)

ويتابع الشيخ عبد القاهر كلامه قائلا: « وإذا جاوزت هذه الأحوال كان اسم المشبه مذكورا، وكان مبتدأ، واسم المشبه به واقعا فى موقع الخبر... »(٣).

وقد كرر ذكر هذه المواضع فى مكان آخر وزاد عليها المبتدأ.

واضح من عبارته الأخيرة « وإذا جاوزت هذه الأحوال إلخ » أن الاستعارة لا توجد إلا فى هذه المواقع لا تتعداها بحال، وقد تبع الشيخ عبد القاهر فى تحديد هذه المواضع الإمام فخر الدين الرازى فذكر أن الاسم المستعار لا يمكن وقوعه خبرا كما فى قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً ﴾ [المائدة: ١١٤] فالعيد

---

(١) بطن وجرة اسم مكان تكثر فيه الغزلان، و(ربيب) أى مربى.
ينظر هامش أسرار البلاغة: ٢٤٢ تعليق الشيخ محمود شاكر.
(٢) أسرار البلاغة: ٢٤٢.
(٣) المصدر نفسه: ٢٤٣.

ليس بمستعار لوقوعه موقع الخبر وقوله تعالى: ﴿ .. وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾

[الأحزاب: ٤٦]

فالسراج ليس بمستعار لوقوعه حالا بعد تمام الكلام، بل يكون المستعار – كما قال – فاعلا، أو مفعولا، أو مبتدأ، أو مضافا إليه، أو مجرورا(١).

ومعنى هذا أن الاستعارة لا تتجاوز هذه المواضع، ولا تخرج عن هذا النطاق.

وقد وجدت في أمثلة الاستعارة التي ساقها صاحب لسان العرب بعض الاستعارات التي خرجت عن هذا الحيز، وتجاوزت هذا النطاق وسيجيء ذكرها – إن شاء الله – قريبا –.

استعارات جاءت في لسان العرب موافقة لهذه المواقع المحددة:

رأينا أن الكثرة الكاثرة من الاستعارات التي أوردها صاحب لسان العرب جاءت موافقة لهذه المواقع المعينة، وقد يكون من المفيد أن أذكر هنا طرفا من أمثلتها التي سلفت ليسهل الإلمام بها، والوقوف عليها.

أولا – الفاعل:

من الاستعارات التي وقعت فاعلا ما جاء في قول الشاعر:

إذا لم يكن إلا القتاد تنزعت   مناجلها أصل القتاد المكالب

استعار المناجل لأسنان الإبل الحادة.

ومنها: ما جاء في قول ابن عوف لعمر – رضي الله عنهما –: يحضرك غوغاء الناس، استعير الغوغاء، وهو الجراد حين يخف للطيران للسفلة من الناس، والمتسرعين للشر.

ومنها ما جاء في حديث حنين: انطلق جفاء من الناس إلى هذا الحي من هوازن، استعير الجفاء، وهو ما يقذفه السيل من الزبد، والأقذاء، والأوساخ، لشرار الناس وحثالتهم.

ثانيا: المفعول به:

ومن الاستعارات التي وقعت مفعولا به ما جاء في قول عثمان – رضي الله عنه –

---

(١) ينظر نهاية الإيجاز..: ٨٦، ٨٨.

: وجاوزت أسنان أهل بيتى، أى طال عمره عن أعمار أقربائه، استعار الأسنان الموجودة بالفم، لأعمار الناس، وعليه تكون السن مستعارة للعمر.

ومنها ما جاء فى الحديث: إياكم ومشارة الناس؛ فإنها تظهر العرة.. استعيرت العرة وهى القذر، وعذرة الناس للمساوىء والمثالب.

ومنها ما جاء فى قول الشاعر:

فأجمع أجلاسا شدادا يسوقها إلـــىَّ إذا راح الـرعـــاء رعائيا

استعار الأجلاس، وهى الصخرات الشداد للنوق القوية.

ومنها ما جاء فى قول عمر - رضى الله عنه -: لا أقلع عنه حتى أطير نعرته، استعار النعرة وهو ذباب صغير يدخل أنف البعير، أو الحمر، أو الخيل للكبر والأنفه[1].

ثالثًا: المجرور بالحرف:

ومن الاستعارات التى جاءت مجرورة بالحرف ما جاء فى قول بعضهم: إنك لست من ذوائب قريش، استعيرت الذوائب، وهى جمع ذؤابة - الشعر المضفور أعلى الرأس -للعز، والشرف، والرفعة.

ومنها ما جاء فى قول الشاعر:

ولكن ما لى غاله كل جفنة إذا حان ورد أسبلت بدموع

استعار دموع العين للدسم الذى يسيل من الجفنة.

ومنها ما جاء فى قول الشاعر:

من للجعافر ياقومى فقد صريت وقد يستعار لذات الصرية الحلب

استعار الجعافر وهى الأنهار للنوق الكثيرة اللبن.

ومنها ما جاء فى الحديث: أعلنوا النكاح واضربوا عليه بالغربال، استعار الغربال للدف.

رابعا: المجرور بالإضافة:

ومن الاستعارات التى جاءت مجرورة بالإضافة ما جاء فى الحديث: ويل لأقماع

(١) هذه الاستعارات سبق بيانها، ويمكن الرجوع إليها لمن أراد مزيدا من الإحاطة بها.

القول ويل للمصرين، استعيرت الأقماع التى تفرغ فيها السوائل، ولا يبقى فيها شىء، لمن يستمعون القول، ولا يتبعون شيئًا منه.

خامسًا: المبتدأ:

لم أظفر فى لسان العرب - قدر جهدى - باستعارة واحدة وقعت مبتدأ قارا فى مكانه، ولكنى وجدت استعارات وقعت مبتدأ مؤخرا.

فمن ذلك ما جاء فى حديث بدر: ما قتلنا أحدا به طعم، ما قتلنا إلا عجائز صلعا[1] استعير الطعم من المذوقات للقيمة، والقدر، والوزن أى ما قتلنا إلا من لا وزن له، ولا قدر، فالاستعارة فى كلمة (طعم) وهى مبتدأ مؤخر.

ومنها ما جاء فى قول الشاعر:

زمان على غراب غداف فطيره الشيب عنى فطارا

استعار الغراب للشعر الأسود، وغراب مبتدأ مؤخر.

ومنها ما جاء فى قول الشاعر:

ألا ما لنفس تموت فينقضى شقاها ولا تحيا حياة لها طعم

وقد اتسع نطاق الاستعارات التى ذكرت فى لسان العرب، فتجاوزت المبتدأ المؤخر إلى ما أصله المبتدأ، وقد وجدت ذلك فى صورتين:

إحداهما: وقعت الاستعارة فيها اسما لليس مؤخرا، كما فى قول الشاعر:

وبعض القول ليس له عناج كسيل الماء ليس له إناء

استعار العناج، وهو حبل يشد به الدلو للقول المحكم المحسوب، و(عناج) اسم ليس مؤخرا.

الثانية: جاءت الاستعارة فيها اسما لإن مؤخرا، كما فى قول نبى الله موسى عليه السلام: وإن بالحجر ندبا ستة أو سبعة، استعيرت فيه (الندب) جمع (ندبة) وهى أثر الجرح فى الجلد لأثر ضرب الحجر بالعصا. و(ندبا) اسم إن مؤخر، وكما فى قولهم إن فى رأسه نعرة أى كبرا، الاستعارة فى (نعرة) وهى اسم إن مؤخر.

---

(١) مصطلح حديث فى لسان العرب عام، وليس قاصرا على ما يتعلق بالرسول ﷺ.

وهاتان الصورتان داخلتان فى حيز المبتدأ؛ لأن الناسخ لم يمح أثر المبتدأ فى السياق، أو يلغ دوره المنوط به فى الكلام.

الاستعارة فى لسان العرب أوسع دائرة من المواضع المحددة:

لحظت أثناء تناولى للاستعارات الأصلية التى سبق بيانها أن صاحب لسان العرب ساق بعضا منها، ليس داخلا فى دائرة المواضع التى عرفناها، وعهدناها، وهى تتمثل فى ثلاث صور:

إحداها: أن تقع الكلمة التى فيها الاستعارة (منادى) فقد جاء فى لسان العرب «... وفى حديث على - رضى الله عنه - أنه مر بعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد مقتولا يوم الجمل فقال لهفى عليك يعسوب قريش، يعسوب قريش سيدها شبهه فى قريش بالفحل فى النحل»[1].

فقوله (يعسوب قريش) منادى حذف منه الأداة، وهى استعارة سماها تشبيها باعتبار الأصل[2].

ومثل هذه الاستعارة التى قعت (منادى) ما جاء فى قول صاحب اللسان «... وفى حديث أبى بكر وأضيافه قال لابنه عبد الرحمن يا عنتر هكذا جاء فى رواية، وهو الذباب شبهه به تصغيرا له وتحقيرا»[3].

«والعنتر والعنترة كله الذباب»[4].

فقوله (عنتر) منادى استعار (عنتر) وهو الذباب، لابنه تحقيرا له، كما قال صاحب لسان العرب، وتلك الاستعارة سماها تشبيها، وقد وضحتها بالتفصيل سابقا.

ثانيتها: أن تقع الاستعارة صفة فقد ذكر صاحب لسان العرب فى أحد المواضع أن (حموشة الساقين) أى دقتهما تستعار لدقة البدن كله، وساق شاهدا على ذلك ما جاء فى بعض الأحاديث فقال: «وفى حديث الزنا فإذا رجل حمش الخلق» ثم قال: «استعاره من الساق للبدن كله أي دقيق الخلقة»[5].

---

(١) لسان العرب: ٤/٢٩٣٦ (عسب).

(٢) سبق بيان هذا الشاهد بالتفصيل فى مكانه من هذا العمل.

(٣) لسان العرب: ٤/٣١٢٢ (عنتر). (٤) المصدر نفسه والموضع.

(٥) لسان العرب: ٢/٩٩٦ (حمش). والنهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير: ١/٤٤١ (حمش).

فقوله (حمش الخلق) صفة لرجل، وهذه الصفة جاءت استعارة.

الثالثة: أن تقع الاستعارة حالا أو مفعولا لأجله فقد قال صاحب اللسان: « الرفاهة والرفاهية رغد الخصب، ولين العيش... وأرفههم الله ورفههم، ورفهنا نرفه رفها... واستعار لبيد الرفه فى نخل نابتة على الماء فقال:

يشربن رفها عراكا غير صادرة   فكلها كارع فى المـــاء مغتمر »(١)

يقول إن هذه النخل تجاور ماء كثيرا فهى ترتوى منه كما تشاء، وتتقلب فى تلك الرفاهية، والعيش الهنىء(٢).

فكلمة (رفها) كما بدا لى مصدر وقع حالا من الفاعل فى (يشربن) أو مفعولا لأجله. وفيها الاستعارة -كما أبان صاحب لسان العرب.

فإن كان ما لحظته، وفهمته صوابا يكون من حق هذه المواقع الاستعارية الثلاثة أن تضم إلى أخواتها المعينات، وتقترن بها، وتنتظم فى سلكها.

* * *

(١) لسان العرب: ٣/١٦٩٨ (رفه).
(٢) سبق شرح هذا البيت فى موضعه من هذا العمل.

الاستعارة التبعية

الاستعارة التبعية هى الشطر الثانى للاستعارة التصريحية، وظاهر من اسمها أنها تابعة فى الإجراء للأصلية، فالتشبيه فيها ثانوى، تابع للتشبيه فى الأستعارة الأصلية، وقد قرر الشيخ عبد القاهر الجرجانى - رحمه الله - هذه الحقيقة بعد أن بين كنه كل من الاستعارة المكنية، والأصلية فقال: « . . . وإذ قد تقرر أمر الاسم فى كون استعارته على هذين القسمين، فمن حقنا أن ننظر فى الفعل هل يحتمل هذا الانقسام والذى يجب العمل عليه أن الفعل لا يتصور فيه أن يتناول ذات شىء كما يتصور فى الاسم، ولكن شأن الفعل أن يثبت المعنى الذى اشتق منه للشىء فى الزمان الذى تدل صيغته عليه فإذا قلت ضرب زيد أثبت الضرب لزيد فى زمان ماض »(١).

وغير خاف أن الفعل فى (ضرب زيد) ليس استعارة، ولكنه ذكر ذلك توطئة وتمهيدا لقوله بعد ذلك « . . . وإذا كان كذلك فإذا استعير الفعل لما ليس له فى الأصل، فإنه يثبت باستعارته له وصفا هو شبيه بالمعنى الذى ذلك الفعل مشتق منه بيان ذلك أن تقول نطقت الحال بكذا، وأخبرتنا أسارير وجهه بما فى ضميره، وكلمتنى عيناه بما يحوى قلبه، فتجد فى الحال وصفا هو شبيه بالنطق من الإنسان، وذلك أن الحال تدل على الأمر، ويكون فيها أمارات يعرف بها الشىء، كما أن النطق كذلك، وكذلك العين فيها وصف شبيه بالكلام، وهو دلالتها بالعلامات التى تظهر فيها، وفى نظرها، وخواص أوصاف يحدس بها على ما فى القلوب من الإنكار والقبول »(٢).

فحاصل ما قاله الشيخ أن الاستعارة فى الأفعال إنما هى للمعنى الذى تتضمنه، والحدث الذى تشتمل عليه، وتلك هى الحقيقة التى أراد الشيخ أن يصل إليها، ويقررها فى الأذهان، والعقول عندما قال بعد ذلك: « . . وإذا كان أمر الفعل فى الاستعارة على هذه الجملة، رجع بنا التحقيق إلى أن وصف الفعل بأنه مستعار حكم يرجع إلى مصدره الذى اشتق منه، فإذا قلنا فى قولهم نطقت الحال أن نطق مستعار فالحكم بمعنى أن النطق مستعار، وإذا كانت الاستعارة تنصرف إلى المصدر، كان الكلام فيه على ما مضى »(٣).

---

(١) أسرار البلاغة: ٥١. (٢) المرجع نفسه والموضع.
(٣) المرجع نفسه: ٥٢، ٥٣.

فالاستعارة التبعية كما قرر الشيخ عبد القاهر فى الفعل وغيره تجرى أولا فى مصادر هذه الأفعال، ثم تجرى بعد ذلك فى الأفعال وغيرها؛ ولذلك قال الحموى: «والتبعية ما كان التشبيه داخلا فى المستعار دخولا ثانويا، ولم يكن المستعار اسم جنس، وتقع فى الأفعال والصفات العاملة والحروف... مثال الأولين الحال نطقت بكذا، أو ناطقة بكذا. استعير النطق فيهما للدلالة، فجرت الاستعارة أولا فى المصدر المذكور وتبعته فى الفعل والوصف، فلهذا سميت تبعية»[(١)].

وقد تطرق صاحب لسان العرب إلى كثير من الاستعارات التبعية فى الأفعال وغيرها، وقد تمثل تناوله لها فى صور متنوعة:

إحداها: أن يصرح بلفظ الاستعارة، أو ما اشتق منه، ومن ذلك ما ذكره من استعارة الإفاضة للاندفاع فى السير فقد قال: «... وفى حديث الحج فأفاض من عرفة[(٢)]... الإفاضة الزحف، والدفع فى السير بكثرة، ولا يكون إلا عن تفرق، وجمع، وأصل الإفاضة الصب، فاستعيرت للدفع فى السير... ومنه طواف الإفاضة يوم النحر يفيض من منى إلى مكة فيطوف ثم يرجع»[(٣)].

ففى قول الرسول ﷺ (فأفاض من عرفة) استعارة تبعية فى الفعل الماضى (أفاض) عبر عنها صاحب اللسان بالفعل (استعير) وحقيقة الإفاضة صب الماء.

وهذه استعارة قرآنية جاءت فى مثل قوله تعالى: ﴿ **فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ** ﴾ [البقرة: ١٩٨].

وقد بينها صاحب الكشاف بقوله: «أى اندفعتم بكثرة، وهو من إفاضة الماء وهو صبه بكثرة»[(٤)].

وهى استعارة محسوس لمحسوس - كما هو ظاهر.

وقد أشار الزمخشرى إلى أن الإفاضة تستعار أيضًا للاندفاع فى الحديث فقد قال: «ومن المجاز وأفاضوا من عرفات، وأفاضوا فى الحديث اندفعوا»[(٥)].

(١) درر العبارات وغرر الإشارات فى تحقيق معانى الاستعارات للحموى: ١١.
(٢) ينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر: ٣/٤٨٥.
(٣) لسان العرب: ٥/٣٥٠١ (فيض).
(٤) الكشاف: ١/١٢٣. (٥) أساس البلاغة (فيض).

وأفاض القوم فى الحديث انتشروا، وقال اللحيانى هو إذا اندفعوا وخاضوا وأكثروا... وفاض الحديث والخبر واستفاض ذاع وانتشر، وحديث مستفيض ذائع »[١].

ومن ذلك النوع ما ذكره من استعارة إزلال الأجسام، وهو انتقالها من مكان إلى آخر، لانتقال النعمة من المنعم إلى المنعم عليه، فقد قال: « زل السهم عن الدرع والإنسان عن الصخرة يزل... زلا، وزليلا، ومزلة زلق »[٢].

وهذا الاستعمال الذى ذكره حقيقة لغوية، ولكنه أضاف قائلا: « وأزل إليه نعمة أسداها، وفى الحديث من أزلت إليه نعمة فليشكرها[٣]، واتخذ عنده زلة أى صنيعة، وأزللت إليه نعمة أى أسديتها، قال أبو عبيد قوله فى الحديث من أزلت إليه نعمة معناه من أسديت إليه، وأعطيها واصطنعت عنده قال ابن الأثير وأصله من الزليل وهو انتقال الجسم من مكان إلى مكان فاستعير لانتقال النعمة من المنعم إلى المنعم عليه قال كثير يذكر امرأة:

وإنى وإن صَدّت لمثن وصادق   عليها بما كانت إلينا أزلت

والمزلل الكثير الهدايا والمعروف »[٤].

فقوله وهو يوضح معنى (أزلت) فى الحديث (فاستعير - أى الإزلال - لانتقال النعمة إلخ) ظاهر فى أنه يقصد الاستعارة فى (أزلت) وهى تبعية، وقد عبر عنها بالفعل (استعير).

ومن هذا النوع ما ذكره من استعارة إشادة البنيان ورفعته، للإشادة بذكر الناس فى الخير والشر فقد قال: « أشاد بالضالة عرف... ويقال أشاد فلان بذكر فلان فى الخير والشر، والمدح، والذم إذا شهره ورفعه، وفى الحديث من أشاد على مسلم عورة يشينه بها بغير حق شانه الله يوم القيامة ويقال أشاده وأشاد به، إذا أشاعه ورفع ذكره من أشدت البنيان فهو مشاد، وشيدته إذا طولته فاستعير لرفع صوتك بما يكرهه صاحبك »[٥].

---

(١) ينظر لسان العرب : ٥ / ٣٥٠١ (فيض).
(٢) لسان العرب : ٣ / ١٨٥٥ (زلل).
(٣) ينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر: ٢ / ٣١٠.
(٤) لسان العرب : ٣ / ١٨٥٦ (زلل).
(٥) لسان العرب : ٤ / ٢٣٥٦ (شود). والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ٢ / ٥١٧.

فالمعني الحقيقي للإشادة هي رفعة البناء، وشموخه، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨] فالبروج هى الحصون، والمشيدة أى المرفعة من شاد القصر إذا رفعه[١] فالاستعارة فى الفعل (أشاد...) فى كلامه الآنف الذكر، وقد عبر عن هذه الاستعارة بقوله (فاستعير لرفع صوتك إلخ).

استعيرت رفعة البناء لرفع الصوت بالمدح، أو القدح، ويدل ما ذكره صاحب اللسان على أن ما تعارف عليه الناس من قصرهم الإشادة على الخير وحده مناف لكلام العرب، ولغتهم. قال الزمخشرى: «ومن المجاز أشاد بذكره رفعه بالثناء عليه، وأشاد عليه قبيحا أو بقبيح»[٢].

وظاهر من كلامهما معا أنه يقال أشاد فلان بذكر فلان فى الخير والشر، ولا يقال أشاد عليه قبيحا إلا فى الشر، فالإشادة فى الشر تتعدى بالباء، وعلى؛ ولذلك قال ابن حجر العسقلانى – رحمة الله – أشاد بذكره رفعه بالثناء عليه، وأشاد عليه أفشى عليه مكروها، ويقال أشاد عليه قبيحا فقبح[٣].

ومن هذا اللون ما ذكره من استعارة دخول الضب فى جحره لدخول الشيطان فى الإنسان فقد قال: «.. والقصعة والقصعاء والقاصعاء جحر يحفره اليربوع... وقصع الضب سد باب حجره... وقصع الضب أيضًا دخل فى قاصعائه، واستعاره بعضهم للشيطان فقال:

إذا الشيطان قصع فى قفاها   تنفقنـاه بالحبـل التـؤام

قوله تنفقناه أى استخرجناه كاستخراج الضب من نافقائه»[٤].

الاستعارة التبعية فى الفعل (قصّع) من قوله (قصع فى قفاها) وقد كرر ذلك البيت فى موضع آخر عندما قال: «والنافقاء جحر الضب واليربوع... وتنفقه الحارس وانتفقه استخرجه من نافقائه واستعاره بعضهم للشيطان فقال:

إذا الشيطان قصع فى قفاها   تنفقنـاه بالحبـل التـؤام

---

(١) الكشاف: ١/٢٨٣.
(٢) أساس البلاغة (شيد).
(٣) غراس الأساس (شيد).
(٤) لسان العرب: ٥/٣٦٥٤ (قصع).

أى استخرجناه استخراج الضب من نافقائه»[١].

فقوله فى صدر كلامه المتقدم وقصع الضب دخل فى قاصعائه حقيقة لغوية، وقد استعير هذا التقصيع لدخول الشيطان فى قفا هذه المرأة التى ذكر الشاعر اسمها فى بيت يسبق هذا البيت وهو قوله:

وما أم الردين وإن أدلت بعالمة بأخلاق الكرام[٢]

وقد عبر صاحب اللسان عن هذه الاستعارة بالفعل الماضى (استعار) فى قوله (واستعاره بعضهم للشيطان).

ومعنى قصع الشيطان فى قفا الإنسان أى أنه قد ساء خلقه وغضب[٣] وهذه الاستعارة مرشحة لأنه ذكر معها ما يتلاءم مع المستعار منه وهو قول الشاعر فى الشطر الثاني (تنفقناه بالحبل التؤام) فالاستخراج بالحبل إنما يلائم الضب الذى دخل فى جحره، وفى هذا ما فيه من زيادة تناسى الاستعارة.

ومن هذا القبيل ما صرح به من استعارة صعد المكان، لارتفاع الهوى فى قلب المحب فقد قال: «صَعِد المكان وفيه صعودا، وأصعد، وصّعد ارتقى مشرفا»[٤].

وهذا صعود حقيقى كما لا يخفى، وقد أتبع صاحب اللسان ذلك بالصعود المجازى فقال: «واستعاره بعض الشعراء للعرض الذى هو الهوى فقال:

فأصبحن لا يسألنه عن بمابه أصعد فى علو الهوى أم تصوبا[٥]

وأراد أصعد أم صوب فلما لم يمكنه ذلك وضع تصوب موضع صوب»[٦].

ومعنى تصوب تسفل[٧] واضح أن الاستعارة التى أرادها هنا هى فى (أصعد) وإن كان فى (تصوبا) أيضاً استعارة.

فالصعود، والتصعد الحقيقى الارتفاع المحسوس فى الأمكنة ونحوها والتصوب التسفل المحسوس كذلك، وقد جاء الفعلان على سبيل الحقيقة فى الشاهد البلاغى المشهور:

---

(١) المصدر نفسه: ٦/٤٥٠٨ (نفق). (٢) ينظر الكشاف: ١/٣٧.
(٣) أساس البلاغة (قصع). وغراس الأساس (قصع).
(٤) لسان العرب: ٤/٣٤٤٤ (صعد).
(٥) أراد عما به فزاد الباء وفصل بها بين عن وما جرته. المصدر نفسه: ٤/٢٤٤٥.
(٦) المصدر نفسه والموضع. (٧) أساس البلاغة (صوب).

وكأن محمـــر الشقيـ ... ق إذا تصوب أو تصعـد

أعلام ياقوت نشـــر ... ن على رماح من زبرجد

وقد عبر صاحب اللسان عن هذه الاستعارة التبعية فى (أصعد) بقوله (واستعاره بعض الشعراء للعرض إلخ).

وهى استعارة محسوس لمعقول، وقد جرت عادته أن يعبر عن المعقول (بالعرض) ويعبر عن المحسوس (بالجوهر) أحيانا.

وقد ظفرت باستعارة اسم الفاعل من (أصعد) للارتقاء فى قمم المجد، ومدارجه فى قول الخنساء تمدح أخاها صخرا:

إذا القوم مدوا بأيديهم ... إلـــى المجـد مـد إليه يـدا

فنال الذى فوق أيديهم ... من المجد ثم مضى مصعدا(١)

أى أنه فاق القوم، وبذهم فى المجد والشرف، وارتقى نحو قمة المجد. وذروته، فاستعارت (مصعدا).

للارتفاع فى السؤدد، والمجد، وعلى ذلك قول الزمخشرى «ومن المجاز له شرف صاعد... ورتبة بعيدة المصعد والمصاعد»(٢).

ومن هذا النمط ما ذكره من استعارة غصب الشىء وهو أخذه ظلما، لمواقعة المرأة رغما عنها فقد قال: «الغصب أخذ الشىء ظلما غصب الشىء يغصبه غصبا، واغتصبه فهو غاصب... والاغتصاب مثله.. وفى الحديث أنه غصبها نفسها أراد أنه واقعها كرها فاستعاره للجماع»(٣).

فالمستعار منه الغصب المعبر عنه بالفعل (غصبها) فى الحديث، والمستعار له الجماع كرها، ويلاحظ أن صاحب اللسان سوى بين الفعلين غصب، واغتصب فى إفادة هذا المعنى، وإن كان الموجود فى الحديث المذكور (غصب).

وقد عبّر الزمخشرى عن هذه الاستعاره بالفعل (اغتصب) حين قال: «واغتصبت فلانة نفسها جومعت مقهورة»(٤).

---

(١) البيتان فى أسرار البلاغة: ٣٦٢.
(٢) أساس البلاغة (صعد).
(٣) لسان العرب: ٥ / ٣٢٦٢ (غصب). والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ٤ / ٣٧٠.
(٤) أساس البلاغة (غصب).

ونلحظ أن الفعل (اغتصب) هو المتداول على ألسنة الناس فى هذه الأيام حينما يعبرون عن هذه الفعلة الشنعاء، وخاصة فى وسائل الإعلام المختلفة. ولعل ذلك لما فيه من زيادة المبنى التى تدل على زيادة المعنى - كما يقولون -.

ومن ذلك ما ذكره من استعارة ضيف، وأضاف من إكرام الضيف، لمسالمة الذئب وتأمينه فقد قال: «وأضفته، وضيفته أنزلته عليك ضيفًا، وأملته إليك، وقربته، ولذلك قيل هو مضاف إلى كذا أى ممال إليه، ويقال أضاف فلان فلانا فهو يضيفه إضافة إذا ألجأه إلى ذلك، وفى التنزيل العزيز ﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ [الكهف: ٧٧] وأنشد ثعلب لأسماء بن خارجة الفزارى يصف الذئب:

ورأيت حقا أن أضيفه إذا رام سلمى واتقى حربى

استعار له التضييف، وإنما يريد أنه أمنه وسالمه»[١].

فالاستعارة التبعية فى الفعل (أضيفه) وقد عبر عنها بالفعل (استعار..).

فالمستعار منه إكرام الضيف، وتقريبه، وإمالته، والمستعار له تأمين الذئب، ومسالمته، وعدم إيذائه.

ويلاحظ أن فى قوله (استعار له التضييف) تعبير عن الاستعارة التبعية فى قول الشاعر (أضيفه) بالمصدر (تضييف) وربما كان يومىء بذلك إلى أن التبعية تجرى أولا فى المصدر، ثم تجرى بعد ذلك فى الفعل- كما سبق بيانه -.

ومن ذلك الضرب ما ذكره من استعارة الفعل (هَبِل) من فقد الولد، لفقد العقل والتمييز، فقد قال: «والهبل الثكل، هبلته أمه ثكلته، وفى حديث الشعبى فقيل لأمك الهبل، وفى حديث حارثة بن سراقة ويحك أو هبلت هو بفتح الهاء وكسر الباء، وقد استعاره هنا لفقد الميز والعقل مما أصابها من الثكل بولدها كأنه قال أفقدت عقلك بفقد ابنك»[٢].

فالاستعارة التبعية فى الفعل الماضى من قوله (أو هبلت) وقد استعير (الهبل) وهو مصدر هذا الفعل من فقد الابن لفقد العقل والتمييز، فيقال لأمه الهبل، وهبلته أمه، وأمه هابل[٣].

---

(١) لسان العرب: ٤ / ٢٦٢٥ (ضيف).
(٢) لسان العرب: ٦ / ٤٦٠٧ (هبل). والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ٥ / ٢٤٠.
(٣) ينظر أساس البلاغة (هبل).

وقد وجدت فى شواهد الكشاف قول الشاعر:

والناس من يلق خيرا قائلون له ما يشتهى ولأم المخطىء الهبل

أى يقول الناس لمن يلقى خيرا ما يريده من الدعاء بالخير، والمدح والثناء، ويقال لأم المخطىء الهبل أى الثكل يدعون عليها بموت ولدها، فكأنهم يدعون على المخطىء بالموت[1].

وقد تردد صاحب شواهد الكشاف فى قائل هذا البيت:

أهو للقطامى أو للأعشى »[2]

وقد عثرت بهذا البيت مع بيتين آخرين وهى للقطامى من قصيدة يقول فيها:

والعيش لا عيش إلا ما تقربه عَيْنٌ ولا حال إلا سوف ينتقل

والناس من يلق خيرا قائلون له ما يشتهى ولأم المخطىء الهبل

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل[3]

ومما يجدر ذكره أن كلمة (الهبل) يستعملها الناس فى معنى فقدان العقل، وهذا – كما رأينا – استعمال فصيح، وهى استعارة اشتهرت حتى صارت كأنها حقيقة.

ومن هذا النسق ما ذكره من استعارة إسناف الخيط، وهو إحكام فتله، لإحكام الأمر فقد قال: «السناف خيط يشد به من حقب البعير إلى تصديره، ثم يشد فى عنقه إذا ضمر... والجمع سنف... وأسنفه شده بالسناف، وأسنفت البعير جعلت له سنافا، وإنما يفعل ذلك إذا خمص بطنه، واضطرب تصديره وهو الحزام... وربما قالوا أسنفوا أمرهم أي أحكموه، وهو استعارة من هذا»[4].

المستعار منه فى هذه الاستعارة إسناف الحبل ونحوه من الأشياء المحسوسة، والمستعار له إحكام الأمر وذلك شيء معقول ولا يخفى أن الاستعارة فى (أسنفوا أمرهم) وقد عبر عنها صاحب اللسان بلفظ (استعارة) فى قوله (وهو استعارة من هذا).

---

(١) ينظر مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف: ٩١ فى نهاية الجزء الرابع للكشاف.

(٢) ينظر المرجع نفسه والموضع.

(٣) زهر الآداب ٣/٦٤٦.

(٤) لسان العرب: ٣/٢١١٨ (سنف).

ومن هذا اللون ما ذكره من استعارة اللمس، وهو الجس باليد، للطلب فقد قال: «اللمس الجس، وقيل اللمس المس باليد... وفى الحديث من سلك طريقا يلتمس فيه علما أى يطلبه فاستعار له اللمس، وفى حديث عائشة فالتمست عقدى والتمس الشيء وتلمسه طلبه»(١).

فالمستعار منه اللمس باليد، والمستعار له طلب الشيء والبحث عنه، والاهتمام بأمره، وقد عبر عن هذه الاستعارة بالفعل (استعار..).

ومن ذلك النوع ما ذكره من استعارة الطيران، للجرى فقد قال: «الطيران حركة ذى الجناح فى الهواء بجناحه طار الطائر يطير طيرا وطيرانا... وقال العنبرى:

طاروا إليه زرافات ووحدانا(٢)

ومن أبيات الكتاب - يقصد كتاب سيبويه - وطرت بمنصلى فى يعملات(٣) فاستعملوا الطيران فى غير ذى الجناح... وقوله فى الحديث رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله يطير على متنه أى يجريه فى الجهاد، فاستعار له الطيران»(٤).

المستعار منه هو الطيران - كما قال - وهو مصدر الفعلين فى (طاروا) و(طرت) فى الشطرين السابقين، وقد أشار إلى الاستعارة فى الشطرين بقوله (فاستعملوا الطيران فى غير ذى الجناح) وعبر عنها فى الحديث بقوله (فاستعار له الطيران) أى استعار الطيران للجرى.

ويلاحظ أنه ذكر أن المستعار منه (الطيران) وهو مصدر الفعل (يطير) المذكور فى الحديث، ولعله يلوح بذلك إلى أن الاستعارة التبعية تجرى فى المصدر أولا ثم تجرى بعد ذلك فى الفعل.

---

(١) لسان العرب: ٥/٤٠٧٢ - ٤٠٧٣ (لمس). والنهاية فى غريب الحديث والأثر ٤/٢٧٠، ٢٧١.

(٢) البيت بتمامه:

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا

ينظر مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف: ٤/١٣٢.

(٣) البيت فى الإيضاح وهو بتمامه:

فطرت بمنصلي فى يعملات دوامى الأيد يخبطن السريحا

ص ١٢٤ (البغية).

(٤) لسان العرب: ٤/٢٧٣٥ - ٢٧٣٨ (طير).

ومن هذا القبيل ما ذكره من استعارة الصوغ، وهو سبك الفضة، والذهب ونحوهما، للكذب والزور، واختلاف الكلام، ويستعار كذلك لتأليف الكلام، وترتيبه فقد قال: «الصوغ مصدر صاغ الشيء يصوغه صوغا وصياغة... سبكه ورجل صواغ يصوغ الكلام ويزوره، وربما قالوا فلان يصوغ الكذب وهو استعارة، وصاغ فلان زورا وكذبا إذا اختلقه يقال صاغ شعرا وكلاما أي وضعه ورتبه»(١).

فالصياغة أو الصوغ في الأصل هي السبك، وهو كما جاء في لسان العرب «سبك الذهب والفضة ونحوه من الذائب... وسبكه ذوبه وأفرغه في قالب والسبيكة القطعة المذوبة منه»(٢).

والصوغ، أو الصياغة، أو السبك، في الذهب، والفضة، وما أشبههما - كما أبانه - معنى حقيقي - أو استعمال حقيقي، ويستعار للكذب والزور فيقال صاغ فلان زورا وكذبا فالفعل (صاغ) استعارة تبعية.

وكذلك يقال على سبيل الاستعارة فلان يصوغ الكذب، ففي الفعل (يصوغ) استعارة تبعية، وفي هذا إيماء إلى أن الكذاب يحتاج إلى تعمل وتمحل وبذل للجهد والطاقة في اختلاق الكذب، وتزويقه، وإحكام نسجه، وتستعار الصياغة والصوغ كما قال صاحب اللسان في كلامه الآنف الذكر أيضًا لوضع الشعر، وتأليفه، وترتيبه، وكذلك تأليف النثر، أو على حد تعبيره (صاغ شعرا وكلاما أى وضعه ورتبه) وقد صرح بأن هذا الاستعمال من قبيل الاستعارة.

ومما يلاحظ في هذا الصدد أن كلمة الصياغة، وهي كثيرة التناول والاستعمال تأتي عند البلاغيين - كما أوضح صاحب اللسان - مستعارة لتأليف الكلام شعره، ونثره، وإحكامه، وإتقان نسجه، وقد تكررت هذه الكلمة مع أخوات لها في كلام الشيخ عبد القاهر الجرجاني، وهو يشير إلى نظم الكلام وتأليفه، فمن ذلك ما ذكره في بعض المواضع من أن النظم «كان عندهم نظير للنسيج والتأليف والصياغة والبناء والوشي والتحبير، وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض»(٣).

ومن هذا الضرب ما ذكره من استعارة زراعة الحب، وبذرِه في الأرض، لتثبيت

---

(١) لسان العرب ٤ /٢٥٢٧ (صوغ). (٢) المصدر نفسه: ٣/ ١٩٢٩ (سبك).

(٣) دلائل الإعجاز: ٤٩

الحكمة، أو الحجة في قلوب الناس فقد قال: «زرع الحب يزرعه زرعا وزراعة بذره والاسم الزرع... واستعار عليٌّ رضوان الله عليه ذلك للحكمة أو للحجة، وذكر العلماء الأتقياء بهم يحفظ الله حججه حتى يودعوها نظراءهم ويزرعوها في قلوب أشباههم»(١).

ففي قوله (يزرعوها) استعارة تبعية، استعيرت زراعة الحب في الأرض لإقرار الحكمة، أو الحجة في قلوب العلماء الأتقياء، وترسيخها في نفوسهم، وهي استعارة محسوس لمعقول كما هو ظاهر، وقد عبر عنها بالفعل الماضي (استعار).

ويبدو أن استعارة الزراعة في الأرض للأمور المعنوية ليست قاصرة على الحكمة، أو الحجة، فقد ظفرت ببعض أمثلة استعيرت فيها الزراعة للمحبة، وتمكينها في القلوب، قال الزمخشري: ومن المجاز وزرع الحبَّ لك في القلوب كرمك، وحسن خلقك(٢) وتستعار أيضًا للإحسان: قال الشاعر:

عمر الفتى ذكره لا طول مدته ... وموته خزيه لا يومه الداني

فأحي ذكرك بالإحسان تزرعه ... تجمع لك في الدنيا حياتان(٣)

وتستعار الزراعة على ألسنة الناس في هذه الأيام لتمكين الإنسان من وظيفة، أو عمل، أو موقع من المواقع، فيقولون - مثلا - زرع العميد ابنه في كليته، أو ما شاكل ذلك إشارة إلى تمكينه من عمل فيها، أو وظيفة يؤثره بها، دون غيره من نظرائه.

وقد اقتصر صاحب لسان العرب هنا في مادة (زرع) على الاستعارة في قوله (... ويزرعوها في قلوب أشباههم) وأرجأ بيان الاستعارة في قوله (حتى يودعوها نظراءهم) إلى موضعها من كتابه حين قال: «والوديعة واحدة الودائع وهي ما استودع، وقوله تعالى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: ٩٨] المستودع ما في الأرحام، واستعاره علي - رضي الله عنه - للحكمة والحجة، فقال بهم يحفظ الله حججه حتى يودعوها نظراءهم ويزرعوها في قلوب أشباههم»(٤).

فالوديعة في الأصل ما يودعه الإنسان عند غيره، وقد استعير الإيداع المفهوم من

(١) لسان العرب: ٣/١٨٢٦ (زرع).
(٢) أساس البلاغة (زرع).
(٣) زهر الآداب: ٣/٧٢٢.
(٤) لسان العرب: ٦/٤٧٩٩ (ودع).

(مستودع) للأجنة المودعة فى أرحام الأمهات، وتفسيره لمستودع بما فى الأرحام يشعر أنه اسم مفعول، ويكون (مستقر) اسم مكان يقصد منه الأرحام، وفيهما أقوال لأهل العلم ليس هذا موضعها.

ومن هذا اللون ما ذكره من استعارة (اللسع) و(اللدغ) وهو للحية والعقرب للإيذاء، والعيب بلسان الناس فقد قال: « ويقال لسعته الحية والعقرب... ولسعه بلسانه عابه وآذاه، ورجل لساع ولسعة عيابة قراصة للناس بلسانه... وفى الحديث لا يلسع المؤمن من جحر مرتين وفى رواية لا يلدغ[1] واللسع واللدغ سواء، وهو استعارة هنا أى لا يدهى المؤمن من جهة واحدة مرتين فإنه بالأولى يعتبر... ومعناه أن المؤمن هو الكيس الحازم الذى لا يؤتى من جهة الغفلة فيخدع مرة بعد مرة، وهو لا يفطن لذلك، ولا يشعر به »[2].

يقول: إن لسع الناس ولدغهم من الحية والعقرب حقيقة، ولكن لسعهم، ولدغهم بلسان إخوانهم فى الإنسانية استعارة، استعير الإيلام والإيذاء الحسى للإيلام المعنوى، وغنى عن البيان أن الاستعارة فى (لسع) و(لدغ) تبعية، يقال فلان يلسع الناس أى يؤذيهم، ويقرصهم[3] وتلك شنشة العقرب، ودأبها على حد قوله الشاعر:

يأبى فؤادى أن يميل إلى الأذى   حب الأذية من طباع العقـــرب

وقد عبر صاحب اللسان عن هذه الاستعارة التبعية فى (يلسع) و(يلدغ) بلفظ (استعارة) فى قوله عقب الحديث النبوى (وهو استعارة هنا...) يقصد فى الحديث.

ويتراءى لى أنه يمكن إجراء استعارة تمثيلية فى الحديث الآنف الذكر، استعيرت فيه صورة من لدغته حية، أو عقرب ثم عاد إلى جحرها مرة أخرى، دون أن يتعظ، أو يعتبر بما جرى عليه فى المرة الأولى لصورة إنسان لحقه الضرر من صديق، أو رفيق - مثلا - وذاق المر من فعله، ثم غفل عما أصابه منه، وعاد سيرته الأولى يركن إليه، ويثق فيه، وقد نفى رسول الله ﷺ هذه الصورة عن المؤمن، لأنه كيس فطن لا ينخدع على حد قول عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - لست بالخب ولا الخب يخدعنى.

ومن هذا النوع ما ذكره من استعارة (التحجيل) وهو البياض الموجود فى قوائم

---

(١) الحديث فى كتاب النهاية فى غريب الحديث والأثر: ٤ / ٢٤٨.
(٢) لسان العرب: ٥ / ٤٠٢٩ (لسع).   (٣) أساس البلاغة (لدغ).

الخيل، للبياض الذى يعلو أيدى المؤمنين، وأرجلهم يوم القيامة من آثار الوضوء فقد قال: « ... وفى الحديث فى صفة الخيل الأقرح المحجل قال ابن الأثير هو الذى يرتفع البياض فى قوائمه فى موضع القيد ويجاوز الأرساغ، ولا يجاوز الركبتين، لأنها مواضع الأحجال، وهى الخلاخيل والقيود ومنه الحديث أمتى الغر المحجلون أى بيض مواضع الوضوء من الأيدى والوجه، والأقدام استعار أثر الوضوء فى الوجه واليدين والرجلين للإنسان من البياض الذى يكون فى وجه الفرس ويديه ورجليه... »[١].

واضح أن الاستعارة هنا تبعية فى اسم المفعول (المحجلون) فالتحجيل، أو البياض الموجود فى أيدى الخيل، وأرجلها حقيقة لغوية، وقد استعير فى الحديث لأثر الوضوء فى أيدى المؤمنين، وأرجلهم يوم القيامة تمييزا لهم عمن عداهم، وقد عبر صاحب اللسان عن هذه الاستعارة بالفعل (استعار).

وقد ألمح إلى تلك الاستعارة فى موضع آخر دون أن يصرح بما يدل عليها حين قال: « .... وفى الحديث غر محجلون من آثار الوضوء، الغر جمع الأغر من الغرة بياض الوجه يريد بياض وجوههم بنور الوضوء يوم القيامة »[٢].

وقد وجدت هذا الحديث فى صحيح مسلم، وهو كما رواه « ... قال رسول الله ﷺ أنتم الغر المحجلون يوم القيامة من إسباغ الوضوء فمن استطاع منكم فليطل غرته وتحجيله » وقد شرح الإمام النووى الاستعارة فى الحديث فقال: « قال أهل اللغة الغرة بياض فى جبهة الفرس والتحجيل بياض فى يديها ورجليها قال العلماء سمى النور الذى يكون على مواضع الوضوء يوم القيامة غرة وتحجيلا تشبيها بغرة الفرس »[٣].

فقوله (تشبيها) يقصد منه الاستعارة لأن الحديث ليس فيه تشبيه اصطلاحى.

ومن هذا اللون ما ذكره من استعارة (مقدمة) الجيش، وهم الجنود الذين يتقدمون، لأول كل شيء فقد قال: « ومقدمة العسكر وقادمتهم، وقدماهم متقدموهم التهذيب مقدمة الجيش بكسر الدال أوله الذين يتقدمون »[٤].

ثم ذكر أن مقدمة الجيش هى من قدم بمعنى تقدم، ومنه قولهم المقدمة

---

(١) لسان العرب: ٢/٧٨٨ (حجل) والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ١/٣٤٦.
(٢) المصدر نفسه: ٥/٣٢٣٤ (غرر). (٣) صحيح مسلم بشرح النووى: ١/٥٣١.
(٤) لسان العرب: ٥/٣٥٥٣ (قدم).

والنتيجة[١] وأضاف قائلاً: « ... وفى كتاب معاوية إلى ملك الروم لأكونن مقدمته إليك أى الجماعة التى تتقدم الجيش »[٢].

واستعمال المقدمة فى ذلك المعنى حقيقة لغوية، بدليل قوله بعد ذلك: « .. وقد استعير لكل شىء فقيل مقدمة الكتاب، ومقدمة الكلام بكسر الدال »[٣].

وقد أشار إلى أن الدال قد تفتح فيقال مقدمة الإبل والخيل ومقدمتهما، أول ما ينتج منهما ويلقح، ومقدم كل شىء نقيض مؤخره[٤].

ونقل عن بعضهم أن الفتح ليس لحنا؛ لأن غيره قدمه فهو مقدم[٥] وظاهر من كلامه أن المقدمة حقيقة فى جنود الجيش الذين يتقدمون صفوفه استعارة فيما عدا ذلك، فيمكن أن يقال مقدمة المصلين، ومقدمة الكتاب، ومقدمة الخطبة، وهى استعارة تبعية فى اسم الفاعل أو اسم المفعول، باعتبار كسر الدال، أو فتحها.

ومن هذا الضرب ما ذكره من استعارة الثوب المفْدَم. الذى أشبع صبغه للذل الشديد الذى ضرب الله به النصارى، فقد قال: « الفدم من الناس العيى عن الحجة والكلام... وهو أيضاً الغليظ السمين الأحمق الجافى... والمفدم من الثياب المشبع حمرة، وأحمر فدم مشبع، والفدم الثقيل من الدم، وثوب فدم ساكنة الدال إذا أشبع صبغه، وثوب فدم إذا كان مصبوغا بحمرة مشبعا... وفى حديث أبى ذر أن الله ضرب النصارى بذل مفدم أى شديد مشبع فاستعاره من الذوات للمعانى »[٦].

فالثوب المفدم هو الذى أشبع صبغه أى بلغ درجة التشبع فى صباغته، فلا يقبل المزيد منها، وهذا – كما هو ظاهر – استعمال حقيقى، وقد استعيرت هذه الصفة للذل الذى بلغ أقصاه، وضرب الله به النصارى كما فى حديث أبى ذر المتقدم، وهى استعارة تبعية فى اسم المفعول (مفدم) عبر عنها صاحب اللسان بالفعل الماضى (استعار) فى قوله (فاستعاره من الذوات للمعانى).

وهى استعارة محسوس لمعقول، أو ذات لمعنى على حد تعبيره.

---

(١) ينظر المصدر نفسه: ٥/ ٣٥٥٤ (قدم).
(٢) المصدر نفسه والموضع. (٣) المصدر نفسه والموضع.
(٤) المصدر نفسه والموضع. (٥) المصدر نفسه والموضع.
(٦) لسان العرب: ٥/ ٣٣٦٥ (فدم). والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ٣/ ٤٢١.

ويلاحظ أن اللفظ المستعار منه هنا له عدة معان أصلية، وقد استعير أحدها دون غيره؛ لأن غرض الاستعارة يتعلق، ويتحقق به دون سواه.

ومن هذا النوع ما ذكره من استعارة (مقيلة) وهو موضع القائلة لموضع الهامة من الجسم فقد قال: «القائلة الظهيرة يقال أتانا عند القائلة، وقد تكون بمعنى القيلولة أيضًا، وهو النوم في الظهيرة... والمقيل أيضًا الموضع... ومنه حديث الجنائز هذه فلانة ماتت ظهرا وأنت صائم قائل أى ساكن فى البيت عند القائلة وفى شعر ابن رواحة:

اليوم نضربْكم على تنزيله   ضربا يزيل الهام عن مقيله

الهام جمع هامة، وهى أعلى الرأس، ومقيله موضعه مستعار من موضع القائلة»[1].

الاستعارة فى (مقيله) تبعية فى اسم المكان، وهى استعارة محسوس لمحسوس، وفيها إيماء إلى أن رءوس الكفار، مؤقتة فى أماكنها كوقت القيلولة لا تلبث إلا ريثما تمحقها سيوف المسلمين (ولينصرن الله من ينصره).

ومن هذا اللون ما ذكره من استعارة الطريف والتليد أى الجديد والقديم من المال للمكارم المكتسبة المستحدثة، والموروثة عن الآباء والأجداد، فقد قال: «قال عدى بن الرقاع يمدح الوليد بن عبدالملك:

غلب المساميح الوليد سماحة   وكفى قريش المعضلات وسادها
وإذا نشرت له الثناء وجدته   ورث المكارم طرفها وتلادها

المساميح جمع مسماح، وهو الكثير السماحة. والمعضلات الأمور الشداد، يقول إذا نزل بهم معضلة، وأمر فيه شدة، قام بدفع ما يكرهون عنهم، ويروى: جمع المكارم، وقوله طرْفها أراد طرفها فأسكن الراء تخفيفا، وإقامة للوزن، وهو جمع طريف، وهو ما استحدثه من المال، والتلاد ما ورثه، وهو المال القديم فاستعاره للكرم»[2].

---

(١) لسان العرب: ٥/٣٧٩٧ (قيل). والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ٤/١٣٣، ١٣٤.
(٢) لسان العرب: ٥/٣٥٨٦ (قرش).

ويبدو أن رواية جمع المكارم التى ألمح إليها صاحب اللسان هى المناسبة للمعنى؛ لأن الفعل (ورث) لا يوائم الكرم. المكتسب الذى أتى به الممدوح من تلقاء نفسه.

وقد أورد صاحب لسان العرب عقب كلامه الآنف الذكر ما قاله بعضهم: إن من المستحسن لعدى بن الرقاع فى القصيدة التى منها هذان البيتان، ولم يسبق إليه فى صفة ولد الظبية قوله:

تزجى أغن كأن إبرة روقه   قلم أصاب من الدواة مدادها

وهذا البيت وما فيه من تشبيه مشتهر لدى البلاغيين شهرة فائقة تغنى عن أى قول فيه:

ثانيتها: أن يعبر عن الاستعارة التبعية بلفظ التشبيه، أو ما اشتق منه.

ومن هذا النوع ما ذكره من استعارة الإحراق، أو الاحتراق للهلاك فقد قال: «... وأحرقه بالنار وحرقه - بتشديد الراء - شدد للكثرة... وفى حديث المظاهر احترقت أى هلكت، ومنه حديث المجامع فى نهار رمضان احترقت شبها ما وقعا فيه من الجماع فى المظاهرة والصوم بالهلاك، وفى الحديث أنه أوحى إلى أن أحرق قريشا أى أهلكهم، وحديث قال الردة فلم يز ل يحرق أعضاءهم حتى أدخلهم من الباب الذى خرجوا منه»[1].

الاستعارة فى قول كل منهما (احترقت) استعير الاحتراق للهلاك، والقرينة ضمير المتكلم فى (احترقت) ومخاطبتهما لرسول الله ﷺ، وقد عبر عنها بالفعل (شبه) وأراد التشبيه الذى تبنى عليه الاستعارة؛ لأن الكلام ليس فيه تشبيه اصطلاحى.

وقد ظفرت بحديث المجامع فى نهار رمضان فى صحيح مسلم فعن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال احترقت قال رسول الله ﷺ لم؟ قال وطئت امرأتى فى رمضان نهارا قال تصدق تصدق قال ما عندى شىء فأمره أن يجلس فجاءه عرقان[2] فيهما طعام فأمره رسول الله ﷺ أن يتصدق به[3].

---

(١) لسان العرب: ٢ / ٨٤٠ (حرق). والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ١ / ٣٧١.

(٢) العرق بفتح العين والراء ضفيرة تنسج من خوص، وهو المكتل والزنبيل. مختار الصحاح (عرق).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى: ١ / ١٧١.

قال الإمام النووى – رحمه الله – قوله: (احترقت فيه استعمال المجاز، وأنه لا إنكار على مستعمله[1].

ومن هذا الضرب ما ذكره من استعارة انفجار الماء ونحوه، لكثرة انثيال الدواهى على الناس، ومفاجأتهم بها، وإفاضة القوم على عدوهم بغتة، فقد قال «الفجر ضوء الصباح، وهو حمرة الشمس فى سواد الليل، وهما فجران، أحدهما المستطيل الكاذب الذى يسمى ذنب السرحان، والآخر المستطير الصادق المنتشر فى الأفق الذى يحرم الأكل والشرب على الصائم... والفجر تفجيرك الماء، والمفجر الموضع ينفجر منه، وانفجر الماء ونحوه من السيال وتفجر انبعث سائلا، والمفجرة والفجرة بالضم منفجر الماء من الحوض وغيره... وانفجرت عليهم الدواهى أتتهم من كل وجه كثيرة بغتة، وانفجر عليهم القوم وكله على التشبيه»[2].

نلحظ أن صاحب اللسان صدر كلامه بعدة استعمالات من مادة (فجر) بدأها بالفجر، وهو ضوء الصباح، وأضاف الفجر أى تفجير الماء، وانفجار الماء ونحوه من سائر السوائل، والمفجر أي الموضع الذى يتفجر منه الماء... وأتى فى عجز كلامه بالاستعارة فى قوله:

وانفجرت عليهم الدواهى إلخ.

استعير انفجار الماء ونحوه لانفجار الدواهى، وإتيانها بكثرة على سيل المباغتة والمفاجأة، وهى استعارة محسوس لمعقول، واستعير انفجار الماء ونحوه، لإفاضة الأعداء على عدوهم من كل صوب، وحدب، وهى استعارة محسوس لمحسوس.

وقد عبر صاحب اللسان عن تلك الاستعارة بشطريها بلفظ التشبيه حين قال فى إثرها (وكله على التشبيه) يعنى الاستعارة لأنه لا أثر للتشبيه الاصطلاحى فى كلامه.

ويؤكد أمر هذه الاستعارة قول الزمخشرى وابن حجر العسقلانى – رحمهما الله – انفجر عليهم العدو إذا جاءهم بغته بكثرة، وانفجرت عليهم الدواهى[3].

ومن هذا اللون ما ذكره من استعارة الاحتدام، وهو شدة الحر، أو التهاب النار،

---

(١) المرجع نفسه والموضع. (٢) لسان العرب: ٥/٣٣٥١ (فجر).

(٣) أساس البلاغة (فجر) وغراس الأساس (فجر).

لامتلاء الصدر بالغيظ، فقد قال: « ... الحدم شدة إحماء الشيء بحر الشمس، والنار تقول حدمه كذا فاحتدم، وقال الأعشى:

وإدلاج ليل على غرة وهاجرة حرها محتدم

... وحدمة النار بالتحريك صوت التهابها، وهذا يوم محتدم، ومحتمد شديد الحر، والاحتدام شدة الحر ابن سيده حدم النار والحر وحدمهما شدة احتراقهما وحميهما الجوهري احتدمت النار التهبت غيره احتدمت النار والحر اتقدا، واحتدم صدر فلان غيظا، واحتدم على غيظا، وتحدم تحرق، وهو على التشبيه بذلك»[١].

ذكر صاحب اللسان في وجه كلامه المتقدم عدة استعمالات حقيقية للاحتدام كاحتدام النار والنهار أى شدة حرهما وغير ذلك، وذكر في مؤخرة كلامه استعارة هذا الاحتدام لامتلاء الصدر بالغيظ، واشتعاله في جنباته حتى كاد أن يتفطر، ويتميز، وهي استعارة تبعية في الفعل الماضي احتدم، وتحدم.

عبر عنها بلفظ التشبيه في قوله (واحتدم صدر فلان غيظا... وهو على التشبيه) وواضح أنه يعني بالتشبيه هنا الاستعارة، لأنه لا يوجد في هذا الكلام تشبيه مصطلح عليه.

ويدعم أمر هذه الاستعارة قول الزمخشري.. احتدم الحر، واحتدم النهار اشتد حره... ومن المجاز احتدم صدر فلان غيظا، وهو يتحدم على يتغيظ[٢].

ومن هذا الضرب ما ذكره من استعارة تناسق الأسنان، وحسن تنضيدها في الفم، لترتيل الكلام، وإحسان تأليفه، والتؤدة فيه والترسل في القراءة، والتمهل فيها فقد قال: « ... وثغر رتل، ورتل حسن التنضيد مستوى النبات[٣] وقيل المفلج، وقيل بين أسنانه فروج، لا يركب بعضها بعضا وربما قالوا رجل رتل الأسنان مثل تعب بين

---

(١) لسان العرب: ٢/٨٠٧ (حدم). (٢) أساس البلاغة (حدم).

(٣) ذكر صاحب لسان العرب في موضع آخر أن النبتة شكل النبات وحالته التي ينبت عليها (بكسر نون النبتة) والنبتة بفتحها الواحدة من النبات: ٦/٤٣١٨ (نبت).

وفي أساس البلاغة: ثغر مرتل ورتل ورتِل مفلج مستوى النبتة حسن التنضيد (رتل).

الرتل إذا كان مفلج الأسنان، وكلام رتل ورتل أي مرتل حسنٌ على تؤدة، ورتل الكلام أحسن تأليفه، وأبانه، وتمهل فيه، والترتيل في القراءة الترسل فيها، والتبيين من غير بغى، وفى التنزيل العزيز ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ [المزمل: ٤]... وقال مجاهد الترتيل الترسل، قال ورتلته ترتيلا بعضه على أثر بعض، قال أبو منصور ذهب به إلى قولهم ثغر رتل إذا كان حسن التنضيد... »[1].

ويتابع صاحب لسان العرب كلامه قائلاً: « ... وفى صفة قراءة النبى ﷺ كان يرتل آية آية، ترتيل القراءة التأنى فيها، والتمهل، وتبيين الحروف والحركات تشبيها بالثغر المرتل... وقوله عز وجل ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ [الفرقان: ٣٢] أى أنزلناه على الترتيل وهو ضد العجلة والتمكث فيه »[2].

ينبىء كلام صاحب اللسان ومن نقل عنهم أن الثغر المرتل، المنضد الأسنان، المفلج، حقيقة لغوية، أما الكلام المرتل، والمبين، والقراءة المرتلة، فهما من قبيل الاستعارة، وقد عبر عن تلك الاستعارة، وهو بصدد بيان صفة قراءة النبى ﷺ المذكورة فى عجز كلامه المتقدم بقوله: (ترتيل القراءة التأنى فيها، والتمهل... تشبيها بالثغر المرتل).

فقوله (تشبيها...) يقصد منه الاستعارة على غرار ما تقدم، ويؤكد أمر الحقيقة والاستعارة فى كلامه قول الزمخشرى: ثغر مرتل، ورتل مفلج، مستوى النبتة، حسن التنضيد، ومن المجاز رتل القرآن ترتيلا، إذا ترسل فى تلاوته، وأحسن تأليف حروفه، وهو يترسل فى كلامه، ويترتل[3].

ويعزز ذلك ما قاله فى إبانة معنى ترتيل القراءة فى آية المزمل من كلام يكاد يكون موافقا لكلام صاحب اللسان حولها، وكأنهما يمتحان من بئر واحدة، أو ينقلان عن أصل واحد، فقد قال: « ترتيل القرآن قراءته على ترسل، وتؤدة بتبيين الحروف، وإشباع الحركات، حتى يجىء المتلو منه شبيها بالثغر المرتل، وهو المفلج المشبه بنور الأقحوان، وألا يهذه هذا أى يسرع فى قراءته – ولا يسرده سردا، وسئلت عائشة –

---

(١) لسان العرب: ٣/١٥٧٨ (رتل).
(٢) لسان العرب: ٣/١٥٧٨ (رتل). والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ٢/١٩٤.
(٣) أساس البلاغة (رتل).

رضى الله عنها - عن قراءة النبى ﷺ فقالت لا كسردكم هذا لو أراد السامع أن يعد حروفها، لعدها»[1].

ومن هذا الضرب ما ذكره من استعارة (رثم) الأنف، والفم، وهو تلطخهما بالدم بعد كسرهما، وجرحهما، لطلاء المرأة أنفها، أو فمها بالطيب، فقد قال: «ورثم أنفه وفاه يرثمه رثما فهو مرثوم ورثيم إذا كسره حتى تقطر منه الدم، وكذلك رثمه بالتاء، وكل ما لطخ بدم أو كسر فهو رثيم... ورثمت المرأة أنفها بالطيب لطخته، وطلته، وهو على التشبيه»[2].

فالأنف، أو الفم الذى لطخ بالدم حقيقة لغوية - كما أبان وأوضح - فى صدر كلامه، وقد استعير ذلك كما ذكر فى عجز كلامه المتقدم لتضميخ كل من الأنف، والفم بالطيب، وهذه استعارة تبعية فى الفعل الماضى (رثم) أو فى اسم المفعول (مرثوم) اللذين جاءا فى كلامه الآنف الذكر. وقد عبر عن هذه الاستعارة بلفظ التشبيه عندما قال (... وهو على التشبيه) وواضح أنه يريد بالتشبيه الاستعارة كما يدل على ذلك مقام الكلام.

ويتراءى لى أن هذه الاستعارة فيها سماجة، وقبح؛ لأن الدم الذى يجلل الأنف، أو الفم المكسور، أو المجروح، ويكسوه، يثير فى النفس الاشمئزاز، والتقزز، والرثاء فلا يتلاءم مع وضع الطيب الذى يفترض فيه أن يمتع النفس، ويسعدها، ويدخل عليها البهجة والسرور، فشتان ما بينهما.

وقد أورد صاحب اللسان عقب تلك الاستعارة تشبيها صريحا يشينه هذا العيب أيضًا حين قال: «قال ذو الرمة يصف امرأة:

تثنى النقاب على عرنين أرنبة   شماء ما رنها بالمسك مرثوم

قال الأصمعى الرثم أصله الكسر، فشبه أنفها ملغما[3] بالطيب بأنف مكسور، ملطخ بالدم، كأنه جعل المسك فى المارن شبيها بالدم فى الأنف المرثوم»[4] واضح أن التشبيه فى قول الشاعر (ما رنها.. مرثوم) المارن هو الأنف وهذا تشبيه بليغ.

---

(١) الكشاف: ٤/١٥٢.   (٢) لسان العرب: ٣/١٥٨٢ (رثم).
(٣) ملغما: أى وضع عليه الطيب. انظر لسان العرب: ٥/٤٠٤٩ (لغم).
(٤) المصدر نفسه: ٣/١٥٨٢ (رثم).

فالشاعر يمدح هذه المرأة، ويصفها بأنها شماء العرنين، شريفة، رفيعة القدر، وهذا يعنى أن الغرض من التشبيه تزيينها، والثناء عليها، ووصف مارنها الملغم بالطيب بكونه يشبه أنفا مكسورا ملطخا بالدماء يقبحها، وينفر النفوس منها.

ومن هذا النمط ما ذكره من استعارة تفديم الأفواه (بالفاء) وهو وضع شيء عليها كالكعام يمنعها من الأكل، لمنع الناس واحتباس ألسنتهم عن الكلام، فقد قال: «... والفدام شيء تشده العجم على أفواهها عند السقى الواحدة فدامة، وأما الفدام فإنه مصفاة الكوز والإبريق ونحوه... وفدم فاه وعلى فيه بالفدام يفدم فدما وفدم وضعه عليه، وغطاه، ومنه رجل فدم أى عيي ثقيل بين الفدامة، والفدومة وفى الحديث إنكم مدعوون يوم القيامة مفدمة أفواهكم بالفدام. هو ما يشد على فم الإبريق والكوز من خرقة لتصفية الشراب الذى فيه أي أنهم يمنعون الكلام بأفواههم حتى تتكلم جوارحهم وجلودهم، فشبه ذلك بالفدام»(١).

الاستعارة التبعية هنا فى اسم المفعول (مفدّمة) فى الحديث الذى أورده (... مفدمة أفواهكم بالفدام) مأخوذ من الفعل الماضى (فدم) المضعف - كما لا يخفى-.

استعير وضع الفدام على الفم لمنع أفواههم، وحبسها عن الكلام حتى لا ينبسوا ببنت شفة إلى أن ينطق الله جوارحهم فتشهد عليهم بما قدمت أيديهم.

وقد عبر عنها بالفعل (شبه) فى قوله (فشبه ذلك بالفدام) والمقصود من ذلك التشبيه الاستعارة كما ينطق بذلك سياق الكلام.

ثالثتها: أن يعبر عن الاستعارة التبعية بأنها (مثل) ومن هذا النوع ما ذكره من استعارة الفراغ من الأشياء المحسوسة، للخلو من الشيء في المعقولات، فقد قال: «الفراغ الخلاء فرغ يفرغ فراغا وفروغا... وفى التنزيل ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ [القصص: ١٠].. أى خاليا من الصبر... وفرغ المكان أخلاه... واستفرغت مجهودى فى كذا أى بذلته يقال استفرغ فلان مجهوده إذا لم يبق من جهده وطاقته شيئًا، وفرغ الرجل مات مثل قضى، وهو على المثل؛ لأن جسمه خلا من روحه»(٢).

(١) لسان العرب: ٥/٣٣٦٥ (فدم). والنهاية في غريب الحديث والأثر: ٣/٤٢١.
(٢) لسان العرب: ٥/٣٣٩٦ (فرغ).

يبدو من خلال تلك الكلمات أن تفريغ المكان مما فيه حقيقة، أما فراغ القلب من الصبر، وهو أمر معنوى، وبذل الجهد والطاقة واستفراغهما فى العمل - استعارة، يؤكد ذلك ما ذكره الزمخشرى من أن قولنا استفرغ فلان مجهوده من المجاز[(١)].

ومن الاستعارة كذلك ما ذكره صاحب اللسان فى عجز كلامه المتقدم فى قوله (وفرغ الرجل مات . . . وهو على المثل إلخ) واضح أن الاستعارة التبعية فى الفعل الماضى (فرغ) وقد عبر عنها بكلمة (المثل) وكأنه اعتبر الروح عرضا يسرى فى ثنايا الجسم كله، فلما فرغ ذلك العرض من الجسم فارق الحياة.

وفى مادة (فرغ) نفسها أشار إلى أن الإفراغ وهو صب الماء ونحوه يستعار لإنزال الصبر.

فقد قال : « . . . والإفراغ الصب، وفرغ عليه الماء، وأفرغه صبه . . . وأنشد :

فرغن الهوى فى القلب ثم سقينه صبابات ماء الحزن بالأعين النجل

وفى التنزيل ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ [البقرة : ٢٥٠] أى أصبب، وقيل أنزل علينا صبرا يشتمل علينا وهو على المثل »[(٢)].

فإفراغ الماء أى صبه حقيقة كما يتجلى ذلك من كلامه، وفراغ الهوى فى قول الشاعر (فرغن الهوى فى القلب . . .) استعارة، ولا يخفى أنها استعارة محسوس لمعقول، استعار فراغ الماء أى صبه لفراغ الحب والهوى فى القلب، وهى استعارة تبعية فى الفعل الماضى (فرغ) وفى الآية الكريمة ﴿ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ استعير إفراغ الماء لإنزال الصبر والطمأنينة على القلب، وقد أومأ إلى تلك الاستعارة بكلمة (المثل) ويريد بها الاستعارة.

ومن هذا النوع ما أشار إليه من استعارة إبقال النبت، وهو خروجه من الأرض لطلوع شعر اللحية، وناب البعير فقد قال : « وبقل النبت يبقل بقولا وأبقل طلع، وأبقله الله، وبقل وجه الغلام يبقل بقلا . . . خرج شعره . . . وأبقله الله أخرجه، وهو على المثل . . . وفى حديث أبى بكر والنسابة فقام إليه غلام من بنى شيبان حين بقل

(١) أساس البلاغة (فرغ).
(٢) لسان العرب : ٥/٣٣٩٦ (فرغ).

وجـهـه أى أول مـا نبـتت لحيـتـه، وبقل ناب البـعـيـر يبـقل بقـولا طلع على المثل أيضًا. . .»[1].

فإبقال النبت أى طلوعه فى الأرض حقيقة كما يتبدى ذلك من صدر كلامه الآنف الذكر، أما إبقال وجه الغلام، وإبقال ناب البعير، فذلك من قبيل الاستعارة، وهى استعارة محسوس لمحسوس، استعار إبقال النبات لطلوع شعر لحية الغلام، وطلوع ناب البعير.

وقد يؤكد ذلك ما قاله الزمخشرى أبقلت الأرض إذا اخضرت بالنبات، ومن المجاز بقل وجه الغلام وبقل ناب البعير[2] وغير خاف أنها استعارة تبعية فى بقل، ويبقل -كما قال - وقد ألمع إليها بكلمة (المثل).

ويلاحظ أن فى (. . وجه الغلام) مجاز مرسل علاقته المحلية، أطلق المحل وهو الوجه وأريد به الحال، وهو شعر الوجه، وفى هذا المجاز إيماء إلى غزارة ذلك الشعر، وكثافته.

ومن هذا اللون ما لمع إليه من استعارة فعومة الوجه والساق ونحوهما وهو امتلاؤهما، لامتلاء البيت طيبا فقد قال: «الفعم والأفعم الممتلىء. . . وساعد فعم، فعم يفعم فعامة وفعومة فهو فعم ممتلىء ووجه فعم، وجارية فعمة وافعوعم قال كعب يصف نهرا:

مفعوعـمٌ صخبُ الآذى منبعقٌ كأن فيه أكف القوم تصطفق[3]

وفى صفته ﷺ كان فعم الأوصال أى ممتلىء الأعضاء. . . وأفعمت البيت برائحة العود فافعوعم، وأفعم المسك البيت ملأه بريحه، وأفعم البيت طيبا ملأه وهو على المثل. . .»[4].

واضح من كلامه المتقدم أن فعومة الوجه، والساعد، والساق، والأوصال،

---

(١) لسان العرب: ١/ ٣٢٩ (بقل). والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ١/ ١٤٨.

(٢) أساس البلاغة (بقل).

(٣) الآذى : الموج الشديد والجمع: أوازى (المعجم الوجيز) والمنبعق: شديد الاندفاع، ينظر لسان العرب: ١/ ٣١٤ (بعق).

(٤) لسان العرب: ٥/ ٣٤٣٩، ٣٤٤٠ (فعم). والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ٣/ ٤٦٠.

والنهر، ونحو ذلك حقيقة، أما ما ذكره من مثل أفعمت البيت برائحة العود، وأفعم المسك البيت،فهو استعارة تبعية فى الفعل (أفعم) وقد أشار إليها بكلمة (المثل) فى عجز كلامه المتقدم، ويؤكد كلامه فى هذا الصدد قول الزمخشرى ومن المجاز أفعمت البيت طيبا، وأفعمته غضبا[١].

ومن هذا الضرب ما أشار إليه من استعارة سوغ الشراب والطعام فى الحلق، لسهولة أول النهار فقد قال: ساغ الشراب فى الحلق يسوغ سوغا وسواغا سهل مدخله فى الحلق، وساغ الطعام سوغا نزل فى الحلق... وقول عبدالله بن مسلم الهذلى:

قد ساغ فيه لهـــا وجـــه النهــار ... كما ساغ الشراب لعطشان إذا شربا

أراد سهل فاستعمله فى النهار على المثل»[٢].

واضح من أول كلامه المتقدم أن سوغ الشراب والطعام فى الحلق حقيقة على حد قول الشاعر:

وساغ لى الشراب وكنت قبلا ... أكاد أغص بالماء الفرات[٣]

أما سوغ النهار، أو وجه النهار أى أوله فهو استعارة استعير فيها المحسوس وهو سهولة دخول الطعام والشراب فى الحلق، للمعقول أعنى سهولة وجه النهار وطيبه وهناءته، وهى تبعية فى الفعل (ساغ) فى الشطر الأول، وقد عبر عنها بكلمة (المثل) ويقصد منها الاستعارة.

ومن هذا القبيل ما ألمع إليه من استعارة الدحوض، وهو الزلق لإبطال الحجة فقد قال: «الدحض الزلق، والإدحاض الإزلاق... ودحضت رجل البعير... وفى حديث الجمعة كرهت أن أخرجكم فى الطين، والدحض أى الزلق... وفى حديث الحجاج فى صفة المطر فدحضت التلاع أى صيرتها مزلقة، ودحضت حجته دحوضا كذلك على المثل إذا بطلت وأدحضها الله، قال الله تعالى: ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ ﴾ [الشورى: ١٦] وأدحض حجته إذا أبطلها..»[٤].

---

(١) أساس البلاغة (فعم). (٢) لسان العرب: ٣ / ٢١٥٢ (سوغ).

(٣) شرح قطر الندى وبل الصدى لابن هشام: ٢١، شرح الشيخ محمد محيى الدين عبدالحميد.

(٤) لسان العرب: ٢ / ١٣٣٥ (دحض). والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ٢ / ١٠٤.

الدحض فى الشطر الأول من كلامه السابق حقيقة، وقد بين أن المكان الدحض بسكون الحاء وفتحها هو الذى تزل فيه الأقدام، ولا تثبت عليه لملاسته[1] فيقال دحضت رجل البعير إذا زلقت وزلت، ودحضت الأمطار الطريق، إذا صيرتها مزلقة مزلة. أما الدحض فى الشطر الأخير من كلامه، فهو استعارة تبعية فى الفعل الماضى فى قوله: «ودحضت حجته دحوضا كذلك على المثل» وقد عبر عنها بكلمة المثل.

وهى استعارة محسوس لمعقول، استعير فيها دحض رجل البعير - مثلا - فى الزلق، فيسقط على الأرض، وربما ينفق، ويهلك وذلك أمر محسوس، لإبطال حجة الخصم، وإزالتها، وإزهاقها، وذلك أمر معقول.

رابعتها: أن يجمع فى التعبير عنها بين الاستعارة والاتساع، كما ذكر فى استعارة عدم الدثور - أى عدم القدم - لقدم الحسب، وعدم بلاه فقد قال: «الدثور الدروس قد دثر الرسم، وتداثر، ودثر الشيء يدثر دثورا، واندثر قدم ودرس، واستعار بعض الشعراء ذلك للحسب اتساعا فقال:

فى فتية بسط الأكف مسامح   عند القتال قديمهم لـم يدثر

أى حسبهم لم يبل ولا درس»[2].

وهذه استعارة تبعية فى الفعل المضارع المنفى (يدثر) أى أنّ حسبهم تليد، توارثوه كابرا عن كابر، ولا يزال فى قمة جدته، لم يخلق، أو يلحقه البلى.

ومن الجمع فى التعبير عنها بين الاستعارة والمثل فى موضعين ما ذكره من استعارة نسج الثوب لتلفيق الكذب، ونظم الشعر وغيرهما، فقد قال فى أحد الموضعين: «.. والنسج معروف، ونسج الحائك الثوب ينسجه وينسجه نسجا.. لأنه ضم السدى إلى اللحمة[3] وهو النساج وحرفته النساجة... ونسج الكذاب الزور لفقه، ونسج الشاعر الشعر نظمه، والشاعر ينسج الشعر، والكذاب ينسج الزور، ونسج الغيث النبات كله على المثل..»[4].

---

(١) المصدر نفسه، والموضع.   (٢) لسان العرب: ٢/١٣٢٦ (دثر).

(٣) اللُّحْمة من الثوب خيوط النسج العرضية يلحم بها السدى، والسَّدَى من الثوب خلاف اللحمة، وهو ما يمد طولا فى النسيج الواحد سداة.

ينظر المعجم الوجيز (لحم) و(سدى).

(٤) لسان العرب: ٦/٤٤٠٦ (نسج).

فقد استعير نسج الثوب وحياكته لتلفيق الكذب والزور، وكذلك استعير نسج الثوب لنظم الشعر وتأليفه، واستعير كذلك لإخراج الغيث النبات، وتزيين الأرض به، وقد سمى صاحب اللسان كل ذلك مثلا.

وقد سبق فى موضع آخر أنه سمى استعارة صوغ الذهب والفضة لصوغ الزور، ونظم الشعر، وهى نظيرة الاستعارة التى نحن بصددها سماها استعارة[١] فيكون قد جمع فى التعبير عنها بين الاستعارة والمثل.

خامستها: أن يجمع وهو يعبر عنها بين الاستعارة والمثل، ومن ذلك ما أومأ إليه من استعارة الشبع من الذوات، والمحسوسات للمعانى، فقد قال: «الشبع ضد الجوع، وهو شبعان، والأنثى شبعى وشبعانه... وأشبع الثوب وغيره رواه صبغا، وقد يستعمل فى غير الجواهر على المثل، كإشباع النفخ والقراءة، وسائر اللفظ، وكل شئ توفره فقد أشبعته حتى الكلام يشبع فتوفر حروفه، وتقول شبعت من هذا الأمر ورويت إذا كرهته، وهما على الاستعارة»[٢].

واضح من كلامه المذكور أن الشبع الذى هو ضد الجوع حقيقة، كما فى قول القائل -مثلا- شبعت من هذا الطعام.

ويستعمل فى غير ذلك على المثل كما قال (وقد يستعمل فى غير الجواهر على (المثل) كما فى قولنا أشبعت القراءة، أو الكلام.

وقد أضاف قائلا (وتقول شبعت من هذا الأمر، ورويت إذا كرهته، وهما على الاستعارة).

الاستعارة كما لا يخفى فى (شبعت... ورويت) وهى تبعية، وقد جمع فى هذا الموضع بين لفظ الاستعارة، وكلمة المثل، ويريد بهما الاستعارة.

ويؤكد أمر هذه الاستعارة، قول الزمخشرى: ومن المجاز شبعت من هذا الأمر، ورويت إذا مللته وكرهته، وأشبع الثوب صبغا، وثوب شبيع الغزل كثيره، وأشبع الرجل كلامه، وساق فى هذا المعنى فصلا مشبعا، وكل ما وفرته فقد أشبعته[٣].

---

(١) سبق ذكر هذه الاستعارة فى التبعية التى أطلق عليها لفظ الاستعارة، أو ما اشتق منه.
(٢) لسان العرب: ٤ / ٢١٨٧ (شبع). (٣) أساس البلاغة (شبع).

سادستها : أن يجمع فى التعبير عنها بين المثل والمجاز فقد أشار إلى استعارة ذوق الأشياء باللسان ليعرف طعمها، وهو من المحسوسات، لذوق المكروه والعذاب، ونحوهما، وهى أمور معنوية عقلية، وعبر عن تلك الاستعارة مرة بالمجاز، ومرة بالمثل فقد قال: «الذوق مصدر ذاق الشيء يذوقه ذوقا، وذواقا ومذاقا، فالذواق، والمذاق يكونان مصدرين، ويكونان طعما كما تقول ذواقه، ومذاقه طيب، والمذاق طعم الشيء... وذاق العذاب والمكروه، ونحو ذلك وهو مثل وفى التنزيل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] وفى حديث أحد أن أبا سفيان - قبل إسلامه - لما رأى حمزة رضى الله عنه مقتولا قال له ذق عقق أى ذق طعم مخالفتك لنا، وتركك دينك الذى كنت عليه ياعاق لقومه، جعل إسلامه عقوقا، وهذا من المجاز أن يستعمل الذوق، وهو ما يتعلق بالأجسام فى المعانى...»[١].

يتجلى من صدر كلامه السابق أن ذوق الأشياء باللسان؛ ليخبر مذاقها حقيقة، ويتبدى فى أواخر كلامه أن هذا الذوق يستعار للأمور المعنوية فيقال ذاق فلان العذاب، والمكروه، ونحوهما، ومنه - كما قال - قوله تعالى لمن يعذب فى النار، ويصلى سعيرها (ذق.. الآية) وهى استعارة تبعية فى الفعل (ذاق..) أو (ذق..) وقد عبر عنها مرة بالمجاز، ومرة بالمثل - كمال رأينا فى ثنايا كلماته - ويلاحظ أنه أشار فى هذا الموضع إلى المحسوسات بالأجسام، وإلى المعقولات بالمعانى.

سابعتها : أن يجمع فى التعبير عنها بين التشبيه والتمثيل فقد أشار فى أحد المواضع إلى أن تلقين الإمام القراءة إذا استغلقت عليه فى الصلاة مستعار من إطعام الطعام لمن طلبه، واحتاج إليه فقال: «الطعام اسم جامع لكل ما يؤكل... واستطعمه سأله أن يطعمه، وفى الحديث إذا استطعمكم الإمام فأطعموه أى إذا أرتج عليه فى الصلاة واستفتحكم فافتحوا عليه ولقنوه، وهو من باب التمثيل تشبيها بالطعام كأنهم يدخلون القراءة فى فيه كما يدخل الطعام...»[٢].

فاستعمال الطعام فى المأكول حقيقة، كما هو واضح من أول كلامه، وقد أشار فى آخره، إلى أن الاستطعام يستعار للحاجة إلى الإقراء، وأن إسعاف الإمام بتلقينه

---

(١) لسان العرب: ٣/١٥٢٧ (ذوق). وينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر ٢/١٧٢.
(٢) لسان العرب: ٤/٢٦٧٣، ٢٦٧٤ (طعم).

القراءة إذا أرتج عليه فى الصلاة مستعار من إطعام الطعام لمن طلبه، واحتاج إليه، وهى استعارة تبعية فى (استطعمكم) و(فاطعموه) وقد جمع فى تبيانها بين التشبيه والتمثيل، ولا تشبيه مصطلح عليه فى الحديث الذى هو بصدده، إنما هو التشبيه الذى تنبنى عليه الاستعارة، وقد أبانه بقوله (كأنهم يدخلون القراءة فى فيه كما يدخل الطعام) وهو كعادته عندما يتناول الأحاديث ينقل عن ابن الأثير - أحيانا- الكلام بنصه وفصه، وهو مقر بذلك، وراض عنه كل الرضا - وقد أشرت إلى ذلك قبلا - يقول ابن الأثير: « ... وفيه إذا استطعمكم الإمام فأطعموه أى إذا ارتج عليه فى قراءة الصلاة واستفتحكم فافتحوا عليه ولقنوه، وهو من باب التمثيل تشبيها بالطعام كأنهم يدخلون القراءة فى فيه كما يدخل الطعام »(١).

ويمكن تكون الاستعارة فى الحديث تمثيلية استعيرت فيها صورة من يطعم الطعام للجائعين لصورة من يلقن الإمام القراءة، لكن قوله (تشبيها بالطعام . .) هكذا بالطعام على حدته جعلنى أذكرها فى التبعية.

ثامنتها: ألا يصرح بشيء مما سبق ذكره، ولكن تناوله لها، وتوضيحه لمعناها يشعر أنها استعارة تبعية، فمن ذلك ما أشار إليه من استعارة التغمد وهو غمد السيف فى جرابه، للستر، والتغشية برحمة الله، فقد قال: « الغمد جفن السيف، وجمعه أغماد وغمود . . . وتغمده الله برحمته غمده فيها وغمره بها، وفى الحديث أن النبى ﷺ قال ما أحد يدخل الجنة بعمله قالوا ولا أنت قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته قال أبو عبيد قوله يتغمدنى يلبسنى ويتغشانى ويسترنى بها.

قال: أى أبو عبيد - يعنى أنه يلقى نفسه عليهم ويركبهم ويغشيهم قال ولا أحسب هذا إلا مأخوذا إلا من غمد السيف، وهو غلافه؛ لأنك إذا أغمدته فقد ألبسته إياه، وغشيته به »(٢).

لا يخفى أن الاستعارة فى (يتغمدنى) وهى تبعية فى الفعل المضارع، استعير فيها وضع السيف فى جرابه، وتغطيته به، لستر الإنسان برحمة الله، وغمره فيها، وهى استعارة محسوس لمعقول، وقد شرحها صاحب اللسان، وكشف اللثام عن مضمونها

---

(١) النهاية فى غريب الحديث والأثر: ٣ / ١٢٧ .

(٢) لسان العرب: ٥ / ٣٢٩٢ (غمد) . وينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر: ٣ / ٣٨٣ .

دون أن يصرح باستعارة أو غيرها كعادته التى ألفناها فيما سبق بيانه وقد حظيت هذه الاستعارة بشهرة فائقة تكاد تكون منقطعة النظير على ألسنة الناس، وفى وسائل الإعلام المختلفة عند الترحم على من مات من المسلمين.

ومن هذا النوع ما ذكره من استعارة النوم للموت فقد قال: « .. ونامت الشاة وغيرها من الحيوان إذا ماتت، وفى حديث على أنه حث على قتال الخوارج فقال إذا رأيتموهم فأنيموهم أى اقتلوهم، وفى حديث غزوة الفتح فما أشرف لهم يومئذ أحد إلا أناموه أى قتلوه يقال نامت الشاة وغيرها إذا ماتت والنائمة الميتة »[١].

فقد استعير النوم فى هذه الأفعال (نامت، أناموه، أنيموهم) للموت، وذلك واضح من شرحه وبيانه، من غير أن يصرح باستعارة أو غيرها.

وقد ذكر عكس ذلك، وهو استعارة الموت للنوم ولكنه أشار إليها بكونها تمثيلا وتشبيها فقال: « ... وفى حديث دعاء الانتباه الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور سمى النوم موتا لأنه يزول معه العقل والحركة تمثيلا وتشبيها لا تحقيقا .. »[٢].

وقد عرض ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى لشرح هذا الحديث، وبيان الاستعارة فيه فقال: « قوله (وإذا قام قال الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا ...) قال أبو إسحاق الزجاج النفس التى تفارق الإنسان عند النوم هى التى للتمييز، والتى تفارقه عند الموت هى التى للحياة وهى التى يزول معها التنفس، وسمى النوم موتا لأنه يزول معه العقل والحركة تمثيلا وتشبيها قال فى النهاية[٣] ويحتمل أن يكون المراد بالموت هنا السكون كما قالوا ماتت الريح أى سكنت ... »[٤] ثم نقل ابن حجر عن بعض العلماء قوله موضحا وجه إطلاق الموت على النوم فقال: « الحكمة فى إطلاق الموت على النوم أن انتفاع الإنسان بالحياة إنما هو لتحرى رضا الله عنه، وقصد طاعته، واجتناب سخطه وعقابه فمن نام زال عنه هذا الانتفاع فكان كالميت، فحمد الله على هذه النعمة، وزوال ذلك المانع ... »[٥].

---

(١) لسان العرب: ٦/٤٥٨٦ (نوم). وينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر: ٥/١٣١.
(٢) لسان العرب: ٦/٤٢٩٥ (موت). وينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر: ٤/٣٦٩.
(٣) المصدر نفسه والموضع. (٤) فتح البارى شرح صحيح البخارى: ١١/١١٧.
(٥) المرجع نفسه: ١١/١١٨.

ومن هذا الضرب ما أشار إليه من استعارة الفعل (نادى) (لظهر) فقد قال: «ونادى لك الطريق، وناداك ظهر، وهذا الطريق يناديك...»[1].

يبدو أن الاستعارة هنا تبعية فى (نادى) و(ناداك) لأنه وضحها بالفعل (ظهر) وعليه يكون معنى (يناديك) يظهر لك، وذلك لأن النداء، أو من ينادى ظاهر، جلى كالنهار لا يحتاج إلى دليل.

ومن ذلك النوع ما أشار إليه من الاستعارة فى الحرف فقد قال: «... ومنها لام العاقبة كقول الشاعر:

فللموت تغذو الوالدات سخالها   كما لخراب الدور تبنى المساكن

أى عاقبته ذلك قال ابن برى ومثله قول الآخر:

أموالنا لذوى الميراث نجمعها   ودورنا لخراب الدهر نبنيها

وهم لم يبنوها للخراب، ولكن مآلها إلى ذلك، ومثله ما قاله شتيم بن خويلد الفزارى يرثى أولاد خالدة الفزارية...

فإن يكن الموت أفناهم   فللموت ما تلد الوالدة

ولم تلدهم أمهم للموت، وإنما مآلهم وعاقبتهم الموت... وفى التنزيل العزيز: ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص: ٨] ولم يلتقطوه لذلك، وإنما مآله العداوة»[2].

ولا يخفى أن الاستعارة فى هذه الشواهد كلها، فى استعارة لام التعليل للام العاقبة، وهى استعارة تبعية فى الحرف، ولكنه لم يصرح بكونها استعارة، اكتفاء بتلك اللمحة الدالة، لام العاقبة.

* * *

---

(١) لسان العرب: ٦/ ٤٣٨٨ (ندى).
(٢) لسان العرب: ٥/ ٤١٠٤ (لوم).

الاستعارة التمثيلية

أو المجاز المركب كما قال الخطيب القزويني هي اللفظ المركب المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل للمبالغة في التشبيه، أي تشبيه إحدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أمور بالأخرى ثم تدخل المشبه في جنس المشبه بهما مبالغة في التشبيه..»[١].

وقد ألقى الشيخ عبد القاهر الجرجاني على هذه الاستعارة مزيدا من الضوء ومضمون حديثه حولها أنها استعارة صورة مركبة لصورة مركبة أخرى، ومما قاله في هذا الصدد «.. تقول للرجل يعمل في غير معمل أراك تنفخ في غير فحم، وتخط على الماء فتجعله في ظاهر الأمر كأنه ينفخ ويخط والمعنى على أنك في فعلك كمن يفعل ذلك...»[٢].

ولذلك قال سعد الدين التفتازني إن حاصل هذه الاستعارة أن تشبه إحدى الصورتين المنتزعتين من متعدد بالأخرى ثم يدعى أن الصورة المشبهة من جنس الصورة المشبه بها فيطلق على الصورة المشبهة اللفظ الدال بالمطابقة على الصورة المشبه بها[٣].

وكلام السعد واضح الدلالة على أن الاستعارة التمثيلية ما صرح فيها بالمشبه به المركب، وطوى ذكر هيئة المشبه، فتكون الاستعارة التمثيلية من قبيل التصريحية، وقد وجدت في كلام بعض الباحثين المعاصرين «أن الاستعارة التمثيلية لا تكون إلا تصريحية... صرح فيها بلفظ المشبه به، واستعمل في المشبه كقول الشماخ أبي سعيد بن ضرار الغطفاني، وهو من الشعراء المخضرمين:

رأيت عرابة الأوسي يسمو إلى الخيرات منقطع القرين

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين..»[٤]

---

(١) الإيضاح: ١٤٧ مع (البغية).
(٢) دلائل الإعجاز: ٦٨.
(٣) المطول: ٣٧٩.
(٤) فن الاستعارة: ١٠٣.

ثم أضاف أن التركيب الدال على الهيئة المشبه بها استعير للهيئة المشبه بها على طريق الاستعارة التمثيلية التصريحية[١].

وقد ذكر صاحب لسان العرب صورا من هذه الاستعارة، وكان يصرح أحيانا بأنها استعارة، أو تشبيه يقصد باعتبار الأصل أو نحو ذلك.

وقد جاء تناوله لتلك الاستعارة على عدة صور:

إحداها: أنه كان يصرح بلفظ الاستعارة أو ما اشتق منه، من ذلك ما ذكره من استعارة وضع الكور على ظهر الناقة، وتذليلها بالعمل الدءوب، لإخضاع نفس الإنسان الأبى، وإلانة قناته، وكبح غلوائه فقد قال: «الكور الرحل رحل الناقة كالسرج للفرس... وقول خالد بن زهير الهذلى:

نشأت عسيرا لم تديث عريكتى ولـم يستقر فـوق ظهرى كورها

استعار الكور لتذليل نفسه، إذ كان الكور مما يذلل به البعير ويوطأ ولا كور هنالك»[٢].

فنجده قد صرح بالفعل (استعار) فى قوله استعار– أى الشاعر – الكور لتذليل نفسه، ولا كور هنالك –كما قال – ولا ظهر، وإنما هى استعارة تمثيلية، استعيرت فيها صورة محسوسة لصورة معقولة.

ويبدو أنه لم يقصد كلمة (الكور) وحدها حتى تكون استعارة مفردة، ولكنه يومىء بذلك إلى الكور واستقراره على ظهر الناقة، أو البعير، يريد الشاعر أن يقول إنه نشأ أبيا عزيزا، لم توطأ عريكته، أو تذل نفسه، يقال ديث الأمر لينه، وديث الطريق وطأه، وديثه الدهر حنكه وذلله[٣] والعريكة هى النفس[٤].

ومن ذلك النوع أيضًا ما صرح به من استعارة حفر البئر، وخسفها، واستخراج الماء منها لتبصير الشعراء بمعانى الشعر، وفنونه، وارتياد آفاقه، وضروبه فقد قال: «وفى حديث عمر أن العباس سأله عن الشعراء فقال امرؤ القيس سابقهم خسف لهم عين

---

(١) المرجع نفسه بتصرف قليل: ١٠٤.
(٢) لسان العرب: ٥/٣٩٥٣ (كور).
(٣) ينظر المصدر نفسه: ٢/١٤٦٥ (ديث).
(٤) ينظر المصدر نفسه: ٤/٢٩١٢ (عرك).

الشعر فافتقر عن معان عور[١] أصح بصر أى أنبطها وأغزرها لهم من قولهم خسف البئر إذا حفرها فى حجارة فنبعت بماء كثير، يريد أنه ذلل لهم الطريق إليه، وبصرهم بمعانى الشعر، وفنن أنواعه، وقصده فاحتذى الشعراء على مثاله، فاستعار العين لذلك»[٢].

فصرح بالفعل (استعار) فى قوله (فاستعار العين لذلك) وهذا الكلام برمته مأخوذ من كلام ابن الأثير حول هذه الاستعارة[٣] ويبدو من سياق الكلام أن الاستعارة ليست فى كلمة (عين) وحدها كما قد يتبادر إلى الذهن، وإنما هى فى حفرها، واستخراج الماء منها بغزارة، وقد استعيرت تلك الصورة المحسوسة لفتح الطريق أمام الشعراء لارتياد معانى الشعر، والتطرق إلى أغراضه المختلفة، والتجوال فى آفاقه الرحبة الفسيحة، وهى صورة معقولة.

ثانيتها : أن يصرح بأنها تشبيه وذلك - كما هو معروف بحسب الأصل - ومن ذلك ما أشار إليه من استعارة صورة استخراج القراد من البعير حتى يأنس وينقاد لمقرده، لصورة من يخادع إنسانا ويلاطفه حتى يستسلم لرأيه، ويركن إليه فقد قال: « . . والقراد معروف واحد القردان، والقراد دويبة تعض الإبل . . . وتقول منه قرّد بعيرك أى انزع منه القردان، وقرده ذلّله، وهو من ذلك؛ لأنه إذا قرد سكن لذلك، وذل، والتقريد الخداع مشتق من ذلك؛ لأن الرجل إذا أراد أن يأخذ البعير الصعب قرده أولا . . ويقال فلان يقرد فلانا إذا خادعه متلطفا، وأصله الرجل يجيء إلى الإبل ليلا ليركب منها بعيرا فيخاف أن يرغو فينزع منه القراد حتى يستأنس إليه ثم يخطمه، وإنما قيل لمن يذل قد أقرد لأنه شبه بالبعير يقرد أى ينزع منه القراد فيقرد لخاطمه، ولا يستصعب عليه»[٤].

فعبر عن تلك الاستعارة بالفعل (شبه) فى قوله (لأنه شبه بالبعير يقرد . . .) وواضح أنها تمثيلية استعيرت فيها صورة البعير وتقريده، وهى محسوسة، لصورة مخادعة الرجل ومداهنته، وهى معقولة.

---

(١) فى هامش لسان العرب: ٢ / ١١٥٨ (خسف) . فافتقر إلخ فسره ابن الأثير فى مادة (فقر) فقال: أى فتح عن معان غامضة.
(٢) لسان العرب: ٢ / ١١٥٨ (خسف) .
(٣) النهاية فى غريب الحديث والأثر: ٢ / ٣١.   (٤) لسان العرب: ٥ / ٣٥٧٦ (قرد) .

ومن هذا الضرب ما ذكره من استعارة جفاف الأقلام، وطى الصحف للفراغ من كتابة المقادير فى اللوح المحفوظ فقد قال: «وقد جف الثوب وغيره يجف وفى الحديث جفت الأقلام، وطويت الصحف، يريد ما كتب فى اللوح المحفوظ من المقادير، والكائنات، والفراغ منها تشبيها بفراغ الكاتب من كتابته، ويبس قلمه»(١).

فقد استعيرت صورة فراغ الكاتب من كتابته، وطيه أوراقه التي يكتب فيها، وجفاف قلمه من مداده. لصورة الفراغ من كتابة المقادير فى اللوح المحفوظ، وقد أطلق عليها صاحب اللسان كلمة (تشبيه) فى قوله (.. تشبيها بفراغ الكاتب...) وذلك باعتبار أصلها الذى بنيت عليه.

ومن هذا النمط أيضًا ما أشار إليه من استعارة هيئة من يقوم بعجن العجين، لاعتماد المصلى على يديه عند قيامه من السجود فقد قال: «.. وفى حديث ابن عمر - رضى الله عنهما - أنه كان يعجن فى الصلاة فقيل له ما هذا؟ فقال رأيت رسول الله ﷺ يعجن فى الصلاة أى يعتمد على يديه إذا قام كما يفعل الذى يعجن العجين»(٢).

واضح أن هذا مجاز مركب - أعنى استعارة تمثيلية - استعيرت فيه هيئة العاجن المعهود، لهيئة المصلى الذى يعتمد على يديه عندما يقوم من سجوده، وكلتاهما هيئة محسوسة، وغنى عن البيان أن (الكاف) فى قوله (.. كما يفعل العاجن) هى كاف التشبيه.

ولولا حمل هذا الكلام على المجاز، لوقف القارىء أمامه مدهوشا عاجزا عن فهمه، إذ كيف يعجن الرسول ﷺ فى الصلاة؟ فلله در العلماء الذين بينوا، ووضحوا، وأناروا الطريق (ولله در العلم ومن به تردى، وتعسا للجهل ومن فى أوديته تردى).

ومن هذا القبيل ما أشار إليه من استعارة بيض الطائر، وملازمته عشه؛ لاحتضان بيضه، ثم أفراخه لملازمة الشيطان أهل العراق، واقترانه بهم كما جاء فى كلام عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- فقد قال صاحب لسان العرب:

(١) لسان العرب: ١/ ٦٤١ (جفف).

(٢) المصدر نفسه: ٤/ ٢٨٢٩ (عجن). وينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر: ٣/ ١٨٨.

« .. ويقال أفرخت البيضة إذا خلت من الفرخ، وأفرختها أمها، وفى حديث عمر يا أهل الشام تجهزوا لأهل العراق، فإن الشيطان قد باض فيهم وفرخ، أى اتخذهم مقرا ومسكنا لا يفارقهم كما يلازم الطائر موضع بيضه وأفراخه »(١).

ومن البدهى أن الشيطان لا يبيض، ولا يفرخ، وإنما يلازم، ويوسوس، ويسوّل.

ويفهم من كلام صاحب اللسان الذى نقله عن ابن الأثير (٢)– رحمهما الله – أن فى كلام عمر – رضى الله عنه – استعارة تمثيلية استعيرت فيها صورة الطائر الذى يجثم فى عشه فوق بيضه، لصورة الشيطان الذى يقترن بأهل العراق، ويلازمهم ملازمة الظل لصاحبه.

وقد أشار إلى هذه الاستعارة بكاف التشبيه فى قوله (.. كما يلازم الطائر موضع بيضه .. ».

وصورة المستعار له، وهو الشيطان، وبيضه، وتفريخه صورة وهمية بمعنى أنه لا يرى بالعين، وإن كان وجوده حقيقة مقررة(٣).

ثالثتها: أن يصرح بالاستعارة والتشبيه معا، وهو يلقى الضوء على استعارة تمثيلية فقد قال: « ذر الشيء يذره أخذه بأطراف أصابعه ثم نثره على الشيء... والذَّرّ مصدر ذررت وهو أخذك الشيء بأطراف أصابعك تذره ذر الملح المسحوق على الطعام، وذررت الحب والملح والدواء أذره ذرا فرقته »(٤).

وهذا الذر والتفريق على سبيل الحقيقة، ويتابع صاحب اللسان كلامه قائلا:

« .. وقد استعاره – أى الذر – بعض الشعراء للعرض تشبيها له بالجوهر فقال:

شققت القلب ثم ذررت فيه　　هواك فليم فالتأم الفطور

ليم هنا إما أن يكون مغيرًا من لئم، وإما أن يكون فُعل من اللَّوْم لأن القلب إذا نهى، كان حقيقا أن ينهى »(٥).

---

(١) لسان العرب: ٤ / ٣٣٧٢ (فرخ).
(٢) النهاية فى غريب الحديث والأثر: ٣ / ٤٢٥.
(٣) ينظر البلاغة فنونها وافنانها – د. فضل حسن عباس: ٢ / ٢٦، ٢٧.
(٤) لسان العرب: ٣ / ١٤٩٤ (ذرر).
(٥) المصدر نفسه والموضع.

وقد ذكر صاحب اللسان هذا البيت فى موضع آخر لإبانة معنى الفطور التى التأمت فى القلب فقال: «فطر الشىء يفطره فطرا فانفطر شقه، وتفطر الشىء تشقق... وأنشد ثعلب:

شققت القلب ثم ذررت فيه هواك فليم فالتأم الفطور

وسيف فطار فيه صدوع وشقوق...»[١].

الاستعارة -كما وضحها - فى قيام صاحبة هذا الشاعر بشق قلبه، ونثر حبها، وهواها فى أنحائه، وجنباته فبُلّ قلبه من سقمه، والتأم ما فيه من شقوق، وجروح، وقروح. فأصل هذه الاستعارة تشبيه صورة معقولة بمحسوسة، أو كما قال تشبيه العرض بالجوهر.

المستعار منه صورة نثر الشىء المحسوس كالملح وغيره، والمستعار له صورة ذرّ الهوى وتفريقه على قلب المحب المشقوق، وصورة المستعار له أعنى شق القلب، ونثر الهوى عليه صورة خيالية افتراضية، لا وجود لها فى عالم الواقع، يقصد منها الشاعر المبالغة فى حبه، وهواه. يؤكد ذلك قوله بعد هذا البيت:

تغلغل حب عثمة فى فؤادى فباديه مع الخافي يسيرُ

تغلغل حيث لم يبلغ شراب ولا حزن ولم يبلغ سرور[٢]

رابعتها: أن يومىء إلى الاستعارة التمثيلية بأنها (مثل) كاستعارة صورة من يعض على الشىء بنواجذه، وجميع فمه، لصورة المتمسك بالإسلام، الحريص على العيش فى رحابه، فقد قال: «العض الشد بالأسنان على الشىء... وفى حديث العرباض وعضوا عليها بالنواجذ هذا مثل فى شدة الاستمساك بأمر الدين؛ لأن العض بالنواجذ عض بجميع الفم، والأسنان وهى - أى النواجذ - أواخر الأسنان»[٣].

ظاهر من سياق الحديث أن فيه استعارة تمثيلية شبهت فيها صورة معقولة بصورة محسوسة، أو إن شئنا الدقة استعيرت فيها صورة محسوسة لصورة معقولة، وقد سماها صاحب اللسان (مثلا) اتباعا لابن الأثير[٤] الذى ينقل عنه، ويرتضى بيانه

---

(١) المصدر نفسه: ٥/٣٤٣٢ (فطر). (٢) زهر الآداب: ١/٢١٢.

(٣) لسان العرب: ٤/٢٩٨٦ (عضض).

(٤) النهاية فى غريب الحديث والأثر: ٣/٢٥٢.

وآراءه. وهى حرية، وخليقة بهذه التسمية؛ لأن تلك الاستعارة إذا ذاعت، وشاعت، واشتهرت سميت مثلا[١].

وما قيل فى هذا الحديث هو أحد قولين ذكرهما صاحب المجازات النبوية عندما قال: «... وقد يجوز أن يكون المراد الأمر بلزوم سنته - عليه الصلاة والسلام - كما أن العاض بنواجذه على الشىء الذى لا يتأتى فيه القطع يلزمه أشد اللزوم..»[٢].

ومن هذا اللون ما ذكره من استعارة محاذاة القذة بالقذة وجعلها على قدرها عند قطعهما معا، لمتابعة أمة محمد ﷺ لبنى إسرائيل، وحذوهم حذوهم، واقتفائهم آثارهم فقد قال: «القذاذات ما سقط من قذ الريش ونحوه وفى الحديث أنه ﷺ قال أنتم يعنى أمته أشبه الأمم ببنى إسرائيل تتبعون آثارهم حذو القذة بالقذة يعنى كما تقدر كل واحدة على قدر صاحبتها وتقطع، وفى حديث آخر لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة قال ابن الأثير يضرب مثلا للشيئين يستويان ولا يتفاوتان...»[٣].

ففى الحديث استعارة تمثيلية استعيرت فيها صورة ضم الريش بعضه إلى بعض عندما يراد قطعه، لصورة اتباع أمة محمد ﷺ لبنى إسرائيل شبرا بشبر، وذراعا بذراع، وقد عبر عنها بالمثل كما قال (... يضرب مثلا للشيئين يستويان...) وهى جديرة بإطلاق المثل عليها. كما سبق بيانه.

خامستها: ألا يصرح بها، أو يشير إليها بشىء ما، ولكنها تفهم من خلال تناوله لها، وعرضه إياها وذلك مثل استعارة صورة من يفتل للبعير فى غاربه وذروته حتى يستأنس بعد إباء ويسكن بعد جماح، لصورة من يخادع إنسانا آخر، ويتلطف به ويلاينه حتى يقنعه بما يريد فقد قال: «الغارب الكاهل من الخف -أى من الإبل- وهو ما بين السنام والعنق، ومنه قولهم حبلك على غاربك، وكانت العرب إذا طلق أحدهم امرأته، قال لها حبلك على غاربك أى خليت سبيلك فاذهبى حيث شئت... وفى حديث الزبير فما زال يفتل فى الذروة والغارب حتى أجابته عائشة إلى الخروج - يقصد الخروج إلى حرب على بن أبى طالب فى موقعة الجمل -أراد أنه مازال يخادعها

(١) ينظر - مثلا - الإيضاح: ١٥١ مع (البغية). (٢) المجازات النبوية: ١٢٥.

(٣) لسان العرب: ٥/٣٥٥٨ (قذذ). والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ٤/٢٨.

ويتلطف حتى أجابته، والأصل فيه أن الرجل إذا أراد أن يؤنس البعير الصعب ليزمه وينقاد له جعل يمر يده عليه ويمسح غاربه، ويفتل وبره حتى يستأنس، ويضع فيه الزمام»[1].

وقد تناول الشيخ عبد القاهر الجرجانى هذه الاستعارة بأسلوبه الخلاب، وبيانه الساحر فقال: « ... وتقول للرجل يعمل الحيلة حتى يميل صاحبه إلى الشيء قد كان يأباه ويمتنع منه مازال يفتل فى الذروة والغارب حتى بلغ منه ما أراد، فتجعله بظاهر اللفظ كأنه كان منه فتل فى ذروة وغارب، والمعنى على أنه لم يزل يرفق بصاحبه رفقا يشبه حاله فيه حال الرجل يجيء إلى البعير الصعب فيحكه، ويفتل الشعر فى ذروته وغاربه حتى يسكن، ويستأنس...»[2].

* * *

(١) لسان العرب: ٥/٣٢٢٩ (غرُب). والنهاية في غريب الحديث والأثر: ٣/٣٥٠.
(٢) دلائل الإعجاز: ٦٨، ٦٩.

الفصل الثانى

الاستعارة المكنية

- حول مواقع الاستعارة التخييلية من الإعراب .

الاستعارة المكنية

الاستعارة المكنية هي ما كان المستعار منه محذوفا قد رمز إليه بشيء من لوازمه[١] وهي قسيمة الاستعارة التصريحية التي صرح فيها بالمستعار منه.

وقد أبان الشيخ عبد القاهر الجرجاني مضمونها، وهو بصدد التفريق بين هاتين الاستعارتين فقال: « ... وضرب آخر من الاستعارة وهو ما كان نحو قوله.... إذ أصبحت بيد الشمال زمامها.

هذا الضرب – يقصد المكنية – وإن كان الناس يضمونه إلى الأول – يريد التصريحية– حيث يذكرون الاستعارة فليسا سواء، وذاك أنك في الأول تجعل الشيء الشيء ليس به، وفي الثاني للشيء الشيء ليس له، تفسير هذا أنك إذا قلت رأيت أسدا فقد ادعيت في إنسان أنه أسد، وجعلته إياه، ولا يكون الإنسان أسدا، وإذا قلت: إذ أصبحت بيد الشمال زمامها.

فقد ادعيت أن للشمال يدا، ومعلوم أنه لا يكون للريح يد »[٢].

وقد أفاض الشيخ عبد القاهر في بيان الفرق بينهما في مواضع من كتابيه أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز، وبيان منزلة كل منهما، وليس من غرض هذا العمل الوقوف طويلا عند هذه التفصيلات، ولكنني أريد أن أعرض على عجل لنكتة مهمة ذكرها ضمن كلامه، وأكد عليها، مؤداها أن المكنية أبلغ في توكيد المعنى، وأرسخ قدما في إثباته من التصريحية، فقد قال: وليس هذا الضرب من الاستعارة بدون الضرب الأول في إيجاب وصف الفصاحة للكلام، بل هو أقوى منه في اقتضائها، والمحاسن التي تظهر به، والصور التي تحدث للمعاني بسببه آنق وأعجب... »[٣].

وقد ساق عدة شواهد أوضح فيها سر هذه الأبلغية، وسبب تلك المحاسن التي تجليها هذه الاستعارة ومنها قوله: « ... ومن اللطيف النادر في ذلك ما تراه في آخر

---

(١) هذا رأي جمهور البلاغيين، وعليه سيكون تناول هذه الاستعارة – إن شاء الله تعالى.

(٢) دلائل الإعجاز: ٦٧. (٣) المصدر نفسه: ٤٦١.

هذه الأبيات وهى للحكم بن قنبر:

ولولا اعتصامى بالمنى كلما بدا **لى اليأس منها لم يقم بالهوى صبرى**

ولولا انتظارى كل يوم جدا غد **لراح بنعشى الدافنون إلى قبرى**

وقد رابنى وهن المنى وانقباضها **وبسط جديد اليأس كفيه فى صدرى**

ليس المعنى على أنه استعار لفظ الكفين لشيء، ولكن على أنه أراد أن يصف اليأس بأنه قد غلب على نفسه، وتمكن فى صدره، ولما أراد ذلك وصفه بما يصفون به الرجل بفضل القدرة على الشيء، وبأنه متمكن منه، وأنه يفعل فيه كل ما يريد، كقولهم قد بسط يديه فى المال ينفقه، ويصنع فيه ما يشاء، وقد بسط العامل يده فى الناحية، وفى ظلم الناس، فليس لك إلا أن تقول إنه لما أراد ذلك، جعل لليأس كفين، واستعارهما له...»(١).

فهذا الشاعر قد استولى عليه اليأس، وملأ صدره، وقلبه، فوصفه بأوصاف الرجل القادر، المتمكن من عمله، المسيطر عليه، ولما وصفه بذلك جعل له كفين أسوة بهذا الرجل، واستعارهما له كما قال الشيخ - رحمه الله - وحسبنا هذه الإلمامة حول هذه الاستعارة، ومنزلتها.

وقد تناول صاحب لسان العرب الاستعارة المكنية على عدة صور:

إحداها: أن يصرح بلفظ الاستعارة، أو ما اشتق منه، فمن ذلك ما ذكره من استعارة الكلكل لليل، فقد قال: «الكلكل من الفرس ما بين مَحْزِمِه إلى ما مسّ الأرض منه إذا ربض، وقد يستعار الكلكل لما ليس بجسم كقول امرىء القيس:

فقلت له لما تمطى بجوزه **وأردف أعجازا وناء بكلكل**(٢)

---

(١) نفسه: ٤٦٢.

(٢) الكلكل: الصدر، وناء بحمله نوءا - نهض به مثقلا (المعجم الوجيز).

وقد ذكر صاحب اللسان البيت برواية (بجوزه) والمشهور (بصلبه) والجوز من كل شيء وسطه (المعجم الوجيز).

وقد أشار التبريزى إلى رواية (بجوزه) فى الهامش، فذكر أنه روى عن الأصمعى (لما تمطى بجوزه) ومعناه لما تمدد بوسطه.

شرح القصائد العشر: ٣٥ ط -دار الجيل - بيروت.

وقالت أعرابية ترثي ابنها:

ألقى عليه الدهــر كلكله   مــن ذا يقوم بكلكل الدهر

فجعلت للدهر كلكلا»[1].

فاستعمال الكلكل في الفرس حقيقة - كما أشار وألمح - ولكن إسناده للأشياء المعقولة، أو على حد تعبيره - لما ليس بجسم -استعارة، وهي في إضافة (جوز) إلى ضمير الليل، وكذلك في إضافة الكلكل إلى ضمير الدهر في قول الأعرابية، فيكون كل من امرىء القيس، والأعرابية قد استعار الكلكل لليـل، والدهـر، فشبه الليـل، أو الدهر بالفرس، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الكلكل، وذلك على مذهب السلف أو جمهور البلاغيين.

ومثل هاتين الاستعارتين الاستعارة في قول الآخر:

إذا مــا الدهر جــرّ على أناس   كـــلاكله أناخ بآخــــرينا

فـقل للشــامتين بنا أفـيقـوا   سيلقى الشـامتـون كـما لقينا

وقد أعجب الشيخ عبد القاهر الجرجاني -رحمه الله - ببيت امرىء القيس؛ لأنه جمع فيه عدة استعارات يتبع بعضها بعضا، ويأخذ بعضها بحجز بعض فقال: «ومما هو أصل في شرف الاستعارة أن ترى الشاعر قد جمع بين عدة استعارات قصدا إلى أن يلحق الشكل بالشكل، وأن يتم المعنى والشبه فيما يريد، مثاله قوله امرىء القيس:

فقلت له لمـا تمطى بصلبه   وأردف أعجازا وناء بكلكل

لما جعل لليل صلبا قد تمطى به، ثنى ذلك فجعل له أعجازا قد أردف بها الصلب، وثلث فجعل له كلكلا قد ناء به، فاستوفى له جملة أركان الشخص، وراعى ما يراه الناظر من سواده، إذا نظر قدامه، وإذا نظر إلى خلفه، وإذا رفع البصر ومده في عرض الجو»[2].

ومن هذا النوع ما ذكره من استعارة العرنين، وهو الأنف للدهر فقد قال: «الجدع القطع، وحمار مجدع مقطوع الأذن... واستعار بعض الشعراء الجدع والعرنين للدهر فقال: وأصبح الدهر ذو العرنين قد جدعا»[3].

---

(١) لسان العرب: ٥/ ٣٩٢١ (كلل).   (٢) دلائل الإعجاز: ٧٩.

(٣) لسان العرب: ١/ ٥٦٧ (جدع).

فنجد الشاعر قد أثبت للدهر عرنينا، ولا عرنين له على الحقيقة، فيكون قد شبه الدهر بما له عرنين، وحذف المشبه به، ورمز إليه بالعرنين، وإثبات العرنين للدهر قرينة هذه الاستعارة، وهى ما يسميه البلاغيون استعارة تخييلية. وقد وقع لازم المشبه به هنا صفة للمستعار له، ولا يخفى أن هذا اللازم هو (ذو العرنين) أما قوله: (قد جدعا) فيبدو أنه ترشيح للاستعارة؛ لأنه جاء بعد تمامها واستيفاء قرينتها، وهو من ملائمات المستعار منه أعنى صاحب العرنين، وهو جملة فعلية.

وإن كان صاحب اللسان قد ذكر فى كلامه المتقدم أن العرنين والجدع معا مستعاران للدهر، لكنه قد أورد هذا الشاهد فى موضع آخر، وصرح بأن العرنين مستعار للدهر، وأغفل قوله (قد جدعا) فقال: «وعرنين كل شىء أوله، وعرنين الأنف تحت مجتمع الحاجبين وهو أول الأنف حيث يكون الشمم، يقال هم شم العرانين والعرنين الأنف كله... وفى قصيدة كعب -يقصد كعب بن زهير رضى الله عنه -شم العرانين أبطال لبوسهم[1].

واستعاره بعض الشعراء للدهر فقال: وأصبح الدهر ذو العرنين قد جدعا»[2] وقد عبر عن الاستعاره المكنية فى الموضعين بالفعل الماضى (استعار).

ومن ذلك الضرب ما ذكره من استعارة العض للدهر، والزمن، والحرب، والقتب[3] فقد قال: «العض الشد بالأسنان على الشىء، وفرس عضوض أى يعض، وكلب عضوض، وناقة عضوض بغير هاء..»[4].

فالعض من هذه الأشياء عض حقيقى بالأسنان لا مجاز فيه، وقد أردف صاحب اللسان كلامه المتقدم باستعمالات للعض جاءت على سبيل الاستعارة فقال: «وزمن عضوض أى كلب، قال ابن برى عضه القتب، وعضه الدهر، والحرب، وهى عضوض، وهو مستعار من عض الناب قال المخبل السعدى:

لعمر أبيك لا ألقى ابن عم ... على الحدثان خيرا من بغيض
غداة جنى على بنىّ حربا ... وكيف يداى بالزمن العضوض

---

(١) فى قصيدته المشهورة (بانت سعاد).
(٢) لسان العرب: ٤ /٢٩١٦، ٢٩١٧ (عرن).
(٣) القتب: الرحل الصغير على قدر السنام. (المعجم الوجيز).
(٤) لسان العرب: ٤ /٢٩٨٦ (عضض).

وأنشد ابن برى لعبد الله بن الحجاج:

وإني ذو غني وكريم قوم ... وفي الأكفاء ذو وجه عريض

غلبت بني أبي العاصي سماحا ... وفي الحرب المنكرة العضوض

وملك عضوض شديد فيه عسف وظلم وعنف»(١).

واضح من كلامه أن العض مستعار من عض الأسنان للدهر، والحرب، والزمن، والقتب، والملك، فتكون هذه الأشياء قد شبهت بالحيوانات التى تعض بالأسنان، والأنياب، وحذف المشبه به ورمز إليه بالعض، وإثبات العض لهذه الأشياء استعارة تخييلية، وهى قرينة المكنية -كما هو واضح - وفى هذا تصوير وتشخيص لهذه الأشياء بأنها مؤذية غشوم، تؤلم الناس وترهقهم. وقد عبر عن هذه الاستعارت باسم المفعول (مستعار) فى قوله: (وهو مستعار من عض الناب).

وقد أضاف الزمخشرى استعارات أخرى للعض فقال: «ومن المستعار وعضه الأمر اشتد عليه... وعضه بلسانه تناوله... وبئر عضوض بعيدة القعر، كأنها تعض الماتح بما تشق عليه»(٢).

ومن هذا الضرب ما ذكره من استعارة الخد لليل فقد قال: «الخد فى الوجه والخدان جانبا الوجه وهما ما جاوز مؤخر العين إلى منتهى الشدق... ومنه اشتق اسم المخدة بالكسر وهى المصدغة، لأن الخد يوضع عليها... والجمع خدود... واستعار بعض الشعراء الخد لليل فقال:

بنات وطاء على خد الليل ... لأمِّ من لم يتخذهن الويل

يعني أنهن يذللن الليل ويملكنه ويتحكمن عليه حتى كأنهن يصرعنه فيذللن خده ويفللن حده»(٣).

من المعلوم أن الليل ليس له خد على سبيل الحقيقة، وقد استعار الشاعر له خدا، وأثبته له، وإثبات الخد له استعارة تخييلية، وهى قرينة المكنية، فقد شبه الليل بإنسان-مثلا- وحذف المشبه به، ورمز إليه بالخد، ولازم المشبه به فيها مضاف وهو (خد) والمشبه مضاف إليه (الليل).

---

(١) المصدر نفسه: ٤ /٢٩٨٨ (عضض).

(٢) أساس البلاغة (عضض).   (٣) لسان العرب: ٢ /١١٠٨ (خدد).

ومن هذا الضرب ما ذكره من استعارة (الاست) لليوم الشديد الأيوم فقد قال: «السَّتْهُ، والسَّتَهُ، والاست معروفة... وقد يستعار ذلك للدهر، وقوله أنشده ثعلب:

إذا كشف اليوم العماس[1] عن استه فـــلا يرتدى مثلى ولا يتعمم»[2]

واضح أنه يقصد من الدهر اليوم -كما جاء في البيت - وهو من أجزاء الدهر، فالشاعر قد استعار الاست لليوم، ولا است له على الحقيقة، فيكون قد شبه اليوم بشخص، أو شيء يكشف عن استه أى أنه يوم ثقيل شديد، فصوره بمن تجرد من ملابسه استعدادا للنزال والمقارعة، فهو كالداهية الملساء المرمريس التى لا متعلق منها، وحذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الاست، والشاعر يقابل هذا اليوم بما يليق به، فلا يرتدى شيئًا، ولا يلبس ما يحمى رأسه من العمامة ونحوها.

وقد عبر صاحب اللسان عن هذه الاستعارة بالفعل المضارع المبنى للمجهول (يستعار).

ومن هذا اللون ما ذكره من استعارة (الْبَرْك) أى الصدر للشتاء، وهى شبيهة باستعارة الكلكل لليل، والدهر فقد قال: «وصلب العظام يصلبها صلبا، واصطلبها جمعها، وطبخها واستخرج ودكها ليؤتدم به، وهو الاصطلاب، وكذلك إذا شوى اللحم فأساله قال الكميت الأسدى:

واحتل برك الشـــتاء منزله وبات شيخ العيال يصطلب

احتل بمعنى حل، والبرك الصدر، واستعاره للشتاء أى حل صدر الشتاء ومعظمه فى منزله يصف شدة الزمان وجدبه؛ لأن غالب الجدب إنما يكون من الشتاء»[3].

فقد استعار الشاعر الصدر للشتاء فى قوله (برك الشتاء) أى صدره، والشتاء لا صدر له، فقد شبه الشتاء بالجمل - مثلا - وحذف المشبه به، ورمز إليه بالصدر، كأنه جثم عليه، وكده بالجدب، والجدع، وإضافة البرك للشتاء قرينة الاستعارة، وقد وقع اللازم فى البيت مضافا للمستعار له وهو الشتاء (المشبه) وفى هذا الشاهد تصوير لحياة بعض العرب، وأنهم كانوا يعيشون فى فقر مدقع، وضنك، وضيق، حتى يضطر هذا البعض لجمع العظام، وطبخها ليستخرج ما فيها من إدام ليؤتدم به.

---

(١) اليوم العماس الشديد أو المظلم -لسان العرب (عمى).

(٢) لسان العرب: ٣/١٩٣٦ (سته). (٣) لسان العرب: ٤/٢٤٧٧ (صلب).

وقد وقفت أمام قول صاحب اللسان: (.. لأن غالب الجدب إنما يكون من الشتاء) حائرا؛ لأن فيه نوع خفاء أو هكذا ظهر لى، فالشتاء زمن الخصب والنماء اللهم إلا أن يقصد أنه شتاء لا غيث فيه، أو أنه شتاء مدمر هلك فيه الزرع والضرع، ومنع الناس من السعى فى مناكب الأرض يبتغون من فضل الله.

ومن هذا القبيل ما ذكره من استعارة الظماء جمع ظمآن أى العطاش، للنوازع، وهى الحنين والاشتياق إلى الأهل(١) فقد قال: «الظمأ العطش، وقيل هو أخفه وأيسره... وهو ظمىء وظمآن، والأنثى ظمأى، وقوم ظماء أى عطاش قال الكميت:

إليكم ذوى آل النبى تطلعت   نوازع من قلبى ظماء وألبب

استعار الظماء للنوازع، وإن لم تكن أشخاصا»(٢).

فالنوازع، وهى الحنين، والاشتياق معنى من المعانى لا تظمأ ولا تعطش، وقد استعار الشاعر لها الظمأ، وإن لم تكن أشخاصا يتأتى منها الظمأ على سبيل الحقيقة، ويقال فى إجراء هذه الاستعارة شبه الشاعر نوازع قلبه وهى حنينه وأشواقه إلى آل النبى ﷺ بقوم ظماء، وحذف المشبه به، ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو الظمأ، واللازم فى هذه الاستعارة صفة لنوازع كما هو واضح والألبب الألباب والعقول جمع لب مثل الألباب(٣).

ويبدو أن قوله (تطلعت) ترشيح للاستعارة؛ لأنه زائد على القرينة، وهويلائم القوم الظماء - أى المشبه به المحذوف - وكلمة (ألبب) معطوفة على نوازع فهى ظماء أيضا. فكأنه قال نوازع ظماء، وألبب ظماء، فيكون فى البيت استعارتان.

ومن هذا القبيل ما ذكره من استعارة الزكاء والنمو للعلم فقد قال: «الزكاء ممدود النماء والريع زكا يزكو زكاء وزكوا، وفى حديث على - كرم الله وجهه - المال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، فاستعار له الزكاء وإن لم يك ذا جرم»(٤).

فالزكاء وهو النماء لا يوجد فى العلم على سبيل الحقيقة بل هو مستعار من الأشياء التى لها أجرام كالنبات - مثلا - وإثبات الزكاء للعلم قرينة هذه الاستعارة

---

(١) ينظر المعجم الوجيز (نزع).   (٢) لسان العرب: ٤ / ٢٧٦٠ (ظمأ).
(٣) جاء فى لسان العرب: واللب العقل، والجمع ألباب وألبب: ٥ / ٣٩٧٩ (لبب).
(٤) لسان العرب: ٣ / ١٨٤٩ (زكا).

المكنية، وذلك الإثبات استعارة تخييلية، ويمكن أن يقال في إجرائها شبه العلم بشي نام، وحذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو النماء، فاستعار المحسوس للمعقول، ولازم المشبه به في هذه الاستعارة جملة فعلية وقعت خبرا. وقد عبر ع المكنية هنا بالفعل الماضي (استعار).

ومن هذا النوع ما ذكره من استعارة السقي للموت فقد قال: «وشفَّ الماءَ يشُفُّهُ شفًّا، واشتفه، واستشفه... كل ذلك تقصى شربه قال بعض العرب لابنه في وصاة أقبح طاعم المقتف، وأقبح شارب المشتف»[1].

فاشتفاف الماء حقيقة لغوية، وقد أتبع صاحب اللسان ذلك بذكر استعار الاشتفاف للموت فقال:

«واستعاره – أي الاشتفاف – عبد الله بن سبره الجرشي في الموت فقال:

ساقيته الموت حتى اشتف آخره فما استكان لما لاقى ولا ضرعا

أي حتى شرب آخر الموت، وإذا شرب آخره فقد شربه كله»[2]. أي إنه سقاه الموت حتى الثمالة، فقد استعار الشاعر الاشتفاف للموت، فيكون قد شبه الموت بشيء مشروب، وحذف المشبه به، ورمز إليه بالاشتفاف، واللازم هنا جملة (اشتف آخره).

ويتراءى لي أن الموت في البيت مستعار للذل، والعذاب وليس المراد به الموت الحقيقي بقرينة لفظية هي قوله: «فما استكان لما لاقى ولا ضرعا» والذي مات لا يتأتى منه استكانة ولا تضرع.

ويبدو أن هذا الشاعر قد تأثر قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٧٦] فإن صح ما فهمته حول هذه الاستعارة، يكون المشبه في المكنية قد وقع استعارة وليس أمرا حقيقيا.

ومن هذا النمط ما ذكره من استعارة الجبهة للقمر فقد قال: «الجبهة للإنسان وغيره، والجبهة موضع السجود... واستعار بعض الأغفال[3] الجبهة للقمر فقال أنشده الأصمعي:

---

(١) لسان العرب: ٤/ ٢٢٩٠ (شفف). (٢) المصدر نفسه والموضع.

(٣) يقال شاعر غُفل أي غير مسمى، ولا معروف، والجمع اغفال، لسان العرب: ٥/ ٣٢٧٨ (غفل).

من لدُ ما ظهر إلى سحير   حتى بدت لى جبهة القمير»[1]

أى أن استعمال الجبهة فى الإنسان وغيره حقيقة أما إثبات الجبهة للقمر، فهو استعارة مكنية، فقد شبه الشاعر القمر أو القمير بمن له جبهة كالإنسان – مثلا – وحذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الجبهة.

وإثبات الجبهة للقمير استعارة تخييلية، وهى قرينة المكنية. واللازم فى هذه الاستعارة مضاف للمشبه، وهو جبهة، وهذه الاستعارة مطلقة.

ومن هذا الضرب ما ذكره من استعارة الأثناء، وهى ما تثنى من الحية ونحوها، لليل فقد قال: «ثَنَى الشيءَ ثَنْيًا رد بعضه على بعض، وقد تثنى وانثنى وأثناؤه ومثانيه قواه وطاقاته وثِنْيُ الحية انثناؤها – يقصد مصدر الفعل انثنى – وهو أيضًا ما تعوج منها إذا تثنت، والجمع أثناء واستعاره غيلان الرَّبَعِيّ لليل فقال:

حتى إذا شق بهيم الظلماء   وساق ليلا مرجحن الأثناء

وهو على القول الآخر اسم»[2].

يقول إن (ثِنْى) الحية فى كلامه المتقدم له معنيان: **أحدهما**: أنه مصدر أى انثناؤها. **والثانى**: ما تثنى منها، وتعوج إذا تثنت وهو اسم، واستعارته لليل إنما هى على المعنى الثانى.

الاستعارة المكنية فى قول الشاعر: (ليلا مرجحن الأثناء) ومعنى (ليل مرجحن) أى ثقيل واسع، ويقال فلان فى دنيا مرجحنة أى واسعة كثيرة[3] فالليل كما صوره الشاعر حالك الظلام طويل ثقيل على نفسه.

فكثرة التثنى فى الحية ونحوها حقيقة، أما كثرة التثنى فى الليل، فهى استعارة مكنية، فيكون الشاعر قد شبه الليل الطويل بالحية الطويلة كثيرة الالتواءات، والتعاريج إذا تثنت، وحذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو (مرجحن الأثناء) واللازم فيها وقع صفة لليل، فهو ليل طويل متثن.

ومن ذلك النوع ما ذكره من استعارة الْعَيَفَان، وهو كراهية الطعام، أو الشراب

---

(١) لسان العرب: ١/ ٥٤٠ (جبه).   (٢) لسان العرب: ١/ ٥١١ (ثنى).
(٣) المصدر نفسه: ٣/ ١٥٨٧ (رجح).

للكلاب فقد قال: «عاف الشيء يعافه عيفا وعيافة وعيافا وعيفانا كرهه طعاما كان أو شرابا... واستعاره النجاشي للكلاب فقال يهجو ابن مقبل:

تعاف الكلاب الضاريات[1] لحومهم   وتأكل من كعب بن عوف ونهشل»[2]

يبدو من كلام صاحب اللسان أن العياف في جانب الناس حقيقة لغوية على حد قول بعضهم:

وإني لشراب المياه إذا صفت   وإني إذا كدرتها لعيوف[3]

أما إسنادها للكلاب، فهو استعارة - كما ذكر صاحب اللسان - فيكون الشاعر قد شبه الكلاب بمن يعاف، ثم حذف المشبه به، ورمز إليه بالفعل (تعاف)، وبناء على ذلك يكون اللازم في تلك الاستعارة هو الفعل (تعاف).

فالشاعر يذم ابن مقبل، وقومه بأنهم لا طعم لهم حتى إن الكلاب لو عرض عليها أكل لحومهم لتقززت منها وعافتها، وكفى بذلك ذما.

ومن هذا اللون ما ذكره من استعارة الدفيف، وهو السير الهادي (للدَّبَرَان) وهو نجم فقد قال: «والدفيف العَدْوُ الصحاح الدفيف الدبيب وهو السير اللين واستعارة ذو الرمة في الدبران فقال يصف الثريا:

يدف على آثارها دبرانها   فلا هو مسبوق ولا هو يلحق»[4]

فالدفيف لمن يسير على رجليه، أو أرجله حقيقة لغوية - كما هو واضح من كلامه المتقدم، ولكنه في جانب النجم المسمى (دبرانا) في البيت استعارة مكنية، ويمكن إجراؤها بأن يقال شبه الشاعر الدبران بمن يسير سيرا هادئا، وحذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الدفيف، واللازم في البيت فعل مضارع هو (يدف) والمشبه فاعل، وهو دبرانها، والقرينة هي إثبات (يدف) للدبران، وهي استعارة تخييلية.

وقد ألقى صاحب اللسان الضوء على (الدبران) في موضع آخر فقال: «الدبران

---

(١) الضارى من الجوارح والكلاب المدرب (المعجم الوجيز).
(٢) لسان العرب: ٤ / ٣١٩٢ (عيف).
(٣) أساس البلاغة (عيف).
(٤) لسان العرب: ٢ / ١٣٩٥ (دفف).

نجم بين الثريا والجوزاء، ويقال له التابع والتوبيع، وهو من منازل القمر سمى دبرانا لأنه يدبر الثريا أى يتبعها»[١].

ويبدو أن قول الشاعر فى الشطر الثانى: (فلا هو مسبوق، ولا هو يلحق) ترشيح للاستعارة، لأن ألسبق واللحوق من صفات المتسابقين، فهو من ملائمات المشبه به.

ومن هذا القبيل ما ذكره من استعارة الأشطأن وهى الحبال الطويلة التى يستقى بها من البئر.[٢] للحياة فقد قال: «الشَّطَنُ الحبل... والجمع أشطان قال عنترة:

يدعون عنتر والرماح كأنها   أشطان بئر فى لبان الأدهم

وفى حديث علىّ عليه السلام وذكر الحياة فقال إن الله جعل الموت خالجا لأشطانها... والخالج المسرع فى الأخذ فاستعار الأشطان للحياة لامتدادها وطولها»[٣].

الأستعارة المكنية فى قوله - رضى الله عنه - (خالجا لأشطانها) لأنه أثبت للحياة أشطانا، ولا أشطان لها على الحقيقة، وهذا الإثبات استعارة تخييلية، وهى قرينة المكنية، فقد شبه الحياة - أى الضمير العائد إليها- بالبئر العميقة، وحذف البئر، ورمز إليها بالأشطان.

ومن هذه الطريقة ما ذكره من استعارة الصمم، للحلم، فقد قال: «الصمم انسداد الأذن وثقل السمع... وقوله أنشده ثعلب:

قل ما بدا لك من زور ومن كذب   حلمى أصم وأذنى غير صماء

استعار الصمم للحلم، وليس بحقيقة»[٤].

الصمم فى حقيقته ثقل السمع، وانسداد الأذن - كما قال - هذا فى الذى يسمع، والحلم معنى من المعانى لا يتأتى منه السمع، أو يلحقه الصمم، وقد أثبت الشاعر الصمم للحلم على سبيل الاستعارة المكنية، فشبه الحلم بإنسان -مثلا -

---

(١) المصدر نفسه: ٢/١٣٢٠ (دبر).   (٢) ينظر المعجم الوجيز (شطن).

(٣) لسان العرب: ٤/٢٢٦٤، ٢٢٦٥ (شطن)، والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ٢/٤٧٥.

(٤) لسان العرب: ٤/٢٥٠٠، ٢٥٠١ (صمم).

وحذف المشبه به، ورمز إليه بالصمم. يصف نفسه بالحلم الشديد، وتحمل هذا الكذاب، وإهمال شانه.

ولازم المشبه فى هذه الاستعارة وقع وصفا فى المعنى؛ لأنه خبر (حلمى أصم) وقد عبر عنها صاحب اللسان بالماضى (استعار) وأكد كونها استعارة بقوله (وليس بحقيقة).

ومن هذا النحو ما ذكره من استعارة (الشوى) أى الجلد، للرسائل، فقد قال: «... وفى الحديث لا تنقض الحائض شعرها إذا أصاب الماء شوى رأسها أى جلده، والشواة جلدة الرأس، وقول أبى ذؤيب:

على إثر أخرى قبلها قد أتت لها إليك فجاءت مقشعرا شواتها

أراد المألك[١] التى هى الرسائل، فاستعار لها الشواة، ولا شواة لها فى الحقيقة، وإنما الشوى للحيوان»[٢].

فالشواة فى الحقيقة جلدة الرأس، رأس الإنسان، أو الحيوان وقد أثبت الشاعر الشواة للرسالة، ولا شواة لها فى الحقيقة - كما ذكر - فيكون الشاعر قد شبه الرسالة التى جاءت فى إثر أخرى أى الضمير العائد إليها فى (شواتها) بالحيوان، وحذف المشبه به، ورمز إليه بالشواة.

واللازم فى هذه الاستعارة مضاف، والمشبه مضاف إليه - كما هو ظاهر - وإثبات الشواة للرسالة قرينة هذه الاستعارة وهى استعارة تخييلية، ويبدو أن قوله (مقشعرا) ترشيح لأنه زائد على قرينة الاستعارة، وملائم للمشبه به الحيوان.

(يقال اقشعر جلده من الخوف وقف شعره وهو مثل فى شدة الخوف)[٣] وكان الشاعر يصف من جاءت إليه الرسائل بالقوة، وعزة السلطان حتى إن الرسائل وهى جمادات تخاف منه، وترتعد فرائصها من لقائه، وقد عبر عن هذه الاستعارة بالماضى (استعار) وأكد أمرها بقوله: (ولا شواة لها فى الحقيقة).

---

(١) المألُكة، والمألَكة، والمألَك - الرسالة - المعجم الوجيز (ألك).
(٢) لسان العرب: ٤/٢٣٦٨ (شوا). والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ٢/٥١٢.
(٣) الكشاف: ٣/٣٤٥.

ومن هذا النمط ما ذكره من استعارة الطموّ والطميّ، للسّفاه فقد قال: «طما الماء يطموا طموا، ويطمى طميا ارتفع وعلا، وملأ النهر فهو طام، وكذلك إذا امتلأ البحر، أو النهر، أو البئر، ... وطما النبت طال، وعلا، ومنه يقال طمت المرأة بزوجها أى ارتفعت به، وطمت به همته علت، وقد يستعار فيما سوى ذلك أنشد ثعلب:

لها منطق لا هذريان طمى به ... سفاه ولا بادى الجفاء جشيب

أى أنه لم يعل به كما يعلو الماء بالزبد فيقذفه»(١).

يصف الشاعر هذه المرأة بأن لها منطقا هادئا جميلا، ليس خشنا، ولا زائدا عن الحاجة؛ لأنها امرأة عاقلة رزينة، وليس بها شيء من السفاهة التى ترفع أصوات السفهاء، وهذريان مثل مهذار، ومهذارة(٢) وجشيب خشن فيه غلظة(٣).

فقد أشار صاحب اللسان فى عجز كلامه المتقدم إلى أن منطقها لم يرفعه السفاه، كما يرفع الماء الزبد، فمضمون كلام الشاعر أنه شبه السفاه أى السفاهة بالماء، وحذف المشبه به، ورمز إليه بالفعل (طما)، وإثبات الطمو للمنطق - المعبر عنه بالضمير به - استعارة تخييلية، وهى قرينة المكنية، ولازم المشبه به هنا فعل وهو طما، والمشبه فاعل، وهو السفاه.

ومن هذا القبيل ما ذكره من استعارة عدم النكش أى النزف، للشجاعة فقد قال: «... وبحر لا ينكش لا ينزف، وكذلك البئر، ونكشت البئر أنكشها بالكسر نزفتها»(٤).

واضح أن النكش فى هذه الأشياء التى ذكرها حقيقة لغوية، ولكنه أضاف أنه يأتى فى أشياء أخرى على سبيل الاستعارة فقال: «.. ومنه قولهم فلان بحر لا ينكش، وعنده شجاعة ما تنكش وقال رجل من قريش فى على بن أبى طالب - رضى الله عنه - عنده شجاعة ما تنكش فاستعاره فى الشجاعة أى ما تستخرج ولا تنزف؛ لأنها بعيدة الغاية»(٥).

يريد هذا الرجل القرشى أن يقول إن شجاعة على - رضى الله عنه - لا تنفد ولا

---

(١) لسان العرب: ٤/٢٧٠٧ (طما). (٢) ينظر أساس البلاغة (هذر).
(٣) ينظر لسان العرب ١/٦٢٦ (جشب). (٤) لسان العرب:٦/٤٥٤١ (نكش).
(٥) المصدر نفسه والموضع. والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ٥/١١٦.

تغيض، فاستعار عدم النكش لشجاعته، وأثبته لها، فيكون قد شبه الشجاعة بالبحر، أو البئر – مثلا – وحذف المشبه به، ورمز إليه بعدم النكش والنفاد، فالمستعار له الشجاعة والمستعار منه الماء، وإثبات عدم النكش للشجاعة استعارة تخييلية، واللازم أي لازم المشبه به جملة (ما ينكش) وهى صفة (الشجاعة).

ويبدو أنها مطلقة لأنه لم يذكر بعد قرينتها شيء يلائم المشبه به، أو المشبه.

ومن ذلك النوع ما ذكره من استعارة (اللغوب) وهو الإعياء والنصب، للريح فقد قال: « اللغوب التعب والإعياء، وألغبته أنا أنصبته، وفى التنزيل العزيز ﴿ **وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ** ﴾ [ق: ٣٨] ومنه قيل فلان ساغب لاغب أى مُعْيٍ، واستعار بعض العرب ذلك للريح فقال أنشده ابن الأعرابى:

وبلدة مجهل تمسى الرياح بها لواغبا   وهى ناء عرضها خاوية »(١)

فالتعب والإعياء حقيقة فى الذى يحس به من الأحياء، لكن إسناده لمن لا يتعب كالريح فى البيت السابق استعارة استعير فيها اللغوب للرياح، ولا لغوب يلحقها على الحقيقة، فيكون الشاعر قد شبه الرياح بمن يتعب، ويصيبه الإعياء والكلال، وحذف المشبه به، ورمز إليه باللغوب أعنى بقوله (لواغبا) ولازم المشبه به فيها وقع خبرا للفعل (تمسى) وهو وصف فى المعنى.

ونلحظ أن الاستعارة هنا جاءت فى الخبر.

ومن هذا القبيل ما ذكره من استعارة (الآمة) وهى الشجة التى فى الرأس، للحشا، فقد قال: « وأمه يؤمه أمًّا فهو مأموم وأميم أصاب أم رأسه... المحكم وشجة آمة ومأمومة بلغت أم الرأس، وقد يستعار ذلك فى غير الرأس قال:

قلبى من الزفرات صدعه الهوى   وحشاى من حر الفراق أميم »(٢)

فقد استعار الشاعر قوله: (أميم) من الرأس للحشا(٣) فيكون قد شبه جوفه وما فيه من أعضاء بالرأس الذى يشج، ويجرح جرحا بليغا، وحذف المشبه به، ورمز إليه بأميم وذلك من لوازم المشبه به.

---

(١) لسان العرب: ٥/٤٠٤٦ (لغب).   (٢) لسان العرب: ١/١٣٨ (أمم).

(٣) الحشا – ما دون الحجاب مما يلى البطن كله من الكبد والطحال، والكرش، وما يتبع ذلك. المعجم الوجيز (حشا).

ولازم المشبه به هنا خبر - أى وصف فى المعنى، يقول إن قلبه من الزفرات أى إخراج النفس الممدود الطويل قد شقه الهوى والحب، وكسره، وباطنه مجروح مقروح، وقد بلغت جراحاته المدى.

ومن هذا اللون ما ذكره من استعارة الأفنان وهى الأغصان، للظلام فقد قال: «والفنن الغصن المستقيم طولا وعرضا... والفنن ما تشعب منه، والجمع أفنان ثم الأفانين.....

وأما قول الشاعر:

منا أن ذر قرن الشمس حتى   أغاث شريدهم فنن الظلام

فإنه استعار للظلمة أفنانا، لأنها تستر الناس بأستارها، وأوراقها، كما تستر الغصون بأفنانها وأوراقها»(١).

فالأفنان والأغصان فى الحقيقة للشجر، وقد استعارها الشاعر فى البيت للظلام، فيكون قد شبه الظلام بالشجرة، وحذف المشبه به، ورمز إليه بالأغصان، وإثبات الفنن أو الأفنان استعارة تخييلية، وهى قرينة المكنية.

ولازم المستعار له وقع مضافا، والمستعار، أو المشبه مضاف إليه فى قوله (فنن الظلام).

ولعل صاحب اللسان قد بين فى كلامه المتقدم (الفنن) وهو مفرد بالجمع (الأفنان والغصون) لأن المفرد المضاف يعم - كما يقولون -.

ومن هذا النوع ما ذكره من استعارة الصياح للنهار فى قول الفرزدق:

والشيب ينهض فى السواد كأنه   ليل يصيح بجانبيه نهار(٢)

فقد حكى أنه «... لما قال ليل يصيح بجانبيه، استعار للنهار الصياح؛ لأن النهار لما كان آخذا فى الإقبال، والإقدام، والليل آخذ فى الإدبار، صار النهار كأنه هازم، والليل مهزوم، ومن عادة الهازم أنه يصيح على المهزوم ألا ترى إلى قول الشماخ:

---

(١) لسان العرب: ٥/٣٤٧٦ (فنن).

(٢) هذه رواية لسان العرب (ينهض فى السواد) والمشهور (ينهض فى الشباب) ينظر أسرار البلاغة: ١٩٨.

وقد ذكره الشيخ محمود شاكر فى هامش الصفحة نفسها برواية (فى الشباب).

ولاقت بأرجاء البسيطة ساطعا   من الصبح لما صاح بالليل نفّرا

فقال صاح بالليل حتى نفر وانهزم...»[1]

واضح فى كلامه إجراء هذه الاستعارة، فقد شبه النهار بمن هزم عدوه، وحذف المشبه به، ورمز إليه بالصياح، وإثبات الصياح للنهار قرينة الاستعارة، فالمشبه به المحذوف من يصيح بعدوه المهزوم الذى ولاه الأدبار.

وهذا المشبه به الذى قدر فى لسان العرب أدل على المراد، وإصابة الهدف من قول بعضهم يصور المشبه به ذاته: «.. فقد شبه النهار وهو يطرد الليل طردا سريعا برجل يصيح فى نواحى غنمه؛ ليزعجها من مكانها، ويحولها عنه، ودل على هذا التشبيه بإثبات الصياح للنهار»[2].

لأن المهزوم أمام عدوه يفر، ويجد فى الفرار، لا يلوى على شىء، أما الغنم التى تفر أمام راعيها الذى يصيح فيها، فإنها تتحول من مكان إلى آخر، ولا تلج فى الفرار، وتتمادى فيه.

ويبدو أن صياغة البيت على هذه الصورة توهم أن الضمير فى (كأنه) عائد إلى (الشيب) فى صدر البيت؛ لأن الكلام فيه؛ ولذلك عاب بعضهم هذا التشبيه وقال إنه منكوس لأنه « ذكر أن الشيب يبدو فى الشباب، ثم ترك ما ابتدأ به، ووصف الشباب بأنه ليل يصيح فيه نهار، والذى تقتضيه المقابلة الصحيحة أن يقول كما ينهض نهار فى جانبى ليل»[3].

وهذا نقد له وجاهته بحسب الظاهر، ولكن من يتريث فى نظرته إلى التشبيه فى البيت يجد أن مضمونه كأنه نهار يصيح بجانبى ليل، ومقابلة الليل بالسواد، أو الشباب، تبرز هذا المضمون، وتؤازره، ولا تجعل معنى البيت غامضا أو مستغلقا.

وقد يجمل هنا أن أشير إلى أن فى اليت استعارة مكنية أخرى فى قوله: (والشيب ينهض فى الشباب..) « فقد شبه الشيب بذى حياة وقدرة على النهوض..» وقد أسند النهوض إلى الشيب، وتلك تخييلية»[4].

---

(١) لسان العرب: ٦/٤٥٥٧ (نهر).

(٢) دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبدالقاهر فى التشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير: ٣٠.

(٣) حسن التوسل إلى صناعة الترسل: ١٢٥ شهاب الدين محمود الحلبى ت سنة ٧٢٥هـ تحقيق ودراسة أكرم عثمان يوسف - دار الحرية للطباعة - بغداد ١٤٠٠هـ

(٤) البلاغة فنونها وأفنانها: ٢/١٧٧، د/ فضل حسن عباس.

وفي البيت كله تشبيه تمثيلى شبه فيه صورة بياض الشيب، وهو يمحو سواد الشباب في سرعة حتى لا يبقى منه شيئًا ببياض النهار، وهو يمحو سواد الليل حتى يزيله جملة، والوجه صورة شيء أبيض يمحو شيئًا أسود، ويحتل مكانه»[1].

ثانيتها: أنه كان يعبر عن الاستعارة المكنية بكلمة التشبيه، أو ما اشتق منها، فمن ذلك ما أشار إليه من استعارة يَنْع الفاكهة ونضوجها لرءوس الناس في كلام الحجاج المشهور فقد قال: «... وأما قول الحجاج إني لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها، فإنما أراد قد قرب حمامها، وحان انصرامها شبه رءوسهم لاستحقاقهم القتل بثمار قد أدركت وحان أن تقطف»[2].

الاستعارة المكنية كما يبدو في قوله: (إني لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها) فقد أثبت الحجاج للرءوس صفة الفاكهة، وهى الينع، والنضج، فإنه يقال ثمرة يانعة، ومونعة أى نضيجة[3].

فيكون قد شبه رءوس الناس الذين يتوعدهم بالثمار التى أدركت، وحذف المشبه به، ورمز إليه بالينع.

ولازم المشبه به جملة (قد أينعت) وهى صفة لرءوس. ويظهر أن جملة (وحان قطافها) ترشيح؛ لأنها جاءت بعد استيفاء الاستعارة قرينتها، وهى من ملائمات المشبه به، وقد عبر عنها صاحب اللسان بقوله (شبه رءوسهم إلخ) وفى استعارة صفة الفاكهة لهذه الرءوس إيماء من الحجاج إلى أنها سهلة القطع، هينة الاستئصال، لا تستعصى عليه، ولا تتأبى على عقابه.

ومن هذا النوع ما أشار إليه من استعارة (الاستتباب) وهو تهيؤ الطريق واستواؤه، ووضوحه للسائرين - استعارته للأمر الواضح المستقيم، فقد قال: «استتب الأمر تهيأ واستوى، واستتب أمر فلان إذا اطرد واستقام وتبين، وأصل هذا من الطريق المستتب وهو الذى خدّ فيه السيارة خدودا وشركا، فوضح واستبان لمن يسلكه كأنه تبب من كثرة الوطء... فصار ملحوبا بينا من جماعة ما حواليه من الأرض، فشبه الأمر الواضح البين المستقيم به...»[4].

---

(١) ينظر دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر فى التشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير. الشيخ عبدالهادى العدل: ٣٠.

(٢) لسان العرب: ٦/ ٤٩٧٢ (ينع).

(٣) ينظر أساس البلاغة (ينع).

(٤) لسان العرب: ١/ ٤١٥ (تبب).

فقد استعير الاستتاب من الطريق للأمر، وإثباته للأمر استعارة تخييلية، وهى قرينة المكنية، فيكون قد شبه الأمر الواضح بالطريق الملحوب الذى ذللته، وعبدته كثرة السير فيه، ورمز إليه بالفعل (استتب) .

ولازم المشبه به فى هذه الاستعارة كما لا يخفى فعل ماض والمشبه فاعل (استتب) الأمر .

وقد اكتفى فى بيان هذه الاستعارة بقوله (فشبه الأمر الواضح) إلخ .

ومن هذا النوع ما أشار إليه من استعارة (شقاشق الإبل) جمع (شقشقة وهى ما يخرجه البعير، من فيه إذا هاج) للشيطان، فقد قال : « الشقشقة لهاة البعير وقيل هو شيء كالرئة يخرجها البعير من فيه إذا هاج، والجمع الشقاشق، ومنه سمى الخطباء شقاشق شبهوا المكثار بالبعير الكثير الهدر، وفى حديث على رضى الله عنه – إن كثيرا من الخطب من شقاشق الشيطان فجعل للشيطان شقاشق، ونسب الخطب إليه لما يدخل فيها من الكذب »[1] .

الاستعارة المكنية فى قول على – رضى الله عنه – (إن كثيرا من الخطب من شقاشق الشيطان) .

فقد أثبت للشيطان شقاشق وهذا الإثبات استعارة تخييلية، وهى قرينة المكنية، فيكون قد شبه الشيطان بالبعير، وحذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو (شقاشق) .

ولازم المشبه به مضاف، والمشبه وهو لفظ الشيطان مضاف إليه .

ومن ذلك ما أشار إليه من استعارة (أشطر ضرع الناقة) للدهر فقد قال : « . . . وحلب الدهر أشطره أى خبر ضروبه يعنى أنه مر به خيره وشره، وشدته ورخاؤه تشبيها بحلب جميع أخلاف الناقة ما كان منها حفلا، وغير حفل، ودارا وغير دار، وأصله من أشطر الناقة، ولها خلفان قادمان وآخران كأنه حلب القادمين وهما الخير، والآخرين وهما الشر، وكل خلفين شطر »[2] .

الاستعارة المكنية كما يبدو فى قوله (وحلب الدهر أشطره) فأثبت للدهر أشطرا

---

(١) لسان العرب : ٤/٢٣٠٣ (شقق) . والنهاية فى غريب الحديث والأثر : ٢/٤٨٩ .
(٢) لسان العرب : ٤/٤٤٦٢ (شطر) .

مثل أشطر ضرع الناقة - كما وضح صاحب اللسان - فيكون قد شبه الدهر بالناقة، وحذف المشبه به، ورمز إليه بالأشطر.

ولازم المشبه به فيها بدل (أشطره)، والمشبه مفعول به وهو الدهر، والفعل حلب ترشيح؛ لأنه من ملائمات المشبه به.

وقد عبر عنها بقوله (تشبيها بحلب إلخ).

ثالثتها: أنه كان أحيانا يشير إلى الاستعارة المكنية بلفظ (المثل) فمن ذلك ما أشار إليه من استعارة (الأطيط) وهو صوت أقتاب الإبل، وصوت الإبل، وحنينها فقد قال: « .. وفى الحديث أطت السماء، والأطيط صوت الأقتاب، وحنينها أى أن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطت، وهذا مثل، وإيذان بكثرة الملائكة، وإن لم يكن ثم أطيط، وإنما هو كلام تقريب أريد به تقرير عظمة الله عز وجل... »[1].

الاستعارة المكنية - كما هو باد - فى قوله ﷺ (أطت السماء) فقد أثبت الأطيط للسماء، ولا أطيط لها على الحقيقة، فيكون قد شبه السماء بالإبل، والأقتاب، وحذف المشبه، ورمز إليه بالأطيط، ولازم المشبه به الفعل الماضى (أطّ) والمشبه فاعل وهو لفظ (السماء).

ونلحظ أنه ﷺ قد استعمل فى تعبيره عناصر البيئة، ليقرب الأمور البعيدة بما هو مشاهد وماثل بين أيديهم، ليقرر قدرة الله وعظمته.

وقد عبر عن هذه الاستعارة بقوله (هذا مثل وإيذان بكثرة الملائكة..).

ويدعم ما قلته أننى وجدت - بتوفيق من الله - بعض علماء الحديث قد جعل هذا التعبير النبوى نفسه فى حديث آخر استعارة مكنية، أو تمثيلية فقال وهو يتناول قوله ﷺ: « .. أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله تعالى.. ».

إنه « استعارة بالكناية شبهت السماء بذى الصوت من الإبل، ثم ذكر شيئًا من لوازم الإبل، والأقتاب المركوب عليها، وهو الصوت المعبر عنه بقوله أطت لينتقل الذهن منه إليه »[2].

---

(١) لسان العرب: ١/٩٢ (أطط).

(٢) دليل الفالحين، لطرق رياض الصالحين، محمد بن علان: ٢/٣٠٢، ٣٠٣.

ومن ذلك ما أشار إليه من استعارة النحر للنهار، والظهيرة، والشهور فقد قال: «النحر الصدر، النحور الصدور... ونحر النهار أوله، وأتيته في نحر النهار أي أوله، وكذلك في نحر الظهيرة، وفي حديث الهجرة أتانا رسول الله ﷺ في نحر الظهيرة هو حين تبلغ الشمس منتهاها من الارتفاع، كأنها وصلت إلى النحر، وهو أعلى الصدر، وفي حديث الإفك حتى أتينا الجيش في نحر الظهيرة فقلت أية ساعة زيارة، ونحور الشهور أوائلها، وكل ذلك على المثل»(١).

واضح أن هنا عدة استعارات مكنية في نحر النهار، ونحر الظهيرة، ونحور الشهور، فأثبت للنهار نحرا وللظهيرة نحرا، وللشهور نحورا، وليس لها نحور على الحقيقة، فيكون قائل هذه الاستعارات قد شبه هذه الأشياء بمن له نحر على سبيل الحقيقة، وحذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو النحر، أو النحور، ولازم المشبه به في تلك الاستعارات مضاف، والمشبه مضاف إليه، ويبدو أنها جميعا استعارات مطلقة، لم يذكر معها ما يلائم المشبه به أو المشبه.

وقد عبر عنها كلها بكلمة (المثل) في قوله (وكل ذلك على المثل).

ومن ذلك ما أشار إليه من استعارة (العجم) وهو عض الشيء ليعلم صلابته أو ضعفه، استعارته، لاختبار الرجل، فقد قال: «... وخطب الحجاج يوما فقال إن أمير المؤمنين نكب كنانته، فعجم عيدانها عودا عودا فوجدني أمرها عودا يريد أنه رازها بأضراسه ليخبر صلابتها... والعجم عض شديد بالأضراس دون الثنايا، وعجم الشيء.. عضه ليعلم صلابته من خوره... وعجم الرجل رازه على المثل»(٢).

فعجم الأشياء لمعرفة ضعفها أو صلابتها حقيقة، أما إثبات العجم واقعا على الرجل، فهو استعارة مكنية شبه فيها الرجل بشيء يعض ويعجم، وحذف المشبه به، ورمز إليه بالعجم.

ولازم المشبه به فيها هو الفعل الماضي (عجم) والمشبه مفعول به، وهو الرجل، ويبدو أنها استعارة مطلقة، وقد عبر عنها بلفظ (المثل) في قوله (وعجم الرجل رازه

---

(١) لسان العرب: ٦/٤٣٦٤ (نحر) والنهاية في غريب الحديث والأثر: ٥/٢٧.

(٢) لسان العرب: ٤/٢٨٢٧ (عجم). ومعنى نكب كنانته - نثر ما فيها. المصدر نفسه ٦/٤٥٣٥ (نكب).

على المثل) أما قول الحجاج (إن أمير المؤمنين نكب كنانته فعجم عيدانها إلخ) فيتراءى لى أنه استعارة تمثيلية شبه فيها حال أمير المؤمنين وهو يختار أحد رجاله ليكون واليا على العراق بمن يروز أعوادا عنده ليتخذ منها (عصا) - مثلا - لأن أمير المؤمنين يختار رجالا ولا يختار أعوادا.

ومن ذلك ما أشار إليه من استعارة النطق للكتاب، فقد قال: «نطق الناطق ينطق نطقا تكلم، والمنطق الكلام والمنطيق البليغ أنشد ثلعب:

والنوم ينتزع العصا من ربها ويلوك ثنْى لسانه المنطيق

وقد أنطقه الله، واستنطقه أى كلمه، وناطقه... وكتاب ناطق بين على المثل كأنه ينطق...»(١).

واضح أن النطق من الإنسان حقيقة، أما إسناده وإثباته للكتاب، وهو جماد، فتلك استعارة مكنية شبه الكتاب بالإنسان الناطق، وحذف المشبه به، ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو النطق.

ولازم المشبه به وقع خبرا، وهو (ناطق) والمشبه مبتدأ وهى استعارة مطلقة لم تقترن بملائم للمشبه به، أو المشبه.

رابعتها: أن يذكر أمثلة للاستعارة المكنية دون أن يصرح بشىء مما سبق، فمن ذلك ما أومأ إليه من استعارة الإرادة للجدار، والفئوس، والرمح فقد قال:

«وأراد الشىء شاءه قال ثعلب الإرادة تكون محبة، وغير محبة... وقوله عز وجل: ﴿ **فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ** ﴾ [الكهف: ٧٧] أى أقامه الخضر، وقال يريد، والإرادة إنما تكون من الحيوان، والجدار لا يريد إرادة حقيقية؛ لأن تهيؤه للسقوط قد ظهر كما تظهر أفعال المريدين فوصف الجدار بالإرادة إذ كانت الصورتان واحدة، ومثل هذا كثير فى اللغة والشعر قال الراعى:

فــى مَهْمَهٍ قلقت به هاماتها قلق الفئوس إذا أردن نصــولا

وقال آخر:

يريد الرمح صــدر أبى بــراء ويعدل عن دماء بنى عقيل»(٢)

---

(١) لسان العرب: ٦/٤٤٦٢ (نطق).
(٢) لسان العرب: ٣/١٧٧٢ (رود).

فنجد صاحب اللسان فى كلامه المتقدم، قد شخص، وصور الاستعارة المكنية تشخيصا واضحا دون أن يصرح بلفظ استعارة، أو تشبيه، أو مثل، مبينا أن الإرادة لا تكون من الجدار على سبيل الحقيقة، وإنما على سبيل الاستعارة؛ لأن الجدار لما تهيأ للسقوط، واستعد له صار كأنه إنسان يهم، ويتحفز، وإثبات الإرادة للجدار استعارة تخييلية.

ومثل ذلك استعارة الإرادة للفئوس فى بيت الراعى، واستعارتها للرمح فى البيت الأخير.

* * *

حول مواقع الاستعارة التخييلية من الإعراب

الاستعارة التخييلية أو لازم المشبه به فى الاستعارة المكنية تأتى - كما ظهر من الشواهد والأمثلة التى سلف ذكرها - على عدة صور:

إحداها: أن تكون مضافا كما فى قول الأعرابية ترثى ولدها:

ألقى عليه الدهـر كلكله من ذا يقوم بكلكل الدهر

وكما فى قول الكميت:

واحتل برك الشتاء منزله وبات شيخ العيال يصطلب

وكما فى قولهم: نحر الظهيرة، أو نحر النهار، وغير ذلك.

ثانيتها: أن تكون صفة مفردة كما فى قول الكميت:

إليكم ذوى آل النبىّ تطلعت نوازع من قلبى ظماء وألبب

وكما فى قول غيلان الربعى:

حتى إذا شق بهيم الظلماء وساق ليلا مرجحن الأثناء

أو جملة كما فى قول الحجاج: إنى لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها... فإن جملة (قد أينعت) صفة لكلمة (رءوس).

ثالثتها: أن تكون خبرا مفردا، وهو وصف فى المعنى كما فى البيت الذى أنشده ابن الأعرابى:

وبلدة مجهل تمسى الرياح بها لواغبا وهـى نـاء عـرضها خـاويـة

فإن لواغبا خبر تمسى.

وكما فى قول الآخر:

قلبى من الزفرات صدعه الهوى   وحشاى من حــر الفراق أميم

وكما فى البيت الذى أنشده ثعلب:

قل ما بدا لك من زور ومن كذب   حلمى أصم وأذنــى غير صماء

وكما فى قولهم: كتاب ناطق، وغير ذلك.

أو تكون خبرا وقع جملة، كما فى قول على - رضى الله عنه - المال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق فإن جملة (يزكو على الإنفاق) خبر (والعلم).

رابعتها: أن تكون فعلا ماضيا ويبدو أنه حينئذ يقصد منه ما فيه من الحدث مجردا عن الزمان فيكون صفة فى المعنى كما فى قول عبدالله بن سبرة الجرشى:

ساقيته الموت حتى اشتف آخره   فما استكان لما لاقى ولا ضرعا

فاللازم (الاشتفاف).

وكما فى الحديث (أطت السماء، وحق لها أن تئط...) وكما فى قولهم: استتب الأمر، وقولهم: عضه الدهر، وغير ذلك، أو تكون فعلا مضارعا كما فى قول الشاعر:

يريد الرمح صدر أبى بــراء   ويعدل عــن دمــاء بنى عقيل

وكما فى قول ذى الرمة:

يدف علــى آثارهــا دبرانها   فلا هــو مسبوق ولا هو يلحق

خامستها: أن تكون مجرورا كما فى قول الشاعر:

إذا كشف اليوم العماس عن استه   فلا يرتدى مثلى ولا يتعمم

فإن قوله: (استه) لازم للمشبه به. وهذه الشواهد والأمثلة، فيها مادة علمية يمكن الإفادة منها فى مناقشة بعض القضايا البلاغية، التى تحاور فيها بعض علماء البلاغة، مثل تلازم المكنية والتخييلية، أو عدم تلازمهما، ورد الاستعارة التبعية إلى مكنية، وهل يتأتى ذلك فى كل استعارة أو أنه راجع إلى الذوق وغير ذلك.

ولعل الله يهيء لهذه الشواهد والأمثلة بعض الباحثين فيفيد منها، ويستثمرها فيما يعود على الدرس البلاغى، والبيان العربى بالنفع والفائدة.

خـــاتمــة

في نهاية هذه الرحلة مع المجاز اللغوى، أواصل الحمد لله تبارك اسمه، وتعالى جده على توفيقه، وعونه، ونعمه التى لا تعد ولا تحصى، وأجلها شرف الانتماء إلى العلم، وطلابه، وهو شرف لايدانيه، ولا يضاهيه عرض الدنيا مهما اتسع مداه، واستعصى على العد، والإحصاء، وصدق الله ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

ويسعدنى أن ألقى الضوء على نبذ، ونكت مما تضمنه هذا الكتاب، ومعلوم أنه مكون من ثلاثة أبواب:

أولها: حول مسائل المجاز المرسل، وقضاياه، وقد استهل بتطور حقيقته، وكنهه لدى كوكبة من كبار البيانيين آخرهم الإمام (السكاكى) رحمه الله، وقد تبين من خلال معالجة قضاياه، وشواهده أن الفيصل الذى اعتمده الشيخ عبدالقاهر الجرجانى، وألح عليه، وهو التفرقة بين المجاز المرسل، والاستعارة باعتبار العلاقة، ليس ضربة لازب لا يمكن الزحزحة عنه، بل هو أمر اعتبارى؛ لأنه يتأتى أن ينظر إلى اللفظ الواحد باعتبارين مختلفين ليسا فى آن واحد معا، فيعد من قبيل الاستعارة، لو اعتبرت علاقة المشابهة، بين المنقول منه، والمنقول إليه، ويعد مجازا مرسلا إذا لوحظت علاقة الارتباط والملابسة، بين المعنى الحقيقى المنتقل منه، والمعنى المجازى المنتقل إليه - فمثلا - لفظ (كلمة) تأتى مجازا عن الكلام، إما من إطلاق الجزء على الكل فتكون مجازا مرسلا علاقته الجزئية، وإما على تشبيه ارتباط الكلام، وتماسكه، وتلاحمه بارتباط حروف الكلمة بعضها ببعض، فيكون استعارة، وقد عدد صاحب (لسان العرب) طرفا من هذه الكلمات، ووجهها على حسب الشكلين ذكرت فى مواضعها فى هذا الكتاب الذى بين أيدينا، وظهر كذلك أن اللفظ الواحد يتأتى أن يكون مجازا مرسلا، أو كناية باعتبارين - فمثلا - كلمة (لسان) وهو العضو المعروف يطلق مجازا مرسلا على اللغة، أو الكلام، كما هو مستفيض، وذائع فى قول الله تعالى على لسان نبى الله

إبراهيم عليه السلام ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٤] أى ثناء حسنا، وذكرا جميلا، وجاء كناية عن الكلام كما جاء فى (لسان العرب) «وقطع لسانه أسكته بالإحسان إليه... فكنى باللسان عن الكلام...» وغير ذلك من الكلمات التى سبق ذكرها، وهذا لا يتأتى فى آن واحد معا، وإنما يكون إذا انفكت الجهة، وتباينت النظرة.

وثانى الأبواب خصص لمسائل الاستعارة اللفظية، أو غير المفيدة، وصدر بالحديث عن تطور رؤية النقاد، والبيانيين لهذا اللون الذى يستعار فيه اسم جنس لما لا يوائم جنسه، أو يستعار اسم عضو لما لا يناسبه، وقد لاح من بادىء النظر أنهم اعتبروه مجازا متدنيا، عاريا عن الفائدة،لا طائل تحته، فهو استعارة فاحشة فى نظر (قدامه بن جعفر) واستعارة فى نهاية القبح عند (الآمدى) وموسومة بالرداءة عند (أبو هلال العسكرى) وإن اعتبرها قريبة إلى الصواب إذا قصد منها الذم، والهجاء، وليست مجرد نقل لفظ مكان آخر، وهى خطورة إلى الأمام فى طريق تطورها، وجعلها مفيدة عند ملاحظة التشبيه.

وجاء بعده الشيخ عبدالقاهر الجرجانى فصعد النظر فى هذه الاستعارة، وصوبه، واستقصى التأمل فى أعطافها، وبدا من مجمل كلامه حولها فى عدة مواضع أنه كان مترددا فى قبولها، أو رفضها، إلا أنه رأى فى إحدى نظراته أنها يمكن أن تكون مفيدة إذا لوحظ شبه بين طرفيها، واستطاع بفكرة الثاقب أن يخرج كثيرا من شواهدها المطروحة آنذاك على أنها مفيدة مرضية.

وقد أفاد (الزمخشرى) من كلام الشيخ عبد القاهر، ووسع دائرة شواهدها، وعرض نماذج جديدة منها فى (كشافه) مثل استعارة المشى للزحف، وطلع النخلة لطلع شجرة الزقوم - كما سبق بيانه فى موضعه.

وأضاف هذا الكتاب أنماطا متعددة، وشواهد جمة من الأحاديث، وكلام العرب شعره، ونثره لم تعهدها كتب البلاغة.

وعنى الباب **الثالث** والأخير بمباحث الاستعارة المفيدة، وهى كما قال الشيخ عبدالقاهر أكثر اتساعًا، وأرحب ميدانا، وأطول باعا من أختها آنفة الذكر.

وهذا الضرب من الاستعارة. كما هو متعالم يشمل التصريحية بشعبها الثلاث، الأصلية، والتبعية، والتمثيلية، والمكنية، وقرينتها، ومن الأمور التى استرعت الانتباه ما قام به الشيخ عبدالقاهر من حصر مواقع الاستعارة الأصلية من الإعراب، وتحديدها فى المبتدأ، والفاعل، والمفعول به، والمجرور بالحرف، والمجرور بالإضافة، وقد لاحظت أثناء تناول شواهدها وجود مواقع جديدة لم يعرض لها، لعلها موجودة فى مصادر أخر لم أهتد إليها، مثل وقوعها حالا، أو مفعولا لأجله، كما فى قول لبيد يصف نخلا تجاور ماء كثيرا:

يشربن رفها عراكا غير صادرة　　فكلها كارع فى الماء مغتمر

أو منادى كما فى قول علي - رضى الله عنه - يوم الجمل عندما مر بعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد مقتولا فقال لهفى عليك يعسوب قريش، فاستعار له فحل النحل وغير ذلك مما ذكر فى موضعه، وقلت هناك إننى اجتهدت فى فهم هذه المواقع الاستعارية الجديدة الزائدة فإن كان ما فهمته صوابا، يكون من حق هذه المواقع أن تضم إلى أخواتها، وتسلك فى سلكها.

وفى الاستعارة بالكناية وجهت شواهدها على رأى السلف، أو الجمهور، واستخرجت من تلك الشواهد مواقع قرينتها، دون حصر، أو قصر، فوجدت أنها وقعت مضافا، أو صفة مفردة، أو جملة، أو خبرا مفردا، أو جملة، وهو وصف فى المعنى، أو فعلا ماضيا، أو مضارعا باعتبار حدثه، أو مجرورا.

وقد بذلت قصارى الجهد فى فهم كل مجاز على حدة، وعبرت عنه بأسلوب سهل، لا تكلف فيه، ولا تعمل، وكل ما كتب هو جهد متواضع، لا يخلو من خلل، أو تقصير، فشأن الإنسان أن يصيب ويخطىء وينسى، ويتذكر، وصدق بشار حين قال:

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها　　كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

وإنى أتضرع إلى الله - عز وجل - أن يقيل العثرات، ويعفو عن الزلات، ويمن عليّ بالعافية فى الدين، والدنيا والآخرة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

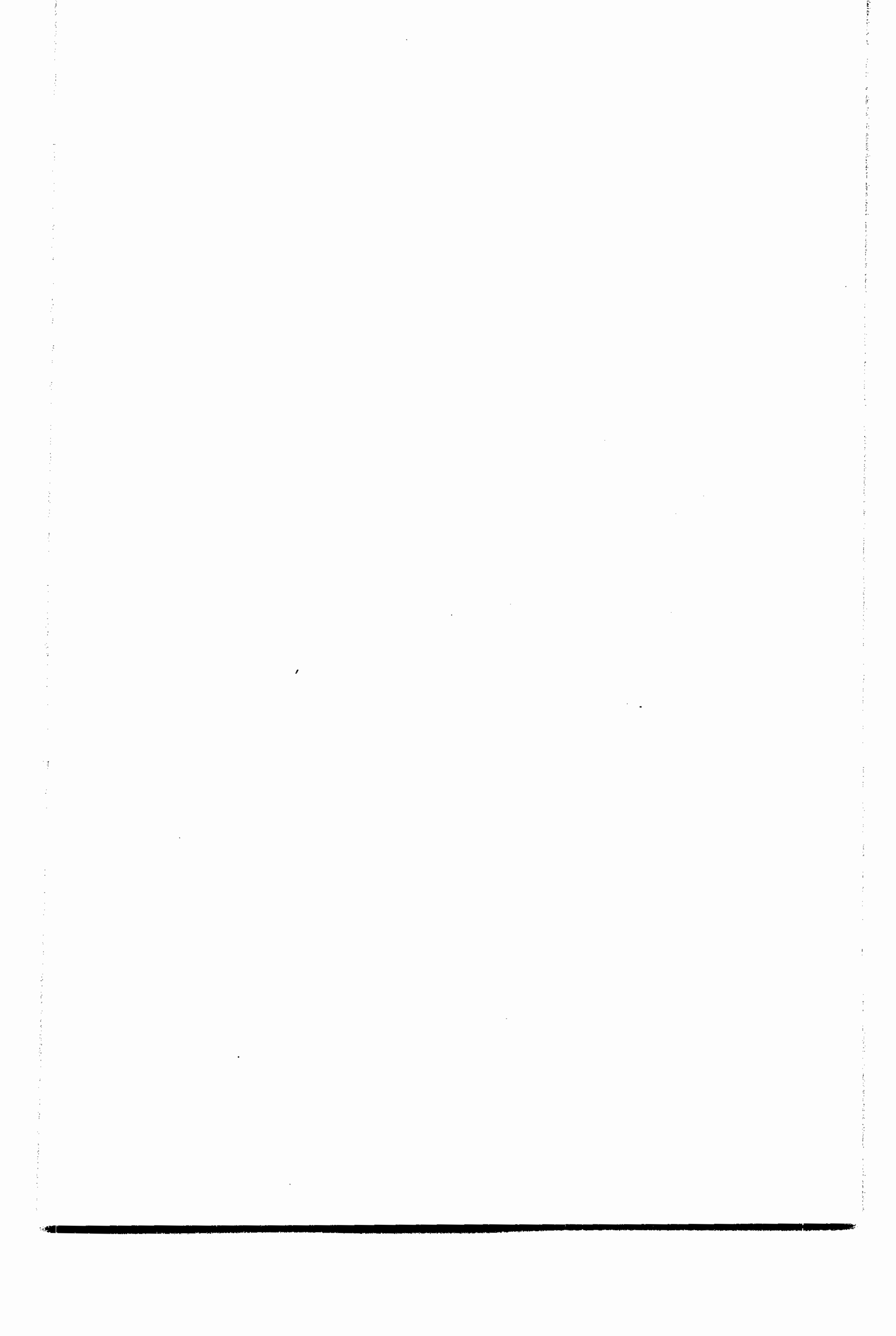
الفهـــارس

١ - فهرس الآيات

٢ - فهرس الأشعار

٣ - فهرس المراجع والمصادر

٤ - فهرس الموضوعات



فهرس الآيات

الصفحة	اسم السورة، والآيات الكريمة	رقم الآية
	(المؤمنون)	
٢٢	﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾	٧١
٢٨٨	﴿ولَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾	٧٦
	(النور)	
٢٢٣	﴿ ولْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾	٣١
١٤٥	﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ . . ﴾	٤٥
	(الفرقان)	
٢٥٩	﴿ورَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾	٣٢
٤٣	﴿ ومَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾	٦٨
	(الشعراء)	
٢٠، ٢٢، ٣٦، ٦٢، ٣٠٥	﴿ واجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴾	٨٤
	(القصص)	
٢٧٠	﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾	٨
٢٦١	﴿وأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾	١٠
٢٢٦	﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾	١٥
٨٥، ٩٤	﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾	٨٨
	(الروم)	
٩٢	﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾	١٧
٩٢	﴿وعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾	١٨

* * *

فهرس الأشعار

الأبيـــات	القـائل	الصفحة
واحتل بـرك الشتاء منزلـه وبات شيخ العيال يصطلب	الكميت الأسدى	٢٨٦، ٣٠٢
لها منطق لا هذريان طمى به سفاه ولا بادى الجفاء جشيب	أنشده ثعلب	٢٩٣
وقهوة صهباء باكـرتها بجهمة والديك لم ينعب	—	١٩٢
يأبى فؤادى أن يميل إلى الأذى حب الأذية من طباع العقرب	إيليا أبو ماضى	٢٥٢
حتى أشب لها وطال أبابها ذو رجلة شثن البراثن جحنب	ساعدة بن جؤية	١٦٣
من للجعافر يا قومى فقد صريت وقد يساق لذات الصرية الحلب	أنشده المفضل	٢١٥، ٢٣٧
إذا لم يكن إلا القتاد تنزعت مناجلها أصل القتاد المكالب	—	٢٠٥، ٢٣٦
وفى الجيرة الغادين من بطن وجرة غزال كحيل المقلتين ربيب	—	٢٣٥
وذكرت أهلـى بالعـرا ء وحاجة الشعث التوالب	—	١٥٦
فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب	نصيب	١٩٧
لعمرى لقد جربتكم فوجدتكم قباح الوجوه سيئى العذرات	الحطيئة	٩٦
أهذا هو النخل ملك الرياض أمير الحقول عروس العزب	أحمد شوقى	١٥٥

الأبيـــات	القـــائل	الصفحة
وقد نضـــرب البـــدر اللجـوج بكفه عليه ونعطى رغبة المتودد	ابن أحمر	٢٢٠
وكـــأن محمـــر الشقيــ ق إذا تصـــوب أو تصعد	الصنوبرى	٢٤٦
أعلام ياقـــوت نشـــر ن على رماح من زبرجد		
يلس الندى حتى كأن سراته غطاها دهان أو ديابيج تاجر	—	١٠٥
ألقى عليه الدهر كلكله من ذا يقوم بكلكل الدهر	أعرابية ترثى ولدها	٢٨٣، ٣٠٢
إنى أتتنى لسان بنى عامر أحاديثها بعد قول نكر	ابن برى	٦٣
إنى أتتنى لسان لا أسر بها من علو لا عجب منها ولا سخر	أعشى باهلة	٦٣
والمرء ما عاش ممدود له أمل لا ينتهى العمر حتى ينتهى الأثر	زهير	٦٠
والشيب ينهض فى السواد كأنه ليل يصيح بجانبيه نهـــار	الفرزدق	٢٩٥
إذا تغنى الحمام الورق هيجنى ولو تعزيت عنها أم عمار	—	٥٩
إلى الله أشكو هجمة عربية أضر بها مرّ السنين الغوابر	—	١٥٤
فأضحت روايا تحمل الطين بعدما تكون ثمال المقترين المفاقـــر		١٥٤

الأبيـــات	القـائل	الصفحة
من لد ما ظهر إلى سحير	الأصمعى	٢٨٩
حتى بدت لى جبهة القمير		
ولولا عسبه لرددتموه	زهير	١٨٧
وشر منيحة أير معار		
وإذا احتبى قربوسـه بعنانه	يزيد بن مسلمة	١٨٦
علك الشكيم إلى انصراف الزائر		
تغلغل حب عثمة فى فؤادى	—	
فباديه مع الخافى يسير		
تغلغل حيث لم يبلغ شراب		٢٧٦
ولا حزن ولم يبلغ سـرور		
شققت القلب ثم ذررت فيه	أنشده ثعلب	٢٧٥
هواك فليم فالتام الفطور		
معاذ الله يرصعنى حبركى	الخنساء	١٨٣
قصير الشبر من جشم بن بكر		
فى فتية بسط الأكف مسامح	—	٢٦٥
عند القتال قديمهم لم يدثر		
فلو كنت ضبيًا عرفت قرابتى	الفرزدق	١٤١، ١٦٩
ولكن زنجيا عظيم المشافر		
وأشعث مسترخى العلابى طوحت	—	١٦٧
به الأرض من باد عريض وحاضر		
فأبصر نارى وهى شقراء أوقدت		١٦٧
بعلياء نشز للعيون النواظـر		
فقلت له أهلا وسهلا ومرحبا	—	
بهذا المحيا من محـــى وزائر		١٦٦

الأبيـــات	القـائل	الصفحة
فما رقد الولدان حتى رأيته على البكر يمريه بساق حافر	(جبيها الأسدى)	١٣٤٤، ١٣٥، ١٦٦
يشربن رفها عراكا غير صادرة فكلها كارع فى الماء مغتمر	لبيبد	٢١١، ٢٤٠
(كالكرم إذ نادى من الكافور)	العجاج	٢١٤
(واستب بعدك ياكليب المجلس)	المهلهل	٢٧
وقاك الله يا ابنة آل عمرو من الفتيان أمثالى ونفسى فلا تلدى ولا ينكحك مثلى إذا ما ليلة طرقت بنحس	دريد	١٨٤
تطاول ليلى واعترتنى وساوسى لآت أتى بالترهات البسابس	معاوية	٢٠٧
لعمر أبيك لا ألقى ابن عم على الحدثان خير من بغيض غداة جنى على بنى حـــربا وكيف يداى بالزمان العضوض	المخبل السعدى	٢٨٤
وإنـــى ذوغنى وكـــريم قـــوم وفى الأكفاء ذو وجه عريض غلبت بنى أبى العاصي سماحا وفى الحرب المنكرة العضوض	عبدالله بن الحجاج	٢٨٥
وإلا النعـــام وحفّانه وطغيا مع اللهق الناشط	أسامة الهذلى	١٥٨
فباكهـــا مـــوثق النيـــاط ليس كبوك بعلها الوطواط	أنشده أبو عمرو	١٨٤

الأبيــــات	القـــائل	الصفحة
أتجعل نهبى ونهب العبيد بين عيينــة والأقــرع وما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس فى مجمع وما أنا دون امرىء منهما ومن تضع اليوم لا يرفع	العباس بن مرداس	١٢٠
ولكن مالى غاله كل جفنة إذا حان ورد أسبلت بدموع	لبيد	٢١٠، ٢٣٧
إن لنا أحمرة عجافا يأكلن كل ليلة إكافا	راجز	٤٩
وإنى لشراب المياه إذا صفت وإنى إذا كدرتها لعيوف	—	٢٩٠
وأمك حين تنسب أم صدق ولكن ابنها طبع سخيف	المغيرة بن حبناء	٢٠٩
سأمنعها أو سوف أجعل أمرها إلى ملك أظلافه لم تشقق سواء عليكم شؤمها وهجانها وإن كان فيها واضح اللون يبرق	عقفان بن قيس بن عاصم	١٣٦، ١٣٨، ١٤٤، ١٦٨
(وهن مدا غضن الأفيق)	أنشده الأصمعى	٨٠
يدف على آثارها دبرانها فلا هو مسبوق ولا هو يلحق	ذو الرمة	٢٩٠، ٣٠٣
والنوم ينتزع العصا من ربها ويلوك ثنى لسانه المنطيق	أنشده ثعلب	٣٠١

الأبيـــات	القـــائل	الصفحة
مفعوعم صخب الآذى منبعق		
كأن فيه أكف القوم تصطفق	كعب	٢٦٣
(فسلّى ثيابى من ثيابك تنسلى)		
يريد الرمح صدر أبى براء	امرؤ القيس	١٢٣
ويعدل عن دماء بنى عقيل	—	
ولنا روايا يحملون لنا		٣٠١
أثقالنا إذ يكره الحمل	—	
تمشى من الردة مشى الحفل		٧٢
مشى الروايا بالمزاد الأثقل	أبو النجم	٧٢
شربت الإثم حتى ضل عقلى		
كذاك الإثم يذهب بالعقول	—	٥٧
تعاف الكلاب الضاريات لحومهم		
وتأكل من كعب بن عوف ونهشل	النجاشى	٢٩٠
فبات عليه سـرجه ولجامـه		
وبات بعينى قائما غير مرسل	امرؤ القيس	٢٣
بنات وطاء على خد الليل		
لأم من لم يتخذهن الويل	—	٢٨٥
فقلت له لما تمطى بصلبه		
وأردف أعجازا وناء بكلكل	امرؤ القيس	٢٨٢
تسمع للماء كصوت المسحل		
بين وريديها وبين الحجفل	أنشده ابن برى	١٧٤
فرغن الهوى فى القلب ثم سقينه		
صبابات ماء الحزن بالأعين النجل	—	٢٦٢

الأبيـــات	القــائل	الصـفحة
والناس من يلق خيرا قائلون له وما يشتهي ولأم المخطىء الهبل	القطامى	٢٤٨
(والحشو من حفانها كالحنظل)	أنشده ابن برى	١٥٨
تساهم ثوباها ففى الدرع رأدة وفـى المـرط لفـاوان وإن ردفهمـا ثقـل	لأبى النجم الأصمعى	٢١٦
ذاك الذى وأبيك يعــرف مــالك والحـق يدفـع تـرهات الباطـل	ابن برى	٢٠٦
إذا كشف اليوم العماس عن استه فـلا يرتدى مثلى ولا يتعمـم	أنشده ثعلب	٢٨٦
قلبى من الزفرات قطعه الهوى وحشاى من حر الفراق أميم	—	٢٩٤، ٣٠٣
عشية ســال المـربدان كلاهمـا عجاجة موت بالسيوف الصوارم	الفرزدق	٦٥، ٦٦
ندمت على لسان فات منى فليت بأنه فى جوف عكم	الحطيئة	٦٣
منا أن ذرّ قرن الشمس حتى أغاث شريدهم فنن الظلام	—	٢٩٥
يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بئر فى لبان الأدهم	عنترة	٢٩١
له علىّ أياد لست أكفرها وإنما الكفر ألا تشكر النعم	—	٥١
رب حلم أضاعه عدم الما ل وجهل غطى عليه النعيم	حسان	٤٢

الأبيـــات	القـائل	الصفحة
ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه		
يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم	زهير	١٨٧
تثنى النقاب على عرنين أرنبة		
شماء مارنها بالمسك مرثوم	ذو الرمة	٢٦٠
وإدلاج ليل علـى غــرة		
وهاجــرة حـرها محتدم	الأعشى	٢٥٨
وما أم الردين وإن أدلت		
بعالمة بأخلاق الكــرام	—	٢٤٥
إذا الشيطان قصع فى قفاها		
تنفقناه بالحبــل التؤام		٢٤٤
لدى أسد شاكى السلاح مقذف		
لــه لبد أظفاره لــم تقلـــم	زهير	١٦٤
ومكن الضباب طعام العريب		
ولا تشتهيه نفوس العجم	أبو الهندى	١٥٩
ألا ما لنفس لا تموت فينقضى شقاها		
ولا تحيا حياة لهـــا طعـــم	—	٢١٠
يا ابن الكواكب من أئمة هاشم		
والرجح الأحساب والأحلام	—	٠٢٣٥
مصطارة ذهبت فى الخمر نشوتها		
كأن شـــار بهـــا ممـــا بــه لمم	عدى بن الرقاع	٢٠٨
رأيت عرابة الأوسى يسمو		
إلى الخيرات منقطع القرين	الشماخ	
إذا ما راية رفعت لمجد		٢٧١
تلقاهــا عـرابة باليمين		

الأبيـــات	القــائل	الصفحة
ونازعنى بها إخوان صدق		
شواء الطير والعنب الحقينا	الراعى	٧٨، ٧٩
ساقيته الموت حتى اشتف آخره		
فما استكان لما لاقى ولا ضرعا	عبدالله بن سبرة	٢٨٨، ٣٠٣
وبلدة مجهل تمسى الرياح بها لواغبا	الجرشى	
وهـى نـاء عـرضهـا خـاويـة	أنشده ابن	
فى مهمة قلقت به هاماتها	الأعرابى	٢٩٤، ٣٠٢
قلق الفئوس إذا أردن نصولا	الراعى	٣٠١
ولاقت بأرجاء البسيطة ساطعات		
من الصبح لما صاح بالليل نفرا	الشماخ	٢٩٦
على إثر أخرى قبلها قد أتت لها		
إليك فجاءت مقشعرا شـواتها	أبو ذؤيب	٢٩٢
وسقط كعين الديك عاورت صاحبى		
أباهـا وهيانـا لمـوقعهـا وكـرا	ذو الرمة	١٨٦
أنيخت فألقت بلدة فوق بلدة		
قليل بها الأصوات إلا بغامها	—	١٩٢
إذا ما الدهر جر على أناس		
كـلاكله أنـاخ بآخـرينا	—	
فقل للشامتين بنـا أفيقـوا		٢٨٣
سيلقى الشامتون كما لقينا		
نشات عسيرا لم تديث عريكتى		
ولـم يستقر فوق ظهرى كـورها	خالد بن زهير	٢٧٢
أبت الروادف والثدى لقمصها	الهذلى	
مس البطون وأن تمس ظهورا	—	١٧٨

الأبيـــات	القـائل	الصفحة
وإذا الرياح مع العشى تناوحت		
نبهن حاســدة وهجن غيورا		
فبتنا جلوسا لدى مهرنا		١٧٨
ننزع من شفتيه الصفارا	أبو دؤاد	١٤٠، ١٧٤
وذات هدم عار نواشرها		
تصمت بالماء تولبا جدعا	أوس بن حجر	١٣٤، ١٣٨، ١٥٦
قـد أفنى أناملـه عضـه		
فأضحى يعض على الوظيفا	—	١٣٥
أموالنا لذوى الميراث نجمعها		
ودورنا لخراب الدهر نبنيها	—	٢٧٠
جاب لها لقمان فى قلاتها		
ماء نقوعا لصدى هاماتها	—	
تلهمـه لهما بحجفـلاتهـا		١٧٣
يسيل درءا بين جانحاتها		
قد ســاغ فيه لهـا وجـه النهار		
كما ساغ الشراب لعطشان إذا شربا	عبدالله بن	٢٦٤
تزجى أغن كأن إبرة روقه	مسلم الهذلى	
قلم أصاب من الدواة مدادها	عدى بن الرقاع	
غلب المساميح الوليد سماحة		٢٥٦
وكفى قريش المعضلات وسادها		
وإذا نشرت له الثناء وجدته		
ورث المكارم طرفها وتلادها	عدى بن الرقاع	٢٥٥
وتعجبنى رجلاك فى النعل إننى		
أراك ذا نعـل إذا كنت حــافيا	المتنبى	١٦٨

الأبيـــات	القــائل	الصفحة
إذا القوم مدوا بأيديهم إلى المجد مد إليه يدا فنال الذى فوق أيديهم من المجد ثم مضى مصعدا	الخنساء	٢٤٦
زمان على غراب غداف فطيره الشيب عنى فطارا	—	٢٢٣
فاجمع أجلاسا شداداً يسوقها إلىّ إذا راح الرعاء عائيا		٢١٥، ٢٣٧
فإن تعافوا العدل والإيمانا فـإن فـى أيمـاننا نيرانا	—	
أيتها النفس أجملى جزعا إن الذى تحذرين قدوقعـا	أوس بن حجر	٨، ٢٣٣ ١٥٦
قوم إذا عقدوا عقــدا لجارهــم شدوا العناج وشدوا فوقه الكربا	الحطيئة	٢٢٨
إذا ما الملك سام الناس خسفا أبينا أن نقـر الظلـم فينـــا	عمرو بن كلثوم	٢١٢
وكنا كالحريق لدى كفاح فيخبو ساعة ويهب ساعا	القطامى	٢١٢
نقرى الضيوف إذا ما أزمة أزمت مصطار ماشية لم يعد أن عصرا	ابن الرقاع	٢٠٩
نبئت قافية قيلت تناشـدها قوم سأترك فى أعراضهم ندبا	—	٢٢٦
دهمــا كأن الليل فى زهائها لا ترهب الذئب على أطلائها		١٥٣

فهرس المصادر والمراجع

● أسرار البلاغة – الشيخ عبد القاهر الجرجانى – تحقيق الشيخ محمد رشيد رضا – مكتبة القاهرة ط سادسة ١٩٥٩م.

● أسرار البلاغة – الشيخ عبد القاهر الجرجانى تحقيق هـ ريتر ط استانبول وزارة المعارف ١٩٥٤م.

● أسرار البلاغة تعليق الشيخ محمود شاكر ط أولى ١٤١٢هـ.

● أساس البلاغة – الزمخشرى.

● الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز – العز بن عبدالسلام – المكتبة العلمية – المدينة المنورة.

● الأطول – العصام – ط الآستانة ١٢٨٤هـ.

● الأعلام – خير الدين الزركلى – دار العلم للملايين – بيروت ط الرابعة ١٩٧٩م.

● الإفصاح عما تضمنه الإيضاح من مباحث البيان – الدكتور أحمد محمد الحجار – دار الاتحاد العربى للطباعة ١٩٧٣م.

● الإيضاح – الخطيب القزوينى (مع البغية).

● البرهان فى علوم القرآن – الزركشى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – دار التراث القاهرة.

● بغية الإيضاح – الشيخ عبدالمتعال الصعيدى المطبعة النموذجية ١٩٧٣م.

● بغية الوعاة – السيوطى تحقيق محمد أبو الفضل – بيروت.

● البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى – د. محمد أبو موسى – مكتبة وهبة.

- بلاغة القرآن فى آثار القاضى عبدالجبار – دكتور عبد الفتاح لاشين – دار الفكر العربى .
- البلاغة تطور وتاريخ د. شوقى ضيف – دار المعارف ١٩٦٥م.
- البلاغة فنونها وأفنانها دكتور فضل حسن عباس – دار الفرقان للنشر والتوزيع – عمان – الأردن ط أولى ١٩٨٧م.
- تأويل مشكل القرآن – ابن قتيبة – شرحه السيد أحمد صقر ط ثانية ١٩٧٣م – دار التراث القاهرة .
- تحرير التحبير – ابن أبى الإصبع – تحقيق دكتور محمد حفنى شرف – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة – ١٣٨٣هـ.
- التصوير البيانى دكتور محمد أبو موسى ط ثانية – ١٩٨٠م – مكتبة وهبة – القاهرة .
- تفسير القرطبى – ط الشعب – القاهرة .
- تفسير البيضاوى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) مكتبة الصنادقية – بالأزهر .
- تفسير أبو السعود (إرشاد العقل السليم . . . .) ط دار إحياء التراث العربى – بيروت .
- تفسير الكشاف – الزمخشرى – دار المعرفة – بيروت .
- التفسير الكبير – الإمام فخر الدين الرازى – دار الفكر – بيروت – ط ثالثة ١٤٠٥هـ.
- تلخيص المفتاح – للخطيب القزوينى – مطبعة دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابى الحلبى .
- تنزيه القرآن عن المطاعن – القاضى عبدالجبار – دار النهضة الحديثة – بيروت – لبنان .
- حاشية الإنبابى على الرسالة البيانية – للصبان – المطبعة الأميرية ط أولى ١٣١٥هـ.

● حاشية الخضرى على شرح الملوى على السمر قندية المطبعة الأزهرية ط أولى ١٣٢٨هـ.

● حاشية الدسوقى على مختصر السعد - ضمن شروح التلخيص.

● حاشية السيد الشريف على المطول - على هامش المطول مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠هـ.

● الحقيقة والمجاز فى القرآن الكريم دكتور على محمد حسن ط أولى ١٩٧٤م مطبعة السعادة.

● الحيوان - للجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون ط ثانية ١٩٦٥م.

● الخنساء - للدكتور محمد جابر عبدالعال - سلسلة أعلام العرب - وزارة الثقافة والإرشاد القومى ١٩٦٣م.

● الخصائص - لابن جنى - تحقيق محمد على النجار - دار الهدى للطباعة والنشر - بيروت - لبنان.

● درر العبارات وغرر الإشارات فى تحقيق معانى الاستعارات - أحمد بن محمد المكى الحموى - ت د. إبراهيم عبدالحميد التلب ١٤٠٧هـ.

● دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبدالقاهر الجرجانى فى التشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير - عبد الهادى العدل.

● دلائل الإعجاز - عبدالقاهر الجرجانى - تعليق الشيخ محمود شاكر - مكتبة الخانجى - القاهرة.

● دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين - الشيخ محمد بن علان ط جمعية النشر والتأليف الأزهرية ١٩٢٨.

● ديوان أحمد شوقى.

● ديوان أوس بن حجر - تحقيق وشرح الدكتور محمد يوسف نجم ط ثالثة - دار صادر - بيروت.

• ديوان الحطيئة – دار صادر – بيروت ١٩٨١م.

• ديوان الراعى النميرى تحقيق رانهرت فايبرت – بيروت ١٤٠١هـ – دار النشر – فرانش.

• ديوان الفرزدق – دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٠هـ.

• الرسالة البيانية للصبان – المطبعة الأميرية ط أولى ١٣١٥هـ.

• زهر الآداب وثمر الألباب – لأبى اسحاق إبراهيم على الحصرى القيروانى – شرح وضبط دكتور زكى مبارك – دار الجيل – بيروت ط رابعة ١٩٧٢م.

• سنن أبى داود – دار إحياء السنة النبوية – مراجعة الشيخ محمد محيى الدين عبدالحميد.

• شذرات الذهب فى أخبار من ذهب – ابن العماد الحنبلى – دار إحياء التراث – بيروت.

• شرح ديوان لبيد بن ربيعة تحقيق وتقديم دكتور إحسان عباس ط وزارة الإرشاد والأنباء – الكويت ١٩٦٢م.

• شرح القصائد العشر للتبريزى – دار الجيل – بيروت.

• شرح المعلقات السبع – الزوزنى – المطبعة التجارية الكبرى – القاهرة ١٣٨٠هـ.

• شعر النابغة الجعدى – منشورات المكتب الإسلامى بدمشق – ط أولى ١٩٦٤.

• صحيح مسلم – شرح الإمام النووى – ط الشعب.

• الصناعتين – أبو هلال العسكرى – تحقيق دكتور مفيد قميحة – دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨١م.

• صور من تطور البيان العربى دكتور كامل الخولى ط أولى ١٩٦٢م دار الأنوار للطباعة والنشر.

● العمدة – ابن رشيق – تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد – ط خامسة – دار الجيل – بيروت.

● عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح – بهاء الدين السبكى – شروح التلخيص.

● عمدة القارى – شرح صحيح البخارى – الإمام العينى ط أولى ١٩٧٢م – مطبعة مصطفى الحلبى وأولاده.

● غراس الأساس – ابن حجر العسقلانى – تحقيق وتعليق دكتور توفيق محمد شاهين – مكتبة وهبة – ط أولى ١٩٩٠م.

● غريب الحديث – ابن الجوزى – تعليق دكتور عبدالمعطى أمين القلعجى – دار الكتب العلمية ط أولى بيروت لبنان ١٤٠٥هـ.

● فتح البارى – بشرح صحيح البخارى – لابن حجر العسقلانى – دار الريان للتراث – ط أولى ١٤٠٧هـ.

● الفخر الرازى والبلاغة العربية – رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية اللغة العربية – القاهرة – للدكتور مخمد جلال الذهبى.

● الفروق فى اللغة – أبو هلال العسكرى – منشورات دار الآفاق الجديدة – بيروت ط خامسة ١٩٨١م.

● الفائق فى غريب الحديث – الزمخشرى – تحقيق على محمد البجاوى وآخر. مطبعة عيسى البابى الحلبى ط ثانية.

● فن الاستعارة – دكتور أحمد عبدالسيد الصاوى الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الاسكندرية ١٩٧٩م.

● لسان العرب – ابن منظور ط دار المعارف.

● المطول – سعد الدين التفتازانى – مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠هـ.

● المفتاح – السكاكى – مطبعة مصطفى البابى الحلبى ١٩٣٧م.

● مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف – الشيخ محمد عليان المرزوقى – نهاية الكشاف – دار المعرفة – بيروت.

● المنهاج الواضح – الأستاذ حامد عونى – ط ثالثة – مطبعة مخيمر – ١٩٦١.

● المباحث البيانية فى تفسير الفخر الرازى د. أحمد هنداوى هلال – مكتبة وهبة القاهرة ط أولى ١٤٢٠هـ سنة ١٩٩٩م.

● مجمع الأمثال – الميدانى تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد – مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٥م.

● المجازات النبوية – الشريف الرضى – ضبط وشرح طه عبدالرءوف سعد – مكتبة مصطفى البابى الحلبى وأولاده.

● المثل السائر – ابن الأثير تحقيق دكتور أحمد الحوفى وآخر. دار نهضة مصر – ط ثانية.

● المختصر – سعد الدين التفتازانى – شروح التخليص.

● مسند الإمام أحمد – مكتبة التراث الإسلامى شرح أحمد محمد شاكر.

● مجاز القرآن – أبو عبيدة تعليق دكتور محمد فؤاد سزكين – مكتبة الخانجى – القاهرة.

● معانى القرآن – الفراء – عالم الكتب – بيروت ط ثانية ١٩٨٠م.

● المعجم الوجيز – إصدار مجمع اللغة العربية – القاهرة.

● معجم المؤلفين – تأليف عمر كحالة – مكتبة المثنى – لبنان.

● ابن منظور وأثره فى الدراسات اللغوية دكتور محمد متولى منصور – رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية اللغة العربية – بالقاهرة.

● مواهب الفتاح – فى شرح تلخيص المفتاح – ابن يعقوب المغربى – ضمن شروح التلخيص.

● الموازنة – الآمدى – تحقيق السيد أحمد صقر – دار المعارف – ط رابعة.

● نقد الشعر – قدامة بن جعفر – تحقيق دكتور محمد عبد المنعم خفاجى ط أولى ١٩٧٩م – مكتبة الكليات الأزهرية.

● نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز – الإمام فخر الدين الرازى – مطبعة الآداب ١٣١٧هـ.

● النهاية فى غريب الحديث والأثر – ابن الأثير تحقيق طاهر أحمد الزاوى وآخر المكتبة العلمية – بيروت.

* * *

فهرس الموضوعات

الموضـــوع | الصفحة

الباب الثاني: الاستعارة غير المفيدة ومتى تصبح مفيدة؟
(١٢٧ - ١٩٤)

رقم الإيداع	٢٠٠٥/١٥٩٨٢
الترقيم الدولى	I.S.B.N 977-17-2542-4